

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ



المحور الأول

التعريف العام بالإسلام



خطابنا الإسلامي
في عصر العولمة

الإمام يوسف القرضاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا». متفق عليه.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النَّعَم». متفق عليه.

عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال رجل: والله يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا. فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، في موعظة أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «إن منكم منفريين، فأياكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة». متفق عليه.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم
المجتبى، محمد وآله وصحبه ومن بهم اقتدى فاهتدى.

أما بعد:

فقد كتب كثيرون - بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م
الشهيرة - يطالبون بوجوب إعادة النظر والمراجعة لخطابنا الديني
الإسلامي، وخصوصًا بالنسبة للآخر، ونظرنا إليه، وموقفنا منه.

وهذا الكلام بعضه حق، وبعضه باطل، وبعضه حق أريد به باطل.

فمن الحق: أن بعض الأفراد أو الفئات منا، تنهج نهج التشدد والغلو،
ولا سيما مع الآخر، أي مع المخالفين في الدين، أو المخالفين في
المذهب، أو المخالفين في الفكر، أو المخالفين في السياسة.

والحمد لله، أن وفَّقني للوقوف في وجه تيار الغلو والتطرف، منذ
أمسكتُ القلم لأدخل ميدان التأليف^(١).

(١) في أول كتاب لي، وهو كتاب: الحلال والحرام في الإسلام، منذ سنة ١٩٦٠م، وأنا أتبنى
تيار الوسطية والاعتدال، الذي يتميز بعدة خصائص منها: التيسير في الفتوى، والتبشير =

ونهج الغلو والتشدد مكروه بمقتضى الفطرة، مذموم بحكم الدين، وهو أكثر ذمًا في عصر تقارب فيه الناس، ثم ازدادوا تقاربًا، حتى أصبحوا كأهل قرية واحدة.

ومن الحق أن يراجع الناس أفكارهم ومواقفهم واجتهاداتهم، على ضوء المستجدات، وفي إطار الثوابت التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، كما قال علماؤنا بوجوب تغير الفتوى بتغير موجباتها. فقد توجب هذه المراجعة تغييرًا في مضمون بعض المقولات، وقد توجب تغييرًا في أسلوبها، وقد توجب تغييرًا في ترتيبها في سلم الأولويات، إلى غير ذلك.

ومن الحق أن كثيرًا من المخلصين من المسلمين أنفسهم شعروا بضرورة هذا التغيير، ودعوا إليه، ومنهم إخوة نثق بدينهم وإيمانهم، كما نثق بتفكيرهم وسداد نظرتهم، في أمريكا نفسها، وفي أوروبا أيضًا.

وإذا كان هذا من الحق، فإن من الباطل ما يطالب به بعض الناس: أن نشكل لنا دينًا من جديد، نحذف منه ونبقي، ونغير فيه ونبدل، وفق ما تطلبه أمريكا وحلفاؤها!

وعلى هذا يجب أن نغير مناهج تعليمنا الديني كلها، وخطابنا الديني كله، حتى ترضى عنا أمريكا، وما هي براضية، فما يرضى هؤلاء إلا أن نسلخ من ديننا، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ

= في الدعوة، والدعوة إلى الحوار، والتسامح مع المخالفين. وتجسد هذا المنهج بوضوح أكثر، حينما برزت «الصحوة الإسلامية المعاصرة» منذ أوائل السبعينيات، ولمست حاجتها إلى التسديد والترشيد، حتى لا تحرفها موجات الغلو والتنطع الذي عدّه الإسلام من مهلكات الأمة.

﴿إِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُنِيتَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولقد سلكت بعض الأنظمة العربية والإسلامية هذا السبيل منذ زمن، فاتخذت فلسفة «تجفيف المنابع» أي منابع الدين الإيجابي الذي يربّي الشخصية المسلمة، والعقلية المسلمة، والنفسية المسلمة، وحذفت - ولا تزال تحذف - كلّ ما يغرس معاني القوة والبطولة والغيرة على الحقّ، والجهد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحاربت كلّ دعوة صادقة لإحياء الإسلام الصحيح، وتربية الناس عليه، وشجّعت إسلام الخرافات والأضرحة والدروشة، لأنه مشغول عنها، بل سائر في ركابها، ساكت عن مظالمها وانحرافاتهما.

إننا نرحّب بتجديد الخطاب الديني، والارتقاء به، وتطويره إلى ما هو أحسن وأمثل: فكرة وأسلوباً، أو مضموناً وشكلاً، والمسلم ينشد الأحسن دائماً. ولكننا نحذّر من خطورة التنادي المستمر بتغيير الخطاب الديني الإسلامي في هذا الوقت خاصة، ولا سيما من أقلام مشبوهة، لا يهتمها أمر الدين ولا أهله، وليس لله ولا للآخرة مكان في حياتها الفكرية أو السلوكية، ولا تبالي برضا الله أو سخطه، لكن يعينها كلّ العناية: أن يرضى السيد الأمريكي عنها، وأن ينفحها ببعض بركاته وكراماته!

إن التغيير في هذا الوقت، أو في هذه «الهوجة» محفوف بخطرين: الأول: خطر الإذعان للضغوط الأمريكية المدججة بالسلاح والمال والعلم والدهاء والتخطيط، فيستجيب لهم منا من يستجيب رغباً ورهباً،

ويصنع لنا «إسلامًا أمريكيًّا» لا يهتمه إرضاء الله، بقدر ما يهتمه إرضاء «العم سام»!

والثاني: خطر تمكين الفئات اللادينية: لتساهلهم في توجيه المرحلة القادمة للأمم، بترويج فكرها المستورد، ومفاهيمها الدخيلة، تحت عنوان التجديد والتطوير، وإنما هو التبديد والتخريب.

فالواقع أننا نخشى من تيارين كلاهما أشد خطرا من الآخر:

١ - تيار الغلو والتشدد والتنطع، الذي يريد أن يضيق على الأمة ما وسع الله، ويعسر عليها ما يسر الله، وأن يعادي العالم كله، ويقاثل الناس جميعًا، ولو سالموا المسلمين، ولا يتسامح مع مخالف له، مسلمًا كان أو غير مسلم.

٢ - وتيار الانفلات والتسيب، الذي اتخذ إلهه هواه، فلا يرجع إلى أصل، ولا يتقيّد بنص، ولا يستند إلى إمام معتبر. إنه رفض اتباع أئمة الإسلام، ورضي بتقليد أئمة الغرب، فمنهم يستمد، وعليهم يعتمد، وبهم يصول ويجول!

لهذا كان على أهل العلم والدعوة، وخصوصا دعاة المنهج الوسطي: أن يقولوا كلمتهم، ويبيّنوا وجهتهم، ويشرحوا رسالتهم، في خضم هذه الفتن المتلاحقة التي تذر الحليم حيران، وفي هذا الجو الرهيب الذي يحاط فيه بالأمة من كل جانب. وعليهم أن يعضوا بالنواجذ على الحق الذي ائتمنهم الله عليه، معتصمين بحبل الله المتين: ﴿يَبْلَغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأودُّ أن أنبّه هنا على حقيقة ناصعة لا ريب فيها، وهي: أن خطابنا الإسلامي - بحمد الله تعالى - منذ نحو أربعين سنة أو تزيد^(١): هو هو، لم يتغيّر ولم يتبدّل. منذ هدانا الله بفضلِهِ وتوفيّقهِ إلى اختيار «منهج الوسطية»، وهو المنهج الذي رأيته معبراً عن الإسلام الحقّ، وعن منهج الأمة التي مدحها الله بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وحقيقته: إقامة الوزن بالقسط في الأمور كلّها، بعيداً عن الطغيان والإخسار، اللذين حذّر القرآن منهما، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الزُّنْ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

فما نقدمه اليوم ليس جديداً على نهجنا، ولا هو من ثمرات (١١/٩/٢٠١١م)، ولذا نجد فيه مقتبسات كثيرة من كتبنا القديمة.

الجديد اليوم: أن كثيراً من المسلمين ممن كانوا يعارضون تيار الوسطية: أصبحوا ينادون به، ويشعرون بالحاجة إليه، حتى بعض الحكام انتبهوا إلى أهمية هذا الأمر، وضرورة التمسك به، وتربية الأمة عليه، بعد أن كانوا يرفضونه، ويقاومون دعاته.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

ولا أريد أن أختم هذه المقدمة، حتى أنبّه على قضية مهمة، وهي: أن أمريكا والغرب يطالبوننا نحن المسلمين، أن نراجع خطابنا الديني، وأن نسعى لتغييره وتطويره، ولكن أحداً لم يطلب منهم - كما طلبوا منا - أن

(١) أي منذ نشرت الطبعة الأولى من كتابنا: الحلال والحرام في الإسلام، سنة ١٩٦٠م.

يغيروا هم من خطابهم. فاليمين المسيحي المتطرف هو الذي يقود أمريكا اليوم، ويرسم سياستها، والرؤساء الأمريكيان من عهد «كارتر» إلى اليوم، من أنصار هذا اليمين، حتى جاء «بوش» الصغير، وجسد هذا التطرف اليميني بقوة ووضوح، وقال فيما قال: إن ربي أمرني أن أضرب ابن لادن فضربته! وأمرني أن أضرب صدام حسين، فضربته! كأنه نبيُّ يُوحى إليه!

هذا اليمين المسيحي المتطرف هو الذي يساند الصهيونية المغتصبة الظالمة في اغتصابها وظلمها، ويحمي بقوته ما اغتصبته بالدم والعنف، ويؤيِّدها في اعتداءاتها المستمرة على الشعب الفلسطيني، بالمال والسلاح والفيتو، بناء على رؤى واجتهادات دينية عنده، هي التي زينت له حماية الاغتصاب والطغيان، والمعاونة على الإثم والعدوان.

فلماذا لا يراجع بوش وجماعة اليمين المتصهينون رؤاهم واجتهاداتهم التي دفعتهم إلى تأييد العدوان والمعتدين، وغض الطرف عن كل ما يصيب أبناء فلسطين من الأذى والبلاء في أنفسهم وأموالهم وذرائعهم وبيوتهم ومزارعهم ومرافق حياتهم كلها؟!

ولماذا لا يطالب اليهود بمراجعة خطابهم الديني الذي أغراههم باغتصاب فلسطين، وإخراج أهلها منها، وتشريدكم في آفاق الأرض بغير حق، وضرب من بقي منهم بالصواريخ والمروحيات والدبابات، تقتل وتدمر بلا هوادة ولا رحمة؟ ولماذا لم يفعل ذلك آبائهم منذ نحو تسعة عشر قرناً من الزمان، حينما ضربهم الرومان ضربة قاضية، قطعتهم في الأرض أمماً؟ لماذا أغفل آبائهم الوعد الإلهي المزعوم لهم آلاف السنين، ثم تذكروه فجأة في هذا العصر؟



أتمنى على الذين يدعون المسلمين أن يراجعوا خطابهم الديني: أن يدعوا اليهود والمسيحيين أن يغيّروا خطابهم ولاهوتهم أيضاً، فهذا هو مقتضى العدل والمساواة بين الخصوم.

أما نحن فقد راجعنا خطابنا من قديم، بدعوة من ديننا نفسه، لا بطلب من بوش ولا غير بوش.

والحمد لله رب العالمين.

الدوحة في شوال سنة ١٤٢١هـ

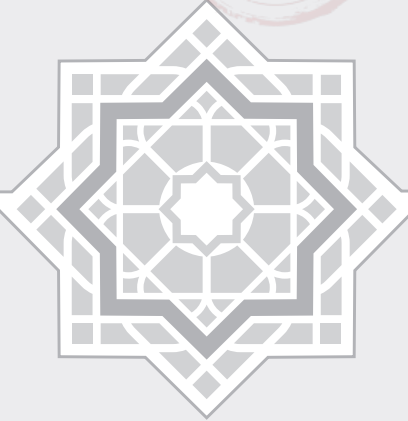
كانون الثاني (يناير) سنة ٢٠٠٣م

يوسف القرضاوي





مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



خطابنا الديني في عصر العولمة





تمهيد

هل يتغير الخطاب الديني؟

المقصود بالخطاب الديني أو الإسلامي:

قبل أن نتحدث عن خطابنا الديني الإسلامي، وما ينبغي أن يكون عليه: يحسن بنا أن نحدد: ما المقصود من هذه الكلمة التي شاعت وانتشرت على الألسنة والأقلام؟

في رأيي أن المراد بخطابنا الديني الإسلامي: البيان الذي يوجه باسم الإسلام إلى الناس مسلمين أو غير مسلمين، لدعوتهم إلى الإسلام؛ أو تعليمهم لهم، وتربيتهم عليه: عقيدة أو شريعة، عبادة أو معاملة، فكرًا أو سلوكًا؛ أو لشرح موقف الإسلام من قضايا الحياة والإنسان والعالم: فردية أو اجتماعية، روحية أو مادية، نظرية أو عملية.

وهذا الخطاب يتميز بالسعة والشمول، بقدر سعة الإسلام وشموله:

فهو يشمل «الفرد»: بجسمه وعقله وروحه ووجدانه.

ويشمل «الأسرة» بمعناها الموسع: بعلاقاتها الزوجية والأبوية والأخوية والرحمية، ويشمل «المجتمع» بكل طبقاته وتكويناته الدينية والعرقية واللغوية والاقتصادية وغيرها.

ويشمل «الأمة» بكل شعوبها وأوطانها، وهي أمة الإجابة، التي جعلها الله أمة وسطا، وعدّها أمة واحدة.

ويشمل «الدولة» التي تحكم الأمة بما أنزل الله لها من الكتاب والميزان، وتقيم القسط بين الناس، وتحرس الدين، وتسوس الدنيا به، لا تريد علوا في الأرض ولا فسادا.

ويشمل «العالم» كلّ، فهو يوجّه الدعوة إليه، ويقيم العلاقة معه، متعاوننا على البرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان، متضامنا في مواجهة الطغيان والاستكبار في الأرض، مساندا للمظلومين والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام ظلم الجبابة وجبروت الظالمين.

يتعرّض هذا الخطاب لقضايا دينية خالصة، تتعلّق بالعقائد والغيبيات، أو بالعبادات الشعائرية.

وقد يتعرض لقضايا أخلاقية، تتصل بالقيم العليا، والفضائل والسلوكيات الإنسانية الراقية.

وقد يتعرض لقضايا اجتماعية، تتعلّق بالرقى بالمجتمع من حضيض المادية والإباحية والنفعية التي غرقت فيها المجتمعات المادية المعاصرة، وحل مشكلات المجتمع من الفقر والجهل والمرض والرذيلة والفساد الخلقي، والتظالم الاجتماعي، والاستبداد السياسي.

وقد يتعرض لقضايا فكرية أو اقتصادية أو سياسية أو دولية، ليقدم العلاج لها في ضوء تعاليم الإسلام.

الخطاب الإسلامي إذن ليس مقصورا على الروحانيات وشؤون الغيب، كما يريد بعض الناس أن يحصره.

ونظرا لهذا الشمول والامتداد والتنوع: كان لهذا الخطاب خطره وأثره، إذا وضع في يد مَنْ لا يحسنه، ولم يُعَدَّ الإعداد الكافي للقيام به، لا من حيث الفقه في الدين، ولا من حيث الفقه في العصر والواقع، فهو يخلط ويخطئ، ويهرف بما لا يعرف. وضحية ذلك: المجتمع المسكين، والدين نفسه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يَتَّخِذُ هذا الخطاب أساليب شتى قديمة وحديثة: من الخطبة، والمحاضرة، والدرس، والحديث، والمقالة، والرسالة، والكتاب، والندوة، والبحث الميداني، والتحقيق الصحفي، والبرنامج الإذاعي أو التلفزيوني، والعمل الدرامي. ويمكن أن يستخدم فيه النثر، والشعر، والزجل، والقصة، والمسرحية.

كما يمكن أن يستخدم فيه كل أجهزة الأعلام المعاصر وآلياته: المكتوبة والمسموعة والمرئية، محلية وإقليمية وعالمية، من الإذاعات الموجهة، إلى القنوات الفضائية، إلى شبكة المعلومات (الإنترنت).

وهذا الخطاب الإسلامي: قد يظهر في صيغة دعوية تربوية، أو في صيغة فقهية تشريعية، أو في صيغة فكرية فلسفية، وإن كان التركيز الأكبر على «الصيغة الدعوية» فهي الأصل والأساس في الخطاب الديني.

هل يتغيّر الخطاب من عصر إلى آخر؟

هل يتغيّر الخطاب الديني من عصر إلى آخر؟ وهل الخطاب في عصر العولمة^(١)، غيره فيما قبله من العصور؟ وهل كلُّ عصر له خطاب

(١) راجع كتابنا: المسلمون والعولمة ص ٩ - ١٧، مفهوم العولمة، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

يخصّه؟ هل الخطاب مثل أزياء الناس: زي للشتاء وزي للصيف، وزي لأهل المدينة، وآخر لأهل القرية، وزي لأهل كل مهنة يختلف عن زي أهل مهنة أخرى؟

أليس الدين - الذي يستمد منه هذا الخطاب - ثابتاً، فلماذا يتغير الخطاب ويتنوع بأسباب شتى؟

هذه التساؤلات تحتم علينا أن نبين: أن الدين في أصوله ووكلياته العقائدية، والتعبدية والأخلاقية، والشرعية، لا يتغير، ولكن الذي يتغير هو أسلوب تعليمه والدعوة إليه.

وإذا كان المحققون من أئمة الدين وفقهائه قد قرروا: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال. والفتوى تتعلق بأحكام الشرع. فإن نفس هذا المنطق يقول: إن تغير الدعوة أو الخطاب - بتغير الزمان والمكان والعرف والحال - أحق وأولى.

فما يقال للمسلمين غير ما يقال لغير المسلمين.

وما يقال للمسلم الحديث العهد بالإسلام غير ما يقال للمسلم العريق في الإسلام.

وما يقال للمسلم الملتزم المستقيم غير ما يقال للمسلم المتفلت العاصي لربه.

وما يقال للمسلم في دار الإسلام غير ما يقال للمسلم في مجتمع غير إسلامي.

وما يقال للشباب غير ما يقال للشيوخ.



وما يقال للنساء غير ما يقال للرجال.

وما يقال للأغنياء غير ما يقال للفقراء.

وما يقال للحكام غير ما يقال للمحكومين.

وما يقال في قرية من قرى الخليج، أو صعيد مصر، أو ريف باكستان، غير ما يقال للناس عبر قنوات الفضاء، ويشاهده ويسمعه العالم.

وما يقال للناس في عصور العزلة، غير ما يقال لهم في عصر ثورة الاتصالات، التي جعلت العالم كله قرية واحدة، وهذا أهم ما تدلُّ عليه كلمة «عصر العولمة»، أي عصر التقارب العالمي.

لا شك في أن هناك أقدارًا مشتركة تقال للجميع ويخاطب بها الجميع، ولكن يبقى هناك خصوصية لكل فئة ممن ذكرنا، توجب على العالم والداعية أن يوجّه لها خطابًا خاصًا، يجيب عن تساؤلاتها، ويحلُّ مشكلاتها، ويردُّ على شبهاتها.

لما أرسل النبي ﷺ، معاذ بن جبل الأنصاري إلى اليمن، قال له: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...» الحديث^(١).

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث، في تعليل البدء بهذه الجملة «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ»: «هي كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا يكون العناية في مخاطبتهم، كمخاطبة الجهال من عبده الأوثان»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

(٢) فتح الباري (٣/٣٥٨)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

ومن هنا لا يستغرب أن يكون خطابنا الديني في عصر العولمة مغايرًا - بعض المغايرة - لخطابنا الديني قبل عصر العولمة، إذا ثبت لنا فعلاً أن هناك عصرًا جديدًا يحمل طابع العولمة.

ربما كان خطابنا - نحن المسلمين - قبل ذلك العصر، ذا طابع محلي، أعني: أننا نخاطب فيه أنفسنا، ولا نفترض أن هناك أحدًا يسمعنا، أو يقرؤنا، أو يطلع على إنتاجنا العلمي والدعوي.

وهذا - بلا ريب - صحيح، وينطبق على طوائف منا، كانت تكلم نفسها في داخل دارها، ولا تحسب أن أحدًا يُنصت لقولها، أو يهتم خطابها، وربما كان خطابها يجرح الآخر، أو يؤذيه، أو يخيفه، من مضمون خطابه أو لهجته أو من سياقه.

شاركتُ في أحد البلاد الإسلامية في مؤتمر إسلامي كبير، حضره نحو خمسمائة شخص من أنحاء العالم، وقام أحد المشاركين، ففاجأ الجميع بكلام خرج فيه على خط المؤتمر واتجاهه، وقال: ليس هناك شيء اسمه حوار الأديان، أو تقارب بين الأديان، لأنه لا يوجد إلا دين واحد، وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. ولا يوجد أديان سماوية غير الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وكان بجواري رئيس المؤتمر، فقلتُ له: إن هذا المتحدث قال كلامًا خطيرًا، يمكن أن يشوّه صورة هذا المؤتمر، واتجاهه الإيجابي، إذا لم يُرد عليه، ويُفند ما قاله. قال: هذا كلام يقوله بيننا، ولن يتجاوز هذه القاعة.

قلتُ له: هذا مردود عليه من وجهين:



الأول: أنه لم يعد هناك أحد يكلم نفسه، أو فئة تستطيع أن تحصر كلامها داخل قاعة مغلقة، فهنا صحفيون ومندوبون لإذاعات وتلفزيونات، ينقلون كل ما يقال هنا إلى أنحاء الدنيا.

والثاني: أن ما قاله في ذاته غير صحيح، فهناك أديان غير الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. والآية التي استدلل بها ترد عليه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧].

ثم نحن مأمورون بالحوار دينًا، فقد قال تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وربما كان هذا الخطاب يحتقر الآخرين أو لا يلقي لهم بالاً، ولا يقيم لهم وزنًا. وربما كان مشحونًا بالغضب عليهم، والبغض لهم بسبب موقفهم من الإسلام وقضايا أمته، والوقوف مع أعدائه.

وربما كان هذا نتيجة لعدم المعرفة الكافية بالآخر. وقد قال العرب قديماً: من جهل شيئاً عاداه. ربما كان هذا أو كان غيره، فكل هذا مُسَوَّغ للنظر في خطابنا الديني - المسموع والمقروء - هل هو ملائم لعصرنا أو لا؟ وهل يتحقق به الدعوة إلى الله على بصيرة؟ وهل يستوفي شروط الكلام البليغ: الذي يجسد المطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته؟

ومما لا خلاف عليه: أن الخطاب الديني يختلف باختلاف المدرسة التي ينتمي إليها الداعية ويعبر عنها.

فخطاب الصوفي غير خطاب الأثري، وخطابهما غير خطاب المتكلم، وهو غير خطاب الفقيه.

وخطاب الفقيه الملتزم بتقليد مذهب غير خطاب الفقيه المتحرر من رِبقة التقليد.

وخطاب الداعية المخاصم للتصوف كلّه غير الذي يأخذ منه ما صفا ويدع ما كدر.

وخطاب الداعية المحصور في تراث السابقين غير الذي انفتحت عينه على العصر وثقافته وتياراته.

وخطاب الداعية الذي لم يخرج من بلده غير الداعية الذي جاب الآفاق، وعرف الناس والأديان والمذاهب والثقافات.

وكلُّ هذا من أسباب تنوُّع الخطاب الديني في الجملة، وإن كان الأصل المتَّفَق عليه: أن يستمدَّ الجميع من محكمات القرآن، وصحيح السنة، وما اتفق عليه سلف الأمة، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة.

والمنهج الأمثل: أن يجمع خطابنا الدعوى الإسلامي: بين روحانية المتصوف، وتمسك الأثري، وعقلانية المتكلم، وعلمية الفقيه. يأخذ من كلّ صنف خير ما عنده، ويمزج بينها في تناسق وانسجام.

القرآن نفسه دليل تغير الخطاب:

وأقوى دليل على تغير الخطاب بتغير ملابساته وموجباته: هو القرآن ذاته، فقد رأينا خطاب القرآن المكي - أي قبل الهجرة إلى المدينة - غير خطاب القرآن المدني، وهو أمر معروف مقرر لدى دارسي القرآن، ويلحظه كلُّ من يقرأ القرآن، ويعرف السور المكية فيه من السور المدنية. فموضوعات القرآن المدني تختلف عن موضوعات القرآن المكي في الجملة، وأسلوب القرآن المدني يختلف عن أسلوب القرآن المكي في الجملة.



موضوعات القرآن المكي تدور - أساسًا - حول ترسيخ العقيدة من التوحيد بأقسامه المختلفة، وإثبات النبوة، والجزاء في الآخرة، والإيمان بالغيب، والدعوة إلى العمل الصالح، ومكارم الأخلاق، وما يؤيد ذلك من قصص الرسل والمؤمنين، والرد على المخالفين.

وموضوعات القرآن المدني تدور حول إقامة المجتمع المؤمن، والتشريع له. ولذا لم ينزل في مكة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فكل ما يحتاج إليه المجتمع من عبادات ومعاملات وتشريعات وعقوبات، تجده في السور المدنية.

وأسلوب القرآن المكي غير أسلوب القرآن المدني في الجملة أيضًا، فالأسلوب المكي تغلب عليه الشدة والحرارة، والنبوة السريعة، وتكرار بعض اللوازم، كما في سورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة الرحمن، وسورة المرسلات. يخاطب القلوب، ويثير المشاعر، ويجابه المكابر، ويفحم المعارض.

وهذا بخلاف الأسلوب المدني، فإنه أسلوب تعليمي تشريعي هادئ النفس، هادئ النبوة، يخاطب العقول أولاً، وإن لم يخل من مخاطبة القلوب، لأن موضوعه التشريع والتعليم.

وسرُّ تغير الخطاب هنا وهناك: أن سور القرآن مكية ومدنية تراعي المخاطب، وتكلمه بما يناسبه: القرآن المكي يخاطب - أولاً - المشركين المناوئين لعقيدة التوحيد، والجاحدين لنبوة محمد، والمتطاولين عليه، ولذا ساد الخطاب لغة الشدة والسخونة. وأما القرآن المدني فهو يخاطب الجماعة المؤمنة الجديدة، التي يكلفها بالأوامر والنواهي، والتوجيهات والتشريعات، ولذا ساد الخطاب لغة الهدوء والتعليم.

ومن قرأ سورة مدنية كسورة البقرة، وسورة مكية كسورة الشعراء، يتبين له الفرق في الخطاب واضحاً بين السورتين، في المضمون وفي الأسلوب.

مشروعية تجديد الدين:

ومن الأدلة على شرعية تطوير الخطاب أو تحسينه أو تغييره إلى ما هو أمثل وأليق وأبلغ: الحديث النبوي الذي رواه أبو داود والحاكم والبيهقي، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها دينها»^(١).

وقد سمعتُ بعض الدعاة الكبار في عصرنا، يرفض هذا الحديث، بدعوى أن الدين ثابت، ولا يتجدد. وما معنى تجديد الدين؟ هل نصدر طبعة جديدة للقرآن الكريم مزيدة ومنقحة؟ إن القرآن لا يقبل الزيادة ولا النقص، ولا التغيير والتبديل، فلا معنى إذن للتجديد.

ورأيي: أن ردّ الحديث الذي صحّحه عدد من الأئمة المختصين بمثل هذا المنطق: لا يجوز. فهذه طريقه المنحرفين من أهل البدع والضلالات الدينية والفكرية. فهم يفسّرون النصّ تفسيراً خاطئاً، ويعطونه مضموناً لا يستقيم مع منطق العقل أو منطق الدين، ليتاح لهم أن يحكموا ببطلانه وبرده.

ولكن المنهج المستقيم: أن نثبت النصّ الصحيح، ونفسّره تفسيراً مقبولاً، في ضوء القواعد المقررة، والمسلمات الدينية والعلمية.

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (١٨٤٥)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي. عن أبي هريرة.

ولهذا نقول هنا: إن هذا الحديث ثابت حيث أثبتته أهل العلم، وهو بهذا يعطينا مبدأ مهمًا، وهو: شرعية التجديد للدين. ولكن ما معنى التجديد المطلوب؟

ونبادر فنقول: إن التجديد لا يمسُّ «الثوابت» التي لا تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان والإنسان: من العقائد والعبادات وأصول الفضائل والردائل، والأحكام القطعية في ثبوتها ودلالاتها، فهذه هي التي تجسّد وحدة الأمة الفكرية والشعورية والسلوكية، وتحفظها من أن تذوب وتفتك.

لا يمسُّ التجديد هذه الثوابت، إلا من جهة أسلوب عرضها وتعليمها للناس، فهذا هو الذي يدخله التجديد والتطوير.

أما غير الثوابت، فهي التي يدخلها الاجتهاد والتجديد - ومعظم أحكام الشريعة من هذا النوع - وهي معترك لأفهام أهل العلم الأصلاء، ففيها مجال للاجتهاد الجزئي، والاجتهاد الكلي، والاجتهاد المقيد، والاجتهاد المطلق، الاجتهاد الانتقائي، والاجتهاد الإنشائي.

جمهرة الأحكام في تراثنا الفقهي مختلف فيها بين المدارس والمذاهب، نتيجة لاعتبارات شتى عند كلِّ فقيه. وفي هذا متسع للمجتهد المعاصر: أن ينتقي منها ويتخير ما هو أهدى سبيلا، وأرجح دليلاً، وأوفق بتحقيق مقاصد الشرع، ومصالح الناس في هذا العصر. وهذا ما نسمّيه «الاجتهاد الانتقائي».

وهناك اجتهاد إنشائي إبداعي، في المسائل الجديدة التي لم يتطرَّق إليها الفقهاء السابقون، لأنها لم تكن في زمنهم، ولم تخطر ببالهم، فعلى فقهاء عصرنا أن يجتهدوا لبيان حكم الشرع في هذه القضايا، كما اجتهد

الأئمة السابقون لبيان الحكم في قضايا زمنهم، مثل كثير من القضايا الاقتصادية والطبية والعلمية والسياسية. وسيجدون في سعة الشريعة وخصوبة فقهها: حلاً لكلّ مشكل، ودواء لكلّ داء.

ترشيد الصحوة:

لقد أصدرتُ جملة كتب ورسائل^(١) في ترشيد الصحوة، وتسديد مسيرتها، ومضمونها: ترشيد الخطاب الديني نفسه، وآخرها: كتاب جدّ مهم في نظري، سمّيته «الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد»، رجوت به أن تنتقل الصحوة من طور إلى طور، أعني من طور «المراهقة» بما يمثله من أحلام وخيالات وتمرّد وعاطفية، إلى طور «الرشد» بما يمثله من وعي وهدوء وعقلانية ونضج، ويتمثّل في التزام «الخطوط العشرة لترشيد الصحوة»، والانتقال بها إلى المرحلة المنشودة.

هذه الخطوط العشرة التي تنتقل بها الصحوة:

١ - من الشكل والمظهر، إلى الحقيقة والجوهر.

٢ - من الكلام والجدل، إلى العطاء والعمل.

٣ - من العاطفية والغوغائية، إلى العقلانية والعلمية.

٤ - من الفروع والذبول، إلى الرؤوس والأصول.

٥ - من التعسير والتنفير، إلى التيسير والتبشير.

(١) منها: الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، والصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، والصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفوق المذموم، وأين الخل، وأولويات الحركة الإسلامية، وفقه الأولويات، وغيرها. كما صدرت اثنتا عشرة رسالة في سلسلة رسائل ترشيد الصحوة.



- ٦ - من الجمود والتقليد، إلى الاجتهاد والتجديد.
- ٧ - من التعصب والانغلاق، إلى التسامح والانطلاق.
- ٨ - من الغلو والانحلال، إلى الوسطية والاعتدال.
- ٩ - من العنف والنقمة، إلى الرفق والرحمة.
- ١٠ - من الاختلاف والتشاحن، إلى الائتلاف والتضامن.

وقد تحدّثت في فصول الكتاب المذكور عن كل نقطة من هذه النقاط، أو كل خط من هذه الخطوط: بما يشرحه ويلقي الضوء عليه، ويؤصّله تأصيلًا شرعيًا موثقًا بأدلّته من الكتاب والسنة، وذلك حتى تتّضح المفاهيم، وتقوم الحجّة، ولا تلبس الحقائق بالأباطيل، وحتى يتعلّم الجاهل، ويقتنع المتردّد، وينهزم المكابر، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة.

وكم أود أن تنتقل هذه النقاط أو الخطوط العشرة إلى خطابنا الديني المعاصر، وخصوصا في هذا الزمن الذي يُتّهم فيه الإسلام والمسلمون بالعنف والإرهاب والغلو والتعصّب والانغلاق على الذات، ورفض الآخر، إلى آخر ما يقال.

ولا يمكننا أن نتجاهل دعاوى عدونا أو اتهاماته لنا، لأنّ صوته عالٍ، شئنا أم أبينا، وأبواقه تملأ أركان الدنيا الأربعة، ولذا كان لا بد لنا من أن ندافع عن أنفسنا، ونقول كلمتنا، ونبلّغ رسالتنا.

وأرى من المهم للدعاة في عصرنا: أن يقرؤوا كتابي هذا عن الصحوة، فهو متّمم لكتابنا هذا، أو قل: كتابنا هذا متّمم له، ولا

يستغني أحدهما عن الآخر. وقد كان يمكن أن أسمّيه: «الخطاب الإسلامي من المراهقة إلى الرشد» لولا أنني شغلت بترشيد الصحوة منذ عدة عقود، فأثرت العنوان الذي ظهر به. والمقصود واضح على كلِّ حال.

* * *



منهج الخطاب الديني كما رسمه القرآن

رسم القرآن منهج الخطاب الديني أو الدعوة الدينية في آية كريمة من سورة المكية، حين قال: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهذه الآية خطاب للنبي ﷺ، ولكلِّ مَنْ يَتَأْتِي خطابه من الأمة من بعده. إذ الدعوة إلى الله، أو إلى سبيل الله ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل أمته أيضا مطالبة بأن تقوم بدعوته معه وبعده. وفي هذا يقول القرآن أيضا في مخاطبة الرسول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فكلُّ مَنْ اتبع محمدا ﷺ، ورضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا: هو داع إلى الله، وداع على بصيرة، بنص القرآن: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. وبهذا كانت الأمة مبعوثة إلى الأمم بما بعث به نبيها، فهي تحمل رسالته، وتحتضن دعوته، كما قال ﷺ للأمة: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»^(١).

(١) رواه البخاري الوضوء (٢٢٠)، عن أبي هريرة.

وقال الصحابي ربعي بن عامر رضي الله عنه، لرستم قائد جيوش الفرس: إن الله ابتعثنا، لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(١).

من هنا نرى أن آية سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ترسم معالم المنهج المنشود للدعوة أو الخطاب الديني السليم.

معالم المنهج المطلوب للدعوة للخطاب الديني:

وضع القرآن الكريم لمنهج الدعوة إلى الله وإلى سبيله، وسائل تعين الداعية المسلم على أداء مهمته، وتبليغ رسالته. وقد أوجزها القرآن - بإعجازه البياني - في كلمات معدودة:

١ - الدعوة واجب كل مسلم:

وأول هذه المعالم: العلم بأن هذه الدعوة فرض على كل مسلم. وهو مقتضى الأمر من الله بالدعوة، فكل مسلم مأمور بالدعوة إلى دينه بصورة ما، وبطريقة ما، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

كل ما في الأمر: أن صورة الدعوة تختلف من شخص إلى آخر، حسب الاستطاعة والإمكان.

فهناك من يدعو إلى الله بتأليف كتاب أو كتب.

وهناك من يدعو إلى الله بإلقاء محاضرة في جامعة أو في مركز ثقافي.

(١) انظر: تاريخ الطبري (٥٢٠/٣)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

وهناك مَنْ يدعو إلى الله بإلقاء خطبة جمعة في مسجد أو إلقاء درس ديني فيه.

وهناك مَنْ يدعو بالكلمة الطيبة، والصحبة الجميلة، والأسوة الحسنة. وهناك مَنْ يدعو بالإِنفاق على الدعاة، أو على نشر إنتاجهم، أو على تأسيس مركز للدعوة، على نحو ما قال ﷺ: «مَنْ جَهِزَ غَازِيَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا»^(١)، ونحن نقيس عليه فنقول: مَنْ جَهِزَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ دَعَا.

٢ - دعوة ربانية إلى منهج الله

وثاني هذه المعالم: أن يوقن الداعية: أنه يدعو إلى سبيل الله، أي طريق الله، أي منهج الله الذي رسمه لهداية الناس، حتى يحسنوا العبادة لله وحده، ويحسنوا التعامل بعضهم مع بعض، وبذلك يسعدون في الدنيا، ويفوزون بحسن المثوبة في الآخرة.

إن الداعية المسلم هنا لا يدعو الناس إلى نفسه، أو إلى قومه، بل يدعوهم إلى ربّه وحده: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩]. إنه لا يدعو إلى نظام بشري، ولا إلى فلسفة أرضية، ولا إلى قانون وضعي، وضع بأمر إمبراطور أو ملك أو رئيس أو أمير، بل يدعو إلى تحرير البشر من العبودية للبشر، فلم يعد - في نظر الإسلام - بشر يملك أن يشرع لبشر تشريعاً مطلقاً دائماً، يحلّ له ما يشاء، ويحرّم عليه ما يشاء، كما حدث عند أهل الكتاب في فترة من فترات التاريخ، وهو ما أنكره القرآن بشدة حين قال: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٢٨٤٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٩٥)، عن زيد بن خالد.

دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا
وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣١﴾.

آن للبشر أن يتحرروا من عبودية بعضهم لبعض، وربوبية بعضهم
لبعض، وأن يكونوا جميعا عبادا لله وحده، الذي خلقهم وسخر لهم ما في
السموات وما في الأرض جميعا منه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

ولهذا كانت رسائل محمد ﷺ، إلى ملوك أهل الكتاب مختومة بهذه
الآية: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٣ - دعوة الناس بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة:

وثالث المعالم لهذا المنهج: أنه يقوم على دعوة الناس عامة والمسلمين
إلى منهج الله بأسلوبين: أولهما: الحكمة. وثانيهما: الموعظة الحسنة.

أسلوب الحكمة:

والحكمة يراد بها: مخاطبة العقول بالأدلة العلمية المقنعة،
وبالبراهين العقلية الساطعة، التي تردُّ على الشبهات بالحجج والبيانات،
وتردُّ المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والجزئيات
إلى الكليات، والفروع إلى الأصول.

كما أن من الحكمة: مخاطبة الناس بما يفهمون، وما تسيغه عقولهم،
لا بما يعجزون عن فهمه، وقد قال علي رضي الله عنه: حدّثوا الناس بما يعرفون،
ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله^(١)؟

(١) رواه البخاري في العلم (١٢٧).

تكليم الناس بلسانهم:

ومن الحكمة: أن تكلم الناس بلسانهم، ليفهموا عنك، ويتجاوبوا معك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. وليس معنى الآية مجرد أن يكلم الصينيين باللغة الصينية، والروس باللغة الروسية فقط، بل وإن معناها الأعمق: أن يكلم الخواص بلسان الخواص، والعوام بلسان العوام، ويكلم الناس في الشرق بلسان أهل الشرق، وفي الغرب بلسان أهل الغرب، ويكلم الناس في القرن الحادي والعشرين بلسانهم لا بلسان قرون مضت.

أخذ الناس بالرفق:

ومن الحكمة: أن نأخذ الناس بالرفق فيما نأمرهم به وما ننهاهم عنه، وأن نهى أنفسهم لتلقي الأمر والنهي قبل توجيهه إليهم، وأن نأخذ بالمنهج النبوي الذي أمر به الأمة في الدعوة والتعليم، حين قال: «يسرّوا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا»^(١).

ولا تكلف الناس ما لا يطيقون، حتى لا يردّوا أمرك، ويقولوا: سمعنا وعصينا. وقد قال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٢).

المحافظة على مراتب الأعمال ونسبها الشرعية:

ومن دلائل الحكمة التي ينبغي أن يحرص عليها الخطاب الديني الإسلامي المعاصر: المحافظة على مراتب الأعمال وقيمها ونسبها الشرعية، وقد ناقشت هذه القضية من قديم في كتابي «الصحوة بين

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد (١٧٣٤)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

البحود والتطرف»، فقد رأيتُ من الخلل الواقع في فهم كثير من فصائل الصحوة الإسلامية، والجماعات الدينية، وكثير من الدعاة والوعاظ والخطباء الدينيين: أنهم أخلُّوا بالنَّسب الشرعية بين الأعمال بعضها وبعض، فكَبَّروا الأمور الصغيرة، وصَغَّروا الأمور الكبيرة، وعظَّموا الأمر الهين، وهَوَّنوا الأمر الخطير، وقَدَّموا ما حقه التأخير، وأَخَّرُوا ما حقه التقديم.

فمن المعلوم أن الشرع الإسلامي قد أعطى لكل عمل من الأعمال «تسعيرة» تحدد قيمته بالمعيار الشرعي، فالمأمورات منها: أركان وغير أركان، وغير الأركان منها واجبات ومنها سنن، والمنهيات منها: ما هو من الكبائر وما هو من الصغائر، والصغائر منها ما هو محرم بيقين، ومنها ما اختلف فيه، وبقي في مرتبة الشبهات، ومنها: المكروه تحريمًا، والمكروه تنزيهاً.

فلا يجوز أن نذيب الحواجز بين هذه الأمور، وننظر إلى السنة نظرنا إلى الفرض، أو ننظر إلى الصغيرة نظرنا إلى الكبيرة، أو ننظر إلى المختلف فيه نظرنا إلى المتفق عليه. فمن الخلل الخطير: أن نجعل بعض الأمور الأساسية هامشية، والهامشية أساسية.

أجل، لا يجوز أن نضخم بعض الأشياء ونعطيها أكبر من حجمها، ولا يجوز أن نبالغ في تقديم بعض الأشياء أو إعطائها أوسع من مساحتها، فهذا سيكون قطعاً على حساب غيرها، فمن الحكم المأثورة والتي ثبت صدقها: ما رأيتُ إسرافاً إلا بجانبه حقٌ مضيع.

لقد رأيت بعض الدعاة والخطباء الدينيين يسرفون في بعض الأمور وعرضها على الجمهور، وليس لها في المصادر الإسلامية هذا الحجم،

فبعضهم: ألقى أكثر من عشر خطب في «الجن» وعلاقته بالإنسان، ومس الجن، وركوب الجن الإنسان. إلى آخر ما هو معروف في هذا الجانب. وبعضهم ألقى «تسع محاضرات» في تحريم حلق اللحية، كأنها من فرائض الدين، أو أركان الإسلام.

وبعضهم ألقى مجموعة خطب في فرضية «لبس النقاب»، وتحريم كشف الوجه، واعتبار الوجه عورة، وحشد من الأقوال والنصوص ما يؤيد وجهة نظره، مغفلاً رأي الجمهور الذي يرى أن الوجه والكفين ليسا بعورة.

وبعض الوعاظ ألقى أكثر من خطبة في «عذاب القبر» وذكر من الأحاديث الواهية والموضوعة ما يدخل الرعب في القلوب، من حيّات كالأفيال، وعقارب كالبغال.

والعجيب: أن هذه الخطب تحول إلى أشرطة «كاسيت» تُسجّل وتُذاع وتُباع للعامة، الذين تستهويهم المبالغات والتهاويل.

وقد حكى لي أحد الآباء: أن ابنته صغيرة السن تستيقظ من الليل، وهي تصرخ مرعوبة. فلما سألتها: هل هناك حادث وقع لها، أو شيء ما أدى إلى ذلك؟ قال: إن هذا أصبح يصيبها ويتكرّر عليها، بعد أن سمعت شريطاً في عذاب القبر لأحد الوعاظ، يتضمن تهويلات تزرع الخوف المَرَضِي في النفوس.

ولقد ذكرتُ في كتابي «كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟» معياراً لمدى الاهتمام بالأشياء والأفكار والأعمال، وهو: أن نهتمّ بالأشياء على قدر اهتمام القرآن بها، فما أولاه القرآن عناية، وفسح له المجال

في سورة وآياته، وكثره، وأكّده بصورة وأخرى، فهذا دليل على أهميته وضرورته في الدين، ويجب إعطاؤه من المساحة والعناية ما يليق به.

وما أولاه القرآن عناية أقل - كأن لم يذكره إلا مرة أو مرتين - فيجب أن يُعطى من الاهتمام مثل ذلك. وما أهمله القرآن تمامًا، ولم يكن له ذكر، فينبغي ألا نعيّره اهتمامًا، ما لم توجد عوامل أخرى تقتضي التنويه به، لسبب أو آخر، فتقدر بقدرها.

هذا وقد أصدرت كتابًا مستقلًا، يعالج هذه القضية من جذورها، ويؤصلها تأصيلًا شرعيًا موثقًا بالأدلة من نصوص الشرع ومقاصده، سمّيته «فقه الأولويات». وينبغي على الدعاة والمتقدمين للخطاب الديني أن يقرؤوه ويتدارسوه.

من الحكمة إذن: أن نحسن ترتيب ما نأمر به، وما ننهى عنه، بحيث يأتي كل شيء في موضعه، وفي أوانه، وفي مرتبته.

ليس من الحكمة: أن نكلّم الناس في إحدى الفرعيات، وهم يخالفون في إثبات الأصول نفسها، كأن تدعوهم إلى صدقة التطوع، وقد منعوا ركن الزكاة، أو إلى صلاة الضحى، وقد ضيّعوا صلاة الفريضة. أو تكلّمهم في الأوامر والنواهي قبل أن تثبت العقيدة أولاً. روى البخاري وغيره، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: إنك تقدم على قوم أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله - وفي رواية: شهادة أن لا إله إلا الله فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلهم، فإذا فعلوا الصلاة، فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم تؤخذ من

أغنيائهم وتردُّ على فقرائهم - الحديث^(١). فلم يعرض عليهم فرض الصلاة إلا بعد أن يعرفوا الله.

وهذا من الحكمة: أن نثبت الأصول، ثم ندعو إلى الفروع.

وقديمًا قال أسلافنا: ما حرّما الوصول إلا بتضييعنا الأصول.

ومن مجانبة الحكمة: التشديد في النوافل، وقد أهمل الناس الفرائض. ومن قواعدنا العلمية الموروثة: إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة^(٢). ومن حكم السلف: مَنْ شغله الفرض عن النفل فهو معذور، وَمَنْ شغله النفل عن الفرض فهو مغرور^(٣).

ومن ذلك: الاشتغال بالمختلف فيه، وقد ضيع الناس المتفق عليه.

مثل: الانشغال بتغطية وجه المرأة بالنقاب، وعدم الاكتفاء بالخمير - المعبر عنه في عصرنا بـ «الحجاب» - وتأثير المسلمة المختمة، في حين أن المعركة الآن لن لم تعد معركة كشف الوجوه، بل كشف الرؤوس والنحور والصدور والذراعين والساقين، وما هو أكثر من ذلك. وشاع لبس ما يسمى «المني جب» و«الميكرو جب» ونحوهما. ورأينا الكاسيات العاريات المميلات المائلات.

وأذكر أنني تكلمت في هذه القضية مع علامة الجزيرة الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ، فوافقني على الاكتفاء من المسلمة في عصرنا بالخمير، على أن تترك البلاد التي التزمت بالنقاب على التزامها.

(١) سبق تخريجه ص ٢١.

(٢) رواه الربيعي في وصايا العلماء عند حضور الموت ص ٣٣ من وصية أبي بكر لعمر، تحقيق صلاح محمد الخيمي والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٤٣/١١).

ولقد أنكر بعض الدعاة على شيخنا الغزالي رَحِمَهُ اللهُ : تقسيمه تعاليم الدين إلى قشور ولباب وقال: هل في دين الله قشور؟

وقلت لهؤلاء: هل ترون أن تعاليم الدين في مرتبة واحدة؟ إن هذا ينافي محكمات القرآن والسنة، ففي القرآن يقول تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]. وفي السنة نجد الحديث الصحيح: «الإيمان بضغّ وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله. وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق»^(١). فهناك أعلى وأدنى. والقائل: هل في دين الله قشور؟ يُرد عليه، بأن عالم الخلق فيه قشور، وكذلك عالم الأمر فيه قشور، والقشور لها فائدتها وحكمتها في العالمين. وقد ذم الله تعالى اليهود بأنهم تمسكوا بالقشور وتركوا اللباب، كما في آية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

رعاية سنة التدرج:

ومن الحكمة المطلوبة: أن نأخذ الناس بالتدرج، فالتدرج سنة كونية، كما أنه سنة شرعية. أما أنه سنة كونية، فهذا ما نراه في خلق الإنسان، حيث بدأ نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظاماً مكسوة لحماً، ثم ينشئه الله خلقاً آخر. ثم يخرج إلى الدنيا وليداً، فرضيعاً، ففطيماً، فصبياً، فيافعاً، فشاباً، فكهلاً، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

وهكذا نرى خلق النبات، حيث يبدأ النبات بذرة، فينتقل من طور إلى طور حتى يصبح شجرة مثمرة.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٥)، عن أبي هريرة.

وهو سنة شرعية، فإن الله تبارك وتعالى أمر رسوله محمداً ﷺ، أن يرسى العقائد وأصول الأخلاق أولاً، كما نرى ذلك واضحاً في القرآن المكي، ثم بدأ بأخذه بالجانب العملي، متدرجاً بهم شيئاً فشيئاً، بادئاً بإقامة الصلوات، التي فرضت قبل الهجرة، ثم بإيتاء الزكاة وصوم رمضان في السنة الثانية من الهجرة، ثم بعد ذلك فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً.

وكذلك بدأ بتحريم بعض المحرمات التي تُعدُّ من الرذائل الإنسانية المتفق عليها، وأنها من أسباب الفساد والاضطراب في الحياة الإنسانية، مثل: قتل النفس، وفاحشة الزنى، وقتل الأولاد من إملاق واقع أو خشية إملاق متوقع، وأكل مال اليتيم، ونقض العهد، والمشي في الأرض مرحاً. ونحو ذلك مما هو أقرب إلى الجانب الأخلاقي منه إلى الجانب التشريعي.

ولكنني أرى بعض الإخوة الدعاة لا يراعون التدرج قط فيمن يدعونهم، فبعد أن سقطت الشيوعية، في عدد من الأقطار الإسلامية، مثل البوسنة والهرسك وكوسوفا، وقد ظلت هذه البلاد - وأهلها مسلمون - نحو خمسين سنة، معزولين عن الإسلام علماً وثقافة وسلوكاً، فهم يجهلون «ألف باء» الإسلام. فكانوا في حاجة إلى أن نأخذهم بالمنهج التدرجي الحكيم. فنبداً بما اتفق عليه المسلمون لا بما اختلفوا فيه، من العقائد والأحكام.

ولكن بعض الإخوة - أصلحهم الله - لم يراعوا ذلك، فبدؤوا بشن حملة على عقائد الأشاعرة والماتريدية، الذين يدين بمذهبهم جمهور المسلمين في المشارق والمغارب، وتقوم المدارس والجامعات الدينية في أنحاء العالم الإسلامي على تدريسه.

هذا مع أن معركتنا اليوم ليست مع مَنْ يؤمن بالله وبلقائه وحسابه، ولكنه يؤول «يد الله» بأنها القدرة، أو يؤول «وسع كرسیه السماوات والأرض» بأنه كناية عن سعة ملكه، وعظمة سلطانه. إن معركتنا الحقيقية هي مع الملاحدة الذين يجحدون وجود الله بالكلية، ويقولون: لا إله، والحياة مادة.

ثم بدأ هؤلاء الإخوة الدعاة الطيبون يطالبون الرجال بإطلاق اللحي، وتقصير الثياب، والنساء بلبس النقاب، بل بعضهم حمل معه عدة آلاف من «الثُّقُب» ليلبسها النساء، اللائي بينهن وبين الخمار مراحل ومراحل.

ثم إذا كنا في قلب ديار الإسلام والعرب، مبتلين بحليقي اللحي، فهل نبدأ بدعوة هؤلاء المسلمين الأوروبيين الذين عاشوا نصف قرن تحت وطأة الشيوعية بما عجزنا عن تحقيقه في قلب بلادنا العربية والإسلامية؟ وهل إطلاق اللحية من أركان الإسلام، أو من فرائضه حتى نبدأ بها، ونعطيها هذه الأهمية في الدين؟

كما نرى هؤلاء الدعاة الطيبين يبدؤون بحملة على التصوف كله، واتهامه بأنه دخيل على الإسلام، لا يفرّقون بين سني ومبتدع، بين مستقيم ومنحرف.

هذا مع أن الأمة عامة، وهذه الشعوب خاصة: في حاجة إلى تربية ربانية تخرجها من جحيم المادية المعاصرة، التي شغلت الناس بالدنيا عن الآخرة، وبالخلق عن الخالق، وبالمادة عن الروح. تربية إيمانية أخلاقية هي جوهر التصوف الصحيح الذي عبر عنه بعضهم بكلمة موجزة بأنه: الصدق مع الحق، والخلق مع الخلق^(١). وبعبارة أخرى:

(١) نسبه ابن السبكي إلى أبيه في طبقات الشافعية الكبرى (٢٩٥/١٠)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، نشر دار هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٣هـ...



التقوى مع الله، والإحسان مع الناس. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

ومن الحكمة التي يجب أن يتحلَّى بها الدعاة في دعوتهم: الرفق بالمدعوين والتلطُّف والرحمة بهم، والإشفاق عليهم. كما وصف الله ورسوله بقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. هذا وهو رسول الله المؤيَّد بوحيه، ولكن البشر لا يطيقون الفظَّ الغليظ ولو كان هو الرسول الأمين.

أسلوب الموعظة الحسنة:

وإذا كانت الدعوة بالحكمة تخاطب العقول فتقنعها، فإن الدعوة بالموعظة الحسنة تخاطب القلوب والعواطف فتثيرها وتحركها. والإنسان ليس عقلاً مجرداً، إنه عقلٌ وقلبٌ معاً، إنه عقل يدرك ويفكر، وقلب يحس ويشعر، وعلينا أن نخاطب الجانبين فيه معاً: الجانب الذي يعي ويدرك ويحصل المعرفة، والجانب الذي ينفعل ويريد، ويحب ويكره، ويرغب ويرهب.

وكلُّ الناس يحتاجون إلى أن يخاطبوا بالحكمة حيناً، وبالموعظة حيناً، وإن كان الخواص أكثر حاجة إلى الحكمة التي تخاطب عقولهم، وتحاكمهم إلى مسلّماتهم العقلية والعلمية. أما العوام فهم أشدُّ حاجة إلى الموعظة الحسنة التي تخاطب عواطفهم، وتستثير دوافعهم إلى الخير.

ولم يصف القرآن الحكمة بشيء؛ لأن من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ

أَلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿[البقرة: ٢٦٩]، ولكنه وصف الموعظة المطلوبة بالحسن، ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾. فليس المطلوب أي موعظة ولكن الموعظة الحسنة الجميلة الجيدة.

قد يكون حسنها في اختيار موضوعها المناسب للمخاطب، وقد يكون حسنها في اختيار أسلوبها المؤثر فيه، وقد يكون حسنها أنها جاءت في أوانها، وفي مكانها، وقد يكون حسنها: أنها لمست وترًا حساسًا من المخاطبين، فأثرت فيهم، وقد يكون حسنها: أنها قدّرت ضعف الإنسان، فلم تؤنّبهِ حين يسقط، ولم تجرّحه حين يعثر ويخطئ، فكل بني آدم خطاء، والإنسان قد خلق من طين، والطين لا يخلو من الكدر. وقد قال ﷺ لَمَنْ لَعَنَ الصَّحَابِي الَّذِي أَدْمَنَ الشُّكْرَ، وَأَتَى بِهِ مَرَاتٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ شَارِبًا لِلْخَمْرِ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: لَعَنَهُ اللَّهُ! مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ لَهُ: «لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكَ»^(١)، وفي رواية: «لَا تَلْعَنَهُ فَإِنَّهُ يَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٢)!

وقد يكون حسنها: أنها اتخذت المنهج الوسط في الترغيب والترهيب، أو الترجية والتخويف، فلم تخوّف الناس حتى يئسوا من روح الله، فإنه ﴿لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولم تبالغ في الرجاء، حتى يأمن الناس من مكر الله، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

(١) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨١)، عن أبي هريرة. بلفظ: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيك».

(٢) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر بن الخطاب. بلفظ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله».

وخير الأساليب في ذلك: أسلوب القرآن، الذي يسوق الأنفس حيناً بسوط الخوف من الله، ويقودها حيناً بزمام الرجاء في رحمة الله، ليبقى المرء دائماً ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

الأسلوب القرآني يجمع بين الأمرين بتوازن وتناسق بديع: ﴿أَعْلَمُوا أَنكُمُ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

ليس من الموعظة الحسنة: استخدام الترهيب الدائم لتخويف العوام، من أهوال الموت، ومن عذاب القبر، ومن عذاب النار، والمبالغة في ذلك، بإيراد الأحاديث الواهية أو الموضوعية، والقصص المخترعة، والإسرائيليات المكذوبة، والمنامات المزورة، فإن هذا قد يؤثر في نفوس بعض العوام، ولكن محصلته النهائية تنفير المثقفين والمستنيرين من الدين.

وليس من الموعظة الحسنة: المبالغة في أسلوب الترغيب والترجية في رحمة الله وعفوه، حتى يأمن الناس من مكر الله، ويجترئوا على معاصي الله.

وليس من الموعظة الحسنة: تهيج العامة وإثارة مشاعرهم، وإلهاب عواطفهم في قضايا جزئية، قد يستفيد منها بعض الناس، ولكنها تضر الأمة في مجموعها ضرراً بالغاً. فإن بعض الشباب الغض - نتيجة هذا التهيج وخصوصاً إذا استمر - ينطلق كالصاروخ، ليفرغ ما امتلأ به قلبه من شحنة عارمة، فيقتل أو يدمر، لا يبالي بما يقع منه أو يقع عليه.

مخالفة كثير من الخطاب الديني للمنهج القرآني:

هذا المنهج القرآني الذي شرحناه: ليس واضحا تمام الوضوح لدى كثير من دعاة الخطاب الديني في عصرنا، الذين اضطربت في أذهانهم المفاهيم، والتبست الحقائق بالأباطيل، وشوش معارفهم مقولات تلقوها من مصادر غير موثقة. لم تمحض ولم تناقش من أهل العلم والتحقيق، الذين يجمعون بين صحيح المنقول وصريح المعقول، ويوازن بين تراث السلف وثقافة العصر، ويوفّقون بين ظواهر النصوص ومقاصدها، ويعرفون كيف يستلهمون الماضي، ويعايشون الحاضر، ويستشرفون المستقبل.

ونتيجة للقصور الملحوظ في ثقافة الدعاة والخطباء، التي تحدّثنا عنها في كتابنا «ثقافة الداعية» الذي طالبنا فيه الداعية المسلم: أن يتسلّح بأنواع ستة من الثقافات: الدينية، والأدبية، والتاريخية، والإنسانية، والعلمية، والواقعية. نتيجة لهذا القصور الذي يصل أحيانا إلى درجة خطيرة: نجد خطابنا الديني يقع في أخطاء وتجاوزات كثيرة، يلاحظها الشخص العادي، ناهيك بالمتقف المستنير.

من يعيشون في غير عصرهم:

منها: أن بعضهم يخاطب الأحياء بلسان الأموات، فهو لا يعيش في عصره بالمرّة، ولا يحس بما تمرور به الدنيا من حوله. ثقافته كلها قديمة، وعالمه كله قديم، والمشكلات التي يتحدّث عنها مشكلات أزمنة مضت، والمفردات التي يتحدّث بها قد هجرت، فهو محسوب على القرن الخامس عشر الهجري، أو القرن الحادي والعشرين الميلادي، وهو ليس من أهله.

كما رأينا بعضهم يتحدث في إحدى خطب الجمعة عن مشكلة «خلق القرآن»، ويصب جام غضبه على المعتزلة الذين أثاروا هذه الفتنة، وامتحنوا فيها أئمة المسلمين، مثل الإمام أحمد بن حنبل، وساموهم سوء العذاب، إلخ. وهذه فتنة انتهت منذ قرون بدوافعها وملابساتها الدينية والفكرية والسياسية، ولم تعد مما يهمننا ويشغلنا في حاضرنا. وليست مشكلتنا اليوم مع مَنْ يقول بـ «خلق القرآن». بل مع من ينكر «إلهية» القرآن، وربانية مصدره، أو مع من يؤمن بذلك، ولكنه لا يرضى به «مرجعية معصومة» لشرائعه وقوانينه وأنظمتهم ومفاهيمهم وتقاليده.

٤ - حوار المخالفين بالتي هي أحسن:

ومن معالم المنهج الذي رسمه القرآن للدعوة إلى الله: الجدل بالتي هي أحسن. والأصل في الجدل أن يكون مع المخالفين.

ومن الملاحظ على التعبير القرآني المعجز في الآية: أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون «حسنة»، ولكنه لم يكتفِ في الجدل إلا أن يكون بالتي هي «أحسن». لأن الموعظة - غالبًا - تكون مع الموافقين، أما الجدل فيكون - عادة - مع المخالفين، لهذا وجب أن يكون بالتي هي أحسن. على معنى أنه لو كانت هناك للجدل والحوار طريقتان: طريقة حسنة وجيدة، وطريقة أحسن منها وأجود، كان المسلم الداعية مأمورًا أن يحاور مخالفه بالطريقة التي هي أحسن وأجود.

ومن ذلك: أن يختار أرقَّ العبارات، وألطف الأساليب في جداله مع المخالفين، حتى يؤنس، ويقرّبه منه، ولا يوغر صدره، أو يثير عصبته. وقد ضرب لنا القرآن أمثلة رائعة وبارزة في هذا المجال في حسن مجادلة المخالفين.

ومن ذلك قوله تعالى في جدال المشركين: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. ففي هذا الأسلوب الرقيق من إرخاء العنان، وتسكين الخصم، وإرضاء غروره: ما يهيئ نفسه للاقتناع أو الاقتراب منه إلى حد كبير. فهو يقول: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. يعني أن أحد الفريقين منا على ضلال: نحن أو أنتم. ولم يقل لهم: أنتم في ضلال مبين. ثم قال: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]. وكان مقتضى المقابلة أن يقول: «ولا نسأل عما تجرمون». ولكن لم يشأ أن يجابهم بنسبة الإجماع إليهم إيناسًا، وتقريبًا لهم، وتأليفًا لقلوبهم.

ومن الجدال بالتي هي أحسن: التركيز على الجوامع المشتركة بين المتحاورين، لا على نقاط الاختلاف والتمايز بينهما، فإن وجود أرض مشتركة بين الطرفين يساعد على جدية الحوار وجدواه، وإمكان الانتفاع به فيما هو متفق عليه بين الأطراف المتجادلة.

وهذا ما يشير إليه القرآن في الجدال مع أهل الكتاب، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فهو هنا يركز على العقائد التي تقرب المسلمين منهم؛ وهي: أن المسلمين يؤمنون بكل ما أنزل الله من كتاب، كما يؤمنون بكل من بعث الله من رسول، وكذلك يؤمن الجميع بإله واحد. ومن هذه النقطة ينطلق اللقاء لمواجهة الملاحدة والجاحدين الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها، ولا يعتقدون أن للكون إلهًا، ولا أن في الإنسان روحًا، ولا أن وراء الدنيا آخره.

ومن الجدل بالتي هي أحسن ما ذكره صاحب «الظلال» رَحِمَهُ اللهُ ، وهو أن يكون حوارًا رقيقًا رقيقًا: «بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح. حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. وسرعان ما تخلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فترى التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطمئن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر!

ولكي يطمئن الداعية من حماسته واندفاعاته، يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للجاجة في الجدل، إنما هو البيان، والأمر بعد ذلك لله»^(١).

الأدعية الاستفزازية:

ليس من الحكمة ولا من الموعظة الحسنة ولا من الجدل بالتي هي أحسن: اتخاذ الأدعية الاستفزازية في صلوات الجُمع وفي قنوت النوازل وغيرها.

فبعض الوعاظ والخطباء يدعون الله تعالى: أن يهلك اليهود والنصارى جميعا، وأن ييتم أطفالهم، ويرمّل نساءهم، ويجعلهم وأموالهم وأولادهم غنيمة للمسلمين!

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٢٢٠٢/٤)، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ.

ومن المعلوم: أن في كثير من بلاد المسلمين توجد أقليات من النصارى - وربما من اليهود - وهم مواطنون يشاركون المسلمين في المواطنة، وليس من اللائق أن ندعو بدعوة تشمل هؤلاء بالهلاك والدمار. إنما اللائق والمناسب: أن ندعو على اليهود الغاصبين المعتدين، وأن ندعو على الصليبيين الحاقدين الظالمين. لا على كل اليهود والنصارى.

على أنني لم أجد في أدعية القرآن، ولا في أدعية الرسول، ولا في أدعية الصحابة: مثل هذه الدعوات المثيرة: تقيم أطفالهم، وترميل نسائهم، وأمثالها. بل أدعية القرآن مثل: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٥: ٨٦]. ومن أدعية الرسول: «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب: اهزمهم وانصرنا عليهم»^(١)، «اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»^(٢).

وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، أي لا يحب الذين يعتدون ويتجاوزون في دعائهم.

وبعض الخطباء يدعون الله تعالى بإبادة الكفار جميعا، ولا يبقى منهم باقية، قائلين: «اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبق منهم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٣٣) ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن الله بن أبي أوفى.

(٢) رواه أحمد (١٩٧٢٠)، وقال مخرجه: حديث حسن. وأبو داود في الصلاة (١٥٣٧)، والنسائي في الكبرى في السير (٨٥٧٧)، والحاكم في الفياء (١٤٢/٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه. ووافقه الذهبي، عن أبي موسى الأشعري.

أحدا»^(١). وهذا دعاء دعا به أحد الصحابة على من عذَّبوه وإخوانه وعرضهم للقتل والصلب، فهو دعاء خاص، فجاء هؤلاء الخطباء، وجعلوه عامًا، واستخدام الخاص في موضع العام من أسباب الزيغ وانحراف التفكير.

ولا خلاف في أن الدعاء بإهلاك الكفار جميعًا: أن يقتلهم بددًا، ولا يبقى منهم أحدًا. ينافي ما أخبر به القرآن أن كفر الكافرين واقع بمشيئة الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، فمن ذا الذي يعارض مشيئة رب العالمين؟

«غير المسلمين» بدل «الكفار»:

ومن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن الجدل بالتي هي أحسن، المطالب به المسلمون، وخصوصا في عصر العولمة: ألا نخاطب المخالفين لنا باسم الكفار، وإن كنا نعتقد كفرهم. ولا سيما مخالفينا من أهل الكتاب.

وذلك لأمرين:

أولهما: أن كلمة «كفار» لها عدّة معانٍ، بعضها غير مراد لنا يقينًا. من هذه المعاني: الجحود بالله تعالى وبرسوله وبالدار الآخرة. كما هو شأن الماديين الذين لا يؤمنون بأي شيء وراء الحس، فلا يؤمنون بإله، ولا بنبوة، ولا بآخرة. ونحن إذا تحدثنا عن أهل الكتاب لا نريد وصفهم بالكفر بهذا المعنى، إنما نقصد أنهم كفار برسالة محمد وبدينه. وهذا حق، كما أنهم يعتقدون أننا كفار بدينهم الذي هم عليه الآن، وهذا حق أيضًا.

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٨٩)، عن أبي هريرة.

والثاني: أن القرآن علمنا ألا نخاطب الناس - وإن كانوا كفارا - باسم الكفر، فخطاب الناس - غير المؤمنين - في القرآن، إما أن يكون بهذا النداء: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾، أو: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ﴾، أو: ﴿يَعْبَادِي﴾، أو: ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ﴾.

ولم يجرى في القرآن خطاب بعنوان الكفر إلا في آيتين: إحداهما خطاب لهم يوم القيامة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَعْزِدُكُمُ الْيَوْمَ إِنَّمَا نُجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧].

والأخرى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]. فكان هذا خطاباً للمشركين الوثنيين الذين كانوا يساومون الرسول الكريم على أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأرادت السورة قطع هذه المحاولات بأسلوب صارم، وبخطاب حاسم، لا يبقی مجالاً لهذه المماحكات، فأمر الرسول أن يخاطبهم بهذه الصورة القوية، بما فيها من تكرار وتوكيد، ومع هذا ختمت السورة بهذه الآية التي تفتح باباً للسماحة مع الآخر، حين قالت: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

ولهذا أثرت من قديم أن أعبر عن مخالفينا من أهل الأديان الأخرى بعبارة «غير المسلمين». وأصدرت من زمن طويل كتابي «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي». وقد طبع مرات ومرات، وترجم إلى عدة لغات.

وقد قلت ذلك في برنامجي الأسبوعي في قناة الجزيرة، «الشرعة والحياة». فاتصل أحد الإخوة، وقال: إن التعبير عن الكفار بـ «غير

المسلمين» يُعَدُّ تنازلاً منا لحساب أهل الكفر، وهو من دلائل هزيمتنا النفسية أمام مخالفيها.

ولا أدري لماذا يُعَدُّ الخطاب الرفيق، والكلام الرقيق: تنازلاً منا؟ وعن أي شيء تنازلنا؟ إننا لم نتنازل عن الاعتقاد بأن ديننا هو الحق، وأن كل مَنْ لم يؤمن برسالة محمد فهو كافر. وهذا شأن كل ذي دين: أن يعتقد أن دينه هو الحق، وأن غيره على الباطل، ولا يتم إيمان ديني إلا بهذا.

ولكن هذا شيء، ومخاطبة المخالفين بما يؤذيهم أو يجرح مشاعرهم، أو ينفرهم: شيء آخر. وما طلب الله ذلك منا. بل أمرنا بعكس ذلك تماماً، فقال تعالى لرسوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

فنحن - المسلمون - مأمورون من ربنا: أن نقول الكلمة التي هي أحسن لِمَنْ نخاطبه أو ندعوه أو نحاوره. وليس من التي هي أحسن أن نجابهه فنقول له: أيها الكافر. بل ينبغي أن نخاطب فيه إنسانيته وفطرته، ولا نتبع نزغات الشيطان - عدو بني الإنسان المبين - الذي يريد أن ينزع بينهم، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء.

قال بعض المفسرين: «المعنى، وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد: أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وقال الحسن: المعنى: هو أن يقول للكافر إذا تشطط - تجاوز وغلا -: هداك الله، يرحمك الله»^(١)!

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٧٧/١٠)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م..

وفي أهل الكتاب خاصة جاء نصٌ يحدّد جدالهم، ويحصّره بالتّي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فلم يكتفِ هنا بأن يقول: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. بل كانت الصيغة: ولا تجادلوهم ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. فأى صيغة أخرى - ولو كانت حسنة - فهي منهي عنها بحكم هذه الآية.

«مواطنون» بدل «أهل الذمة»:

وهناك كلمات لم تعد مقبولة لدى إخواننا من الأقليات غير المسلمة، مثل الأقباط في مصر وأمثالهم في البلاد العربية والإسلامية الأخرى، وهي مصطلح «أهل الذمة» مع أن مدلول هذا المصطلح مدلول إيجابي، لأنه يعني: أن لهم ذمة الله ورسوله وجماعة المسلمين. وهذا مدلول له وقعه وتأثيره في نفس المسلم، فإنه لا يقبل أن تخفر ذمة الله ورسوله بحال، ومن فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

ولكن إذا كان مواطنونا من غير المسلمين يتأذّون من هذا الاصطلاح، فلا أجد مانعاً من استخدام كلمة «المواطنة» و«المواطن» فإن الفقهاء متفقون على أن أهل الذمة من «أهل دار الإسلام»، فهم من أهل الدار وإن لم يكونوا من أهل الملة. و«أهل الدار» تعني بالتعبير العصري: مواطنين.

وحذف هذه الكلمة لا يتعارض مع شيء من أحكام شريعتنا، أو مقررات ديننا. ولنا أسوة في ذلك من عمل الخلفاء الراشدين الذين أمرنا أن نستنّ بسنّهم، وأن نعص عليها بالنواجذ، ولا سيما سنة الشيخين أبي بكر وعمر.

أسوتنا ما صنعه الفاروق عمر - ووافقه الصحابة رضي الله عنهم - مع عرب بني تغلب، وكانوا نصارى منذ عهد الجاهلية. وقد طلبوا إلى عمر أن يأخذ ما يأخذه منهم من التزامات مالية، باسم الزكاة أو الصدقة، ولو كان مضاعفاً، ولا يأخذه باسم الجزية، وقالوا: إنا قوم عرب، ونأنف من كلمة جزية.

تردّد عمر في أول الأمر أن يجيئهم إلى طلبهم، ثم نصحه بعض مشيريه أن يستجيب لهم، قائلاً: إنهم قوم لهم بأس وقوة، ونخشى أن يلحقوا بالروم. ففكر عمر في الأمر، ورأى أن ينفذ لهم ما أرادوا، وقال: سمّوها ما شئتم. وقال لمن حوله: هؤلاء القوم حمقى، رضوا المعنى وأبوا الاسم^(١)! وكان هذا من الفاروق تقريراً لقاعدة مهمة: أن العبرة ليست للأسماء والعناوين، ولكن العبرة للمسمّيات والمضامين.

هذا مع أن كلمة «جزية» ذكرت في القرآن، ولكن المقصود هو معناها لا لفظها. ومعناها: أن يدفعوا ضريبة يعلنون بها إذعانهم لسلطان الدولة المسلمة، وقبولهم جريان أحكام الإسلام - غير الدينية - عليهم.

التعبير بالأخوة عن العلاقات الإنسانية:

ومن التعبيرات المطلوبة في عصر العولمة: التعبير بالأخوة عن العلاقة بين البشر كافة، والمراد بها «الأخوة الإنسانية» العامة، بحُساب أن البشرية كلّها أسرة واحدة، تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما قرّره حديث نبويّ شريف، خاطب به رسول الإسلام الجموع الحاشدة في حجة الوداع، فكان مما قاله في هذا المقام: «أيها الناس، إن ربكم

(١) الحاوي للماوردي (٣٤٦/١٤)، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»^(١).

وهذا الحديث أو الخطاب - وإن كان المخاطبون به في الأصل هم المسلمين - يتضمن مفهوما عاما، يصلح لخطاب الناس جميعا، فإن ربَّ الجميع واحد، وأباهم واحد، ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى. وهو مستمد من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما أن هذا الحديث يؤكِّد قول الله تعالى في مطلع سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وما أجدر كلمة «الأرحام» في هذه الآية: أن تشمل - فيما تشمل - الأرحام الإنسانية التي تربط الناس بعضهم ببعض. وفي ذلك يقول شاعر مسلم: إذا كان أصلي من تراب فكلُّها بلادي، وكلُّ العالمين أقاربي^(٢)!

وأولى من ذلك عن التعبير عن العلاقة بين المسلمين ومواطنيهم من غير المسلمين بـ «الأخوة». والمراد بها: الأخوة الوطنية أو القومية. فليست «الأخوة الدينية» هي الأخوة الوحيدة التي تصل بين البشر. إنها لا شك أعمق ألوان الأخوة وأوثقها رباطا. ولكن لا نزاع في أن هناك أنواعا أخرى من الأخوة، مثل الأخوة بين أبناء القبيلة الواحدة وإن

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد

(٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح. عمن سمع خطبة النبي ﷺ.

(٢) هو أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات، كما في خريدة القصر وجريدة العصر

للعقاد الكاتب ص ٢١٩، نشر الدار التونسية للنشر، ١٩٧١م.

اتسعت، أو أبناء الشعب الواحد وإن تكاثر وانتشر، وبين أبناء الجنس الواحد أو القوم الواحد.

ودليلنا على ذلك: ما جاء في القرآن الكريم من حديث القرآن عن الأنبياء وصلتهم بأقوامهم المكذّبين لهم، واعتبار القرآن كل نبي من هؤلاء «أخًا» لقومه، وإن عصوه وكذبوه وكفروا برسالته.

اقرأ معي قول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوْنَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ...﴾ [١٠٥ - ١٠٧]. فانظر كيف أثبت أخوة نوح لهم، مع أنهم كذبوه، لأنهم قومه، وهو منهم، فهي أخوة قومية لا شك فيها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [الشعراء: ١٢٣، ١٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [الشعراء: ١٤١، ١٤٢]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [الشعراء: ١٦٠، ١٦١].

لم تخالف سورة الشعراء هذا التعبير إلا في الحديث عن شعيب، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]. فلماذا غاير القرآن الأسلوب هنا، وقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوْنَ﴾ ولم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب؟

السُرُّ في ذلك: أن شعيبًا لم يكن من أصحاب الأيكة، بل كان غريبًا عنهم، وإنما كان من مدين، ولهذا قال في سورة الأعراف وهود والعنكبوت: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥، وهود: ٨٤، والعنكبوت: ٣٦]، فدلّتنا هذه الآيات بوضوح على أن من الأخوة ما يبنى على غير الدين، وإنما يبنى على اعتبارات أخرى، ومنها: الاعتبار القومي أو الوطني.

ومثل هذه التعبيرات تقرب الآخرين منا، وتزيل الفجوة بيننا وبينهم، وهذا ما يبطل كيد الأعداء المتربّصين بنا، والذين يريدون أن يشعلوا فتيل الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، ليصطادوا في الماء العكر، ويتخذوا من ذلك ذريعة للتدخل في شؤوننا، والتسلط علينا، والتحكّم في رقابنا، وأولى بنا أن نرد كيدهم في نحورهم بمثل هذه المواقف التي تجعل قوى الأمة كلها جبهة متراصة في مواجهة مكرهم وعدوانهم.

أحفاد القردة والخنازير:

ومن الخطاب الذي لا يليق بالداعية المسلم: أن يصف اليهود بأنهم «أحفاد القردة والخنازير». بناء على أن القرآن قد ذكر أن الله تعالى مسح طائفة منهم اعتدوا في السبت، واستخفوا بحرمة، واحتالوا على ما حرم الله فيه، فقال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]. وهم الذين ذكر الله قصّتهم مفصّلة في سورة الأعراف^(١)، وأشار إليها في سورة المائدة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وهذا الأسلوب في الخطاب غير لائق ولا جائز، لعدة أسباب:

أولها: أن هذا القول غير صحيح، فالذين مسخوا قردة وخنازير، لم يكن لهم أولاد ولا أحفاد ولا نسل، بنصّ حديث رسولنا محمد ﷺ، الذي رواه مسلم في «صحيحه» عن ابن مسعود: «إن الله تعالى لم يجعل لمسح نسل، ولا عقبا. وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك»^(٢). يشير

(١) في قوله تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ...﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦].

(٢) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٣)، وأحمد (٣٧٠٠).

الحديث الشريف إلى أن القردة والخنازير حيوانات كانت موجودة من قديم قبل حادث المسخ في بني إسرائيل.

ثانيها: أن هذا أسلوب استفزازي، والمسلم لا يستفز الناس ولا ينفرهم بخطابه، بل هو مأمور أن يتألف الناس، ويحبب الله ودينه ورسوله إليهم، ويبشّرهم ولا ينفرهم، كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن أنس: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»^(١). ولم يستثن اليهود من هذا التوجيه النبوي العام.

ثالثها: أن هذا سبّ مكشوف، والمسلم - ناهيك بالداعية - ليس سبّابا ولا لعانا، وقد نهينا عن سبّ الإنسان والحيوان والطيور والحشرات والظواهر الطبيعية وغيرها، كما ورد في عدة أحاديث. حتى إن القرآن نهانا عن أن نسبّ الأصنام، حتى لا يغضب لها عبّادها، فيسبّوا ربنا وعجل انتقاما لها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

رابعها: أن اليهود - أو بني إسرائيل - كما جاء فيهم مسخ طائفة منهم قردة، جاءت آيات كثيرة تشني عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ * وَءَايَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٢، ٣٣]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]. فلماذا لا نذكر إلا الجانب السيئ فيهم؟

خامسها: أن الإنسان لا يؤخذ - في الإسلام - بذنب آبائه وأجداده، فكم من أب كافر، وابنه مؤمن، كإبراهيم عليه السلام، والصحابة بعضهم من أبناء

(١) سبق تخريجه ص ٣٥.

مشركي الجاهلية، ولا يتحمّل جيل وزر جيل أو أجيال سابقة، شردت عن الحقّ، وضلّت السبيل، إلا إذا رضي عملهم، وتبنّاه ودافع عنهم، فيوء بإثمهم. ومن هنا لا تؤاخذ اليهود بذنب أجدادهم، لأن الله تعالى: يقول: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُ وَزُرْ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

تعريف الإسلام مرفوض:

هذا هو الخطاب الديني الذي كنا ندعو إليه بالأمس. بل تبيننا الدعوة إليه منذ عشرات السنين، وهو الذي ندعو إليه اليوم المسلمين، وغير المسلمين، وهو الذي سندعو إليه غدا وبعد غد، لأنه الخطاب الذي تعلمناه من الإسلام نفسه، من هُدى الله في كتابه، ومن هُدى رسوله في سنته.

هو الخطاب الذي دعونا إليه قبل عصر العولمة، وسندعو إليه بعد عصر العولمة.

أما إذا كان عصر العولمة يريد منا خطاباً دينياً جديداً، نحرف فيه الإسلام عن حقيقته، أو نحرف الكلم عن مواضعه، بحيث نقدّم لهم إسلاماً على هواهم: إسلاماً «مستأنساً»، إسلاماً كسير الجناح، منزوع السلاح، لا حول له ولا قوة، يؤمر فيطيع، ويقاد فينقاد، ويطلب من العلماء والدعاة والكتّاب أن يقدّموه: عقيدة بلا شريعة، وعبادة بلا معاملة، وسلاماً بلا جهاد، وزواجاً بلا طلاق، وحقاً بلا قوة، ومصحفاً بلا سيف، ودعوة بلا دولة، واقتصاداً بلا أخلاق، وسياسة بلا دين. فهذا إسلام لا نعرفه ولا يعرفنا.

وليس هو إسلام السنة والقرآن، ولا إسلام رسول الله والصحابة ومن تبعهم بإحسان من خير القرون.

إن كان المراد بتغيير الخطاب الديني: تقديم الإسلام على أنه مجرد علاقة بين العبد وربّه، وليس منهج حياة للفرد والأسرة والمجتمع والدولة، وأن يتبنى شعار: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. فهذا إسلام مزيف على المسلمين، ليس إسلام محمد ﷺ، ولا إسلام القرآن، ولا إسلام المسلمين، الذي يرفض تقسيم الحياة والإنسان بين الله وقيصر، ويقول: قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢: ١٦٣].

إن كان المراد بتغيير الخطاب الديني: حذف الآيات التي تتحدث عن اليهود، وغدراتهم بالنبي محمد ﷺ وأصحابه، وانضمامهم إلى الوثنيين في حربته، أو - على الأقل - غض الطرف عنها، وتجميدها، فلا تُتلى في إذاعة ولا تلفاز، ولا يتحدث عنها المتحدثون في خطب ولا دروس ولا محاضرات، فهذا مرفوض من أمة الإسلام. فكتاب ربهم يجب أن يظل متلوًا مذكورًا، معلّمًا موجّهًا، فهو النور المبين، والصراط المستقيم، مَنْ علم علمه سبق، وَمَنْ قال به صدق، وَمَنْ حكم به عدل، وَمَنْ عمل به أُجر، وَمَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

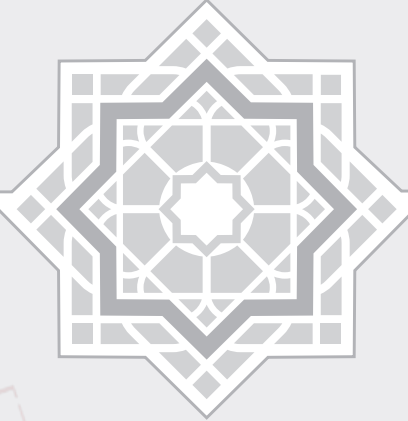
إن كان المراد من تغيير الخطاب الديني لدى المسلمين: حذف ركنية الزكاة من العبادات، وحذف تحريم الربا من المعاملات، وحذف الحدود من التشريع الجنائي، وحذف الجهاد من فقه العلاقات الدولية، وحذف الغزوات من السيرة النبوية، وحذف خالد بن الوليد، وطارق بن زياد، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، وعمر المختار، وعز الدين القسام من تاريخ الإسلام، فلا ثم لا.

إن كان المراد بتغيير الخطاب الديني: إهالة التراب على شعر أبي تمام في فتح عمورية، أو شعر أبي الطيب في انتصارات سيف الدولة على الروم، فلا ثم لا.

إن كان المراد بتغيير الخطاب الديني: تمويت الصحوة الإسلامية، وواد الدعوة الإسلامية، وإسكات الصوت الإسلامي أو إخراسه، وإعلاء الصوت العلماني الدخيل على الأمة، الغريب عن عقائدها وقيمها ومفاهيمها وحياتها، فهذا ما لا يقبله مسلم آمن بقول ربّه سبحانه: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إن كان المراد بتغيير الخطاب الديني: أن تنسلخ الأمة من جلدها، وأن تبرأ من حضارتها وتاريخها، وأن تتنكر لعقيدها وشريعتها، ولقرآنها وسنتها، وأن تعيش في الحياة ذنباً، وقد جعلها الله رأساً، وأن تحيا تبعاً لغيرها، تتبع سننه شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، لا يكتفي بأن يرسم لها سياستها، بل يخطط ليضع لها مناهج تفكيرها وثقافتها، ومناهج تعليمها وتربيتها. حتى مناهج التعليم الديني نفسه، يرسمه لها، أو يأمرها أن ترسمه وفق رغباته ومصالحه، لتمسي في ظل هذه الفلسفة، أمة لا هوية لها، ولا رسالة تتميز بها، ولا تاريخ تعز به، ولا أهداف كبرى تسعى إلى تحقيقها، ولا مقلب لها ولا ناب تدافع عن نفسها، إن كان هذا هو الخطاب الديني المنشود، فلا أهلاً به ولا سهلاً، ولا مرحباً بخطاب يجعل الأمة مسخاً مشوّهاً، فتخسر دينها ودنياها، وتفقد ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وتستوجب سخط الله، واحتقار الناس، وخسران النفس، ألا ذلك هو الخسران المبين.

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



خصائص الخطاب الإسلامي
في عصر العولمة



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ





خصائص خطابنا الإسلامي في عصر العولمة

إذا كان خطابنا الإسلامي ينبغي أن يراعى مكان المخاطبين أو المدعوين، وزمانهم وظروفهم، ويخاطب كل قوم بلسانهم ليبين لهم، ويجتهد في إفهامهم، حتى يكون بلاغه لهم «بلاغاً مبيناً»، كما هو شأن بلاغ الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. فمن المهم أن يلاحظ هذا الخطاب في عصر العولمة: طبيعة التقارب الذي جعل العالم كله قرية واحدة، وأصبح من خصائص هذا العصر سرعة انتقال الخطاب إلى القارات في سرعة البرق، وأصبحت تتكلم من بلد صغير مثل قطر، فيسمعك العالم ويراك، كأنه يجلس إليك، وينصت بين يديك. ولعلك لو كنت تتحدث قديماً في جامع من الجوامع، ربما لم يرك بعض المصلين، وربما لم يصل صوتك إلى بعضهم.

ويلزم أهل الخطاب الإسلامي، أو الدعوة الإسلامية: أن يتحرروا في خطابهم، ويتأنوا في دعوتهم، ولا يلقوا الكلام على عواهنه، فقد غدا العالم كله يسمعهم، ويحلل أحاديثهم.

ينبغي أن يجمع هذا الخطاب الإسلامي المعاصر: عدة خصائص أساسية، تجعله قادراً على الوصول إلى الناس، بحيث يقنع عقولهم

بالحجة، ويستميل قلوبهم بالموعظة، ولا يحيد عن الحكمة، ولا عن الحوار بالتي هي أحسن.

من خصائص هذا الخطاب أنه:

- ١ - يؤمن بالله ولا يكفر بالإنسان.
- ٢ - يؤمن بالوحي ولا يغيب العقل.
- ٣ - يدعو إلى الروحانية ولا يهمل المادية.
- ٤ - يعنى بالعبادات الشعائرية ولا يغفل القيم الأخلاقية.
- ٥ - يدعو إلى الاعتزاز بالعقيدة وإلى إشاعة التسامح والحب.
- ٦ - يغري بالمثال ولا يتجاهل الواقع.
- ٧ - يدعو إلى الجد والاستقامة ولا ينسى اللهو والترويح.
- ٨ - يتبنى العالمية ولا يغفل المحلية.
- ٩ - يحرص على المعاصرة ويتمسك بالأصالة.
- ١٠ - يستشرف المستقبل، ولا يتنكر للماضي.
- ١١ - يتبنى التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة.
- ١٢ - يدعو إلى الاجتهاد ولا يتعدى الثوابت.
- ١٣ - ينكر الإرهاب الممنوع ويؤيد الجهاد المشروع.
- ١٤ - ينصف المرأة ولا يجور على الرجل.
- ١٥ - يصون حقوق الأقلية ولا يحيف على الأكثرية.



يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا يَكْفُرُ بِالْإِنْسَانِ

من خصائص الخطاب الإسلامي: أنه يدعو إلى الإيمان بالله تعالى، ولكنه لا يكفر بالإنسان، ولا يزدري الإنسان، ولا يغفل شأن الإنسان.

إنه يدعو إلى الإيمان بالله الخالق المدبر لهذا الكون، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء صنعه، كما قال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣]، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. الله الواحد الأحد، الذي لا شريك له، ولا ند له، ولا ضد له، ولا مثل له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلَهِةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أَتَيْنَا بِآيَةٍ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣].

الله الذي دل كل ما في هذا الكون على وجوده وقدرته، وعلى إبداعه وحكمته، فكل شيء في هذا الكون بمقدار، وكل شيء بميزان وحسبان، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

لم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يفعل شيئاً اعتباطاً، وإنما خلق ما خلق، وقدّر ما قدّر لحكمة بالغة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، ولم تخف على أولى الألباب من عباده الذين أحسنوا قراءة آياته في الكون، حين تفكّروا في خلق السماوات والأرض، وقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الله العليم الخبير، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسع علمه كل شيء: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

كما وسعت رحمته كل شيء، فهو الرحمن الرحيم، الذي سبقت رحمته غضبه، وسبق فضله عدله، وسبق حلمه عقوبته، يثيب على الحسنة بعشر أمثالها أو يزيد، ويعاقب على السيئة بمثلها أو يعفو، من أقبل عليه تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب، يغفر الذنوب ولا يبالى، ويحبّ التوايين، ويحبّ المتطهرين، يقول سبحانه في جواب موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وتقول ملائكته الذين يحملون عرشه ويسبّحون بحمده: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

هذا الخالق المدبّر العظيم، الذي يحيي ويميت، الذي خلق فسوى، والذي قدّر فهدى، هو الذي يستحقّ - وحده - أن يُعبد وحده لا شريك له، ومعنى «يُعبد» أي يُخصّ بغاية التعظيم، وغاية الحب، فهذه هي حقيقة العبادة، ولهذا علمنا الله أن نتّجه إليه في صلاتنا قائلين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فلا يجوز أن تطأطأ الظهور إلا له راحة، ولا تتعفّر الجباه إلا له ساجدة، ولا أن تخشع القلوب إلا له راجية خائفة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

هذا الإله العظيم يجب أن ندين له وحده بالتوحيد، وأن نتحرّر من العبادة لغيره: من عبادة الأشياء في الأرض أو في السماء، ومن عبادة الأشخاص، ولو كانوا جنّا أو ملائكة أو أولياء أو أنبياء، ومن عبادة الذات أو عبادة الهوى، وإخلاص العبادة لله وحده: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * [الزمر: ١١، ١٢]، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

بعث النبي ﷺ إلى قيصر وغيره من ملوك أهل الكتاب وأمرائهم، يدعوهم إلى الإيمان به وبدينه الجديد، الذي جاء يحرّر الإنسان من العبودية لكل ما سوى الله: عبودية الإنسان للإنسان، وعبودية الإنسان للأشياء. ويختم رسائله إليهم بهذه الآية من سورة آل عمران: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

هذه الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتقواه: تثمر دعوة تكملها، وهي: الإيمان بالإنسان، الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وكرّمه أعظم تكريم: جعله في الأرض خليفة، وسخر له ما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، وعلمه البيان، وهداه السبيل، وعلمه ما لم يعلم، وخلق أبا هذا النوع

- وهو آدم - بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له وملائكته، وفضله بالعلم عليهم، وطرده إبليس من بينهم حين تمرّد على السجود له.

نقرأ ذلك في القرآن بوضوح: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿الْمُتَرَوِّا أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَعَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

إن الإسلام رفع الإنسان مكاناً عليّاً، حين كلّفه القيام بخلافة الله في الأرض، واستعمره فيها، وحمله أمانة عُرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وهي أمانة المسؤولية وحمل التكليف.

لا ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مجرد «حيوان تطوّر» من مراحل دنيا حتى انتهى إلى هذه المرحلة. بل هو مخلوق خلقاً مستقلاً، ليقوم برسالته في الأرض، ليعمرها، ويؤدّي حقّ الله فيها، ويقوم بوظيفة الخلافة لله. وقد هيّأه الله تعالى بتكوينه المزدوج: الطيني والروحي ليقوم بهذا الدور، الذي لا يقدر عليه الملائكة. وسرّ ذلك يكمن في هذه «النفخة من روح الله» التي أودعها الله فيه، بجوار قبضة التراب أو الطين الذي تكوّن منها جسده الذي يمثل الغلاف الظاهري للإنسان.

ليس الإنسان «حيواناً»، بل سخر الله له الحيوانات، وكل الكائنات الحية على الأرض، في اليابسة أو في الماء. كما أنه ليس «إلهاً»، كبعض الفلاسفة الغربية التي «تؤله» الإنسان، وترفعه فوق قدره، وتتجاوز به حدّه.

وما أنجزه الإنسان على الأرض من علم وتكنولوجيا، وثورات غيرت وجه البسيطة، ومنحت الإنسان من القدرات والإمكانات ما لم يكن يحلم به، هذا كله من فضل الله عليه، وبره به، كما قال تعالى في أول وحيه إلى محمد: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ - ٥].

إن الإسلام - بتشريعاته القانونية ووصاياه الأخلاقية - يرفع فطرة الإنسان، وكرامة الإنسان، وحرمة الإنسان، وحرية الإنسان، وحقوق الإنسان^(١).

إنه يرفع فطرة الإنسان فلا يصادرها، ولا يصادمها، ولا يعلن الحرب على دوافعها الطبيعية.

فلا يصادر مثلاً غريزة الإنسان الجنسية، ولا يراها رجساً من عمل الشيطان بل يعترف بها، ويدعو إلى التسامح بها، والعمل على تصريفها والاستمتاع بها في الحلال، ولا يرضى بكبتها ومصادرتها بصفة مطلقة. لهذا شرع الزواج، وقال: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»^(٢).

(١) راجع كتابنا: الخصائص العامة في الإسلام، ص ٥٧ - ١٠٣، خصيصة: الإنسانية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٧، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(٢) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، وأحمد (٦٥٦٧)، عن عبد الله بن عمرو.

ويتحدث عن الجانب الجنسي في العلاقة الزوجية ضمن أحكام الصيام فيقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ويعرض لطريقة المباشرة الجنسية فيقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْمٌ وَقَدْ مَوَّأَ لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ويشرع الاستمتاع بالزينة والطيبات في غير إسراف ولا اعتداء: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

وكما يرفع الإسلام فطرة الإنسان: يرفع كرامة الإنسان، فلا يسمح بإهانة الإنسان لا حيًا ولا ميتًا. لا يجوز الإسلام إذلال الإنسان لأخيه الإنسان، فالناس كلهم مخلوقون لله، ولا يجوز أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابا من دون الله.

والإسلام كذلك يرفع حرمة الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماله. فحياة الإنسان مقدسة، ولها حرمة عظيمة عند الله، لا يجوز قتلها بغير الحق، حتى إن القرآن ليقرر مع كتب السماء: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. والرسول ﷺ يقول: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»^(١)، ويقول: «من قتل معاهدًا - أي غير مسلم - لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»^(٢).

(١) رواه الترمذي في الديات (١٣٩٥)، مرفوعا وموقوفا ورجح الموقوف، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٨٧)، وصحح الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه البخاري في الجزية (٣١٦٦)، عن عبد الله بن عمرو.

بل الإسلام يحترم حياة الحيوان، فلا يجوز قتله بغير حق، كما في الحديث: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(١).

وكما لا يجوز الاعتداء على حياة الإنسان، لا يجوز الاعتداء على جسمه أو عضو منه بالضرب والأذى.

وكما لا يجوز الاعتداء على الدم: لا يجوز الاعتداء على العرض. ويقصد بـ «العرض» ما نقصده بكلمة «الكرامة والسُّمعة». فلا يجوز لإنسان أن يشوه سُمعة إنسان، فلا يجوز سبه، ولا شتمه، ولا نداؤه بلقب لا يحبه، ولا السخرية منه والاستهزاء به، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

وكذلك حرم الإسلام «الغيبة» وهو: أن تذكر الإنسان في غيبته بما يكره، ولو كان ذلك فيه بالفعل. كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وحتى بعد موت الإنسان لا ينبغي أن يذكر إلا بخير، كما في الحديث: «لا تذكروا هلكاكم إلا بخير»^(٢)، وفي حديث آخر: «لا تسبوا الموتى فإنهم أفضوا إلى ما قدموا»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٢٤٢)، عن ابن عمر.

(٢) رواه النسائي في الجنائز (١٩٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٧١)، عن عائشة.

(٣) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٣)، عن عائشة.

وكذلك حرم الإسلام الاعتداء على المال، فلا يحل له أخذ مال امرئ إلا بطيب نفس منه، ويحرم عليه أن يأخذه بطريق الغصب العلني، أو السرقة الخفية، أو الغش في بيع أو شراء، أو إجارة، أو ترويج ما لا يحل ترويجه، أو أخذ رشوة سافرة أو مقنعة، أو أكل مال الغير بأي طريقة من طرق الباطل كالقمار، وأخذ أجره على عمل محرم وغير ذلك. أشد ما يحرمه الإسلام: ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وقسوة الإنسان على أخيه، والظلم والقسوة لا يجيزهما الإسلام لمسلم ولا لغير مسلم، لا في سلم ولا في حرب.

والإسلام يكرم الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن لون بشرته، أو العرق الذي ينتمي إليه، أو اللغة التي يتكلمها، أو الإقليم الذي يسكن فيه، أو الطبقة التي ينتمي إليها. بحسبه أنه إنسان.

روى البخاري في «صحيحه»، عن قيس بن سعد، وسهل بن حنيف، أن النبي ﷺ مروا عليه بجنزة ميت، فقام لها واقفاً، (احتراماً وتكريماً) فقالوا: يا رسول الله؛ إنها جنازة يهودي! فقال: «أليست نفساً؟»^(١). فما أروع الموقف، وما أروع التفسير له!

الإسلام ينظر إلى الجنس البشري كله بوصفه أسرة واحدة، تنتمي إلى الله تعالى بالعبودية، وإلى آدم بالبنيوة، فربها واحد، وأبوها واحد. وهذا ما أعلنه نبي الإسلام على الجموع الحاشدة في حجة الوداع معلماً وموجّهاً، فقال: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لآدم، وآدم من تراب...»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١)، كلاهما في الجنائز.

(٢) سبق تخريجه ص ٥٦.

وهو ما قرّره القرآن في نصّ صريح حين قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ومعنى ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، أي ليعرف بعضكم بعضا، ويتفاهم بعضكم مع بعض، وهذا أساس التعاون بين الجميع، فإن أكثر ما يضرّ بالعلاقات الإنسانية: أن يجهل بعضهم بعضا، ويتعدّ بعضهم عن بعض، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. وما أجدر كلمة: ﴿الْأَرْحَامَ﴾، في هذه الآية أن تشمل - فيما تشمل - الأرحام الإنسانية العامة، بين البشر بعضهم بعض. كما يوحي به السياق: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾.

ولقد ظهر الإسلام، والفوارق بين الناس قائمة على قدم وساق: الفوارق اللونية: أبيض وأسود. والفوارق العرقية: عربي وعجمي. والفوارق النسبية: شريف وضيع. والفوارق الاقتصادية: غني وفقير. والفوارق اللغوية والإقليمية والطبقية وغيرها. فأسقط الإسلام هذه الفوارق كلها: نظريا حين أعلن المساواة بين الناس جميعا، وأنهم كأسنان المشط، لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربي على عجمي، ولا عكس ذلك، إلا بالتقوى. وعملياً: حين فرض فرائض على الناس جميعا، لا يعفى أحد منها لنسبه أو مركزه، وهم في أداء هذه الفرائض متساوون، ففي فريضة كالصلاة يقف الجميع وراء الإمام خاشعين لله، من سبق إلى مكان في الصف الأول فهو أحق به، ومن تأخر جلس حيث ينتهي به المجلس، وقد نجد الوزير بجوار الناطور (الحارس)، وأستاذ الجامعة بجوار الخادم.

وأكثر من ذلك في ساحة الحج، حيث ترى الأمير والمأمور، والكبير والصغير، وصاحب القناطير المقنطرة ومن لا يملك شيئاً: يقفون جميعاً في هيئة واحدة، قد لبسوا ثياباً بيضاء متواضعة، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، منادين بنداء واحد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

لقد أنصف الإسلام المستضعفين في الأرض، ورفع من قدرهم، وهياً لهم الفرص، ليأخذوا حقوقهم بجهودهم، ويحتلوا مكانتهم بعلمهم وعملهم.

حتى رأينا رجلاً حبشياً أسود اللون مثل بلال بن رباح، يعتنق الإسلام مبكراً، فيعذب من أجله، فيشتريه سيدنا أبو بكر، فيعتقه. فيصبح بعد ذلك سيّداً في المسلمين، حتى إن عمر بن الخطاب ليقول مثنياً على أبي بكر: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا. يعني: بلالاً رضي الله عنه^(١). والمسلمون في أنحاء الأرض، وعلى مدار التاريخ يقولون: سيدنا بلال رضي الله عنه.

صنع الإسلام ذلك منذ ظهوره، في حين كانت جاهليات العالم كله، تقسم الناس طبقات متفاوتة المراتب بعضها فوق بعض، في بلاد فارس، وبلاد الروم، وبلاد الهند، وفي بلاد العرب نفسها. فجاء الإسلام يقرّر المساواة بين الناس، وأن الناس يولدون أحراراً متساوين، وأنهم يتفاوتون بالعلم والعمل والإحسان، أو ما يعبر عنه بالتقوى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٥٤).

وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴿[النساء: ٩٥]، فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١، ١٠٢].

«يا فاطمة بنت محمد، اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١)،
«من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(٢).

موقف خطابنا الديني:

إن من جوانب القصور في خطابنا الديني المعاصر: أنه لم يعطِ «البعد الإنساني» في الإسلام حقه كما ينبغي، ولم يفرد له المساحة الواجبة، التي أفرد لها القرآن، وأفردتها له السنة، وأفردتها له مصادر التراث الإسلامي، في التفسير، والحديث، والفقه، والتصوف. فهذا الخطاب يتحدث دائماً عن واجبات الإنسان، ولا يكاد يتحدث عن حقوق الإنسان، وحرية الإنسان، وكرامة الإنسان.

إن الفوج الأول من آيات الوحي الإلهي الذي نزل على محمد ﷺ، وكان خمس آيات قصار من القرآن، ذكر فيها الإنسان مرتين: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. بل القرآن كله إما حديث إلى الإنسان، وإما حديث عن الإنسان. والرسول الكريم ليس إلا بشراً مثلنا، غير أنه يوحي إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...﴾ [الكهف: ١١٠]. رسل الله جميعاً كانوا بشراً مثلنا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الذكر (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.



لا بدّ لخطابنا الديني من أن يعطي عناية أكبر، للإنسان ومعاناة الإنسان، ومشكلات الإنسان، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وأن يُسهم في تحرير الإنسان من كلّ ما يجلب عليه الحزن والقلق والاكتئاب واليأس وسائر أمراض النفس التي أصبحت سمة العصر، والتي جعلت كثيرا من الناس يعيشون في دنياهم تعساء، أحياء كالأموات، أو أمواتا كالأحياء.

منحتهم الحضارة الحديثة الرفاهية، ولكنها لم تمنحهم السكينة، وفّرت لهم المتعة المادية، ولم توفرّ لهم السعادة الروحية، هيّأت لهم الوسائل والأدوات، ولم تهَيّئ لهم المقاصد والغايات، فهم يحيون حياة لا يعرفون لها هدفا، ولا يجدون لها معنى، ولا يذوقون لها طعما! وصدق ما قاله أحد فلاسفة الشرق لأحد فلاسفة الغرب: إنكم أحسنتم أن تُحلّقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في البحر كالحوث، ولكنكم لم تحسنوا أن تمشوا على الأرض كإنسان!

* * *



يُؤْمِنُ بِالْوَحْيِ وَلَا يَغِيبُ الْعَقْلُ

ومن خصائص خطابنا الإسلامي في عصر العولمة: أنه يؤمن بالوحي، ولا يغيب العقل.

فهو يؤمن بالوحي بوصفه أساس كل دين سماوي. فتعاليم الدين وأحكامه ليست من صنع النبي - أي نبي - ووحى فكره ووجدانه، بل أوحى الله بها إليه عن طريق من طرق الوحي، كالإلهام، والرؤى الصادقة، ونزول الملك بكلام الله إليه، والخطاب المباشر من الله تعالى، كما كلم موسى ﷺ.

فالأنبياء هم سفراء الله تعالى إلى عباده، بعثهم مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومحمد ﷺ، خاتم النبيين، أنزل الله وحيه وقرآنه بطريق الوحي الجلي، بوساطة الملك جبريل ﷺ، أمين الوحي: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ١ - ٦]. شديد القوى هو جبريل ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]. فالله تعالى منزل الوحي، وجبريل إنما هو حامله، ومحمد هو متلقيه ومبلغه عن ربّه: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

ونحن المسلمين بعد أن رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وبالقرآن إماماً: أصبحنا ملتزمين - بحكم عقيدتنا - بأحكام الإسلام وأوامره ونواهيه: في العقيدة والشريعة والسلوك والمفاهيم والتقاليد. فنحن نصلي ونصوم ونتعبد كما يأمرنا الإسلام. ونحن نأكل ونشرب ونلبس ونتجمل ونبيع ونشتري ونتعامل، كما يأمرنا الإسلام. ونحن نتزوج ونعاشر وننجب، ونتوافق أو نطلق، كما يأمرنا الإسلام. ونحن نتعامل مع أمرائنا وحكامنا في السلم والحرب، والعافية والبلاء، كما يأمرنا الإسلام. ونحن نتعامل مع غير المسلمين في الداخل والخارج، كما يأمرنا الإسلام. فما دام هناك أمر ملزم من الله ورسوله، أو نهي محرم من الله ورسوله، فليس لنا إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولا يكون الفرد المسلم مسلماً، ولا المجتمع المسلم مسلماً حقاً، إلا إذا احتكم كلُّ منهما إلى شريعة ربّه، مؤمناً بأن ما شرعه الله له خير مما يشرعه لنفسه، وأنه ليس أعلم من الله بخلقه، ولا أبر بهم منه ﷺ، بل هو أبر بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها. وقد شرع لهم من

الأحكام ما يعلم أن فيه الخير والمصلحة لهم في دنياهم وآخرتهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

لهذا كان الحكم بما أنزل الله على رسوله فرضاً مؤكداً، لا يجوز أخذ بعضه دون بعض، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقد أنكر الله تعالى على بني إسرائيل قبلنا: أنهم جزؤوا دينهم، فقبلوا منه ما راق لهم، وتركوا ما لا يتفق وهواهم، فقال تعالى تقرعاً لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

ومع دعوة الخطاب الإسلامي إلى الإيمان بما جاء به الوحي، والالتزام به أمراً ونهياً، في العبادات أو المعاملات: يدعو هذا الخطاب - في الوقت نفسه - إلى احترام العقل، الذي لولاه ما ثبت الوحي. ولهذا قال علماء الإسلام: لولا العقل ما ثبت النقل. أي الوحي. لأن العقل هو الذي أثبت لنا قضيتين من قضايا العقيدة الكبرى.

فهو الذي أثبت وجود الله تعالى، إذ لم نعرف الله بالوحي، لأن ثبوت الوحي لا يكون إلا بعد ثبوت الموحى به، وثبوت الرسول لا يكون إلا بعد ثبوت المرسل، هو الله.

فبعد أن أثبت العقل وجود الله تعالى وحكمته وقدرته على إرسال الرسل، وتأييدهم بالآيات البينات التي تثبت نبوتهم، وتُفحم خصومهم، وأنه لا يليق بحكمة الرب الحكيم الرحيم القادر على كل شيء: أن يدع عباده هملاً، ويتركهم سدى، وهو قادر على أن يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويعرّفهم ما يجب عليهم نحوه، وما يسعدهم في أولاهم

وأخراهم، ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه - بعد هذا آمن العقل بأن فلانا هذا - الذي قامت المعجزة على يديه - هو رسول من عند الله، إذ لا يقدر بشر على أن يمدّه بالآيات الخارقة التي تثبت دعواه وتؤيّد حجّته.

وبعد أن أثبت العقل النبوة: يعزل العقل نفسه - كما عبر الإمام الغزالي^(١) - ليتلقى من الوحي الأوامر والنواهي والتعاليم، لأن سلطة النبوة أعلى من سلطته، ونور النبوة أسطع وأرفع من نور عقله، فعقله قد يخطئ أو يضلّ أو يخلط أو ينسى، ولكن النبوة لا تخطئ، لأنها من عند الله. ولو أخطأ النبي في أمر اجتهد فيه برأيه، فسرعان ما يأتي الوحي مصحّحا ومصوّبا، لأن الله تعالى لا يقرّره على باطل، لأنه لو أقرّه عليه لأصبح شرعا متبعا.

الإسلام يحترم العقل، لأن به عرفنا الله، وبه عرفنا رسول الله، وبه عرفنا كتاب الله.

وهو يحترم العقل، لأننا بالعقل نفهم خطاب الله، ونفسّر كتاب الله، ونستنبط أحكام الله، فقد شاء الله أن ينصّ على بعض الأحكام في كتابه أو على لسان رسوله، وأن يدع منطقة فارغة من التشريع والأحكام الملزمة سمّيناها في بعض كتبنا «منطقة العفو»^(٢)، أخذًا من الحديث القائل: «ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا». ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]^(٣).

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ص ١٨٩ - ١٩٠، تحقيق الشيخ عبد الحلیم محمود، نشر دار الكتب الحديثة، مصر.

(٢) في كتابنا: عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية ص ٩، ١٠، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٣) رواه البزار (٤٠٨٧)، وقال: إسناده صالح. والحاكم في التفسير (٣٧٥/٢)، وصحّح إسناده، =

وهذه المنطقة - منطقة العفو - مطلوب من العقل أن يملأها - عند الحاجة - بما يهديه إليه اجتهاده في ضوء النصوص الأخرى: إما عن طريق القياس بشروطه، أو الاستصلاح، أو الاستحسان، أو غيره من أدلة ما لا نص فيه^(١).

وأما ما جاءت فيه نصوص قرآنية أو نبوية، فمهمة العقل أن يجتهد فيها ليستخرج منها الأحكام في ضوء الأصول والقواعد التي ارتضتها الأمة في الاستنباط، وبناء الفروع عليها. وهنا تتعدد المدارس، وتتنوع المشارب، ما بين من يميل إلى الرأي، ومن يميل إلى الأثر، ومن ينظر إلى المقاصد، ومن يجنح إلى الظواهر. والشرعية تتسع لهؤلاء جميعا. وفي هذا التنوع إثراء للفقهاء وسعة ورحمة^(٢). وإن كنت مع المدرسة الوسطية التي تجمع بين النظر والأثر، وتنظر إلى النصوص الجزئية، في ضوء المقاصد الكلية.

وهو يحترم العقل بعد ذلك، لأنه أدوات الفذة في معرفة الكون من حوله، فهو الذي يكتشف قوانين المادة، ويفسر الظواهر الكونية، ويربط بينها، ويستخدمها في مصلحة الإنسان. كما يوظفها في تثبيت الإيمان: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

فلولا العقل ما استطعنا أن نسخر قوى الطبيعة لخدمتنا بإذن الله، وبالعقل استطاع الإنسان أن يطير في الهواء كالنسر، بل أرفع، وأن

= ووافقه الذهبي، والبيهقي في الضحيا (١٢/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩٤): رواه البزار والطبراني في الكبير وإسناده حسن ورجاله موثقون. عن أبي الدرداء.

(١) للشيخ عبد الوهاب خلاف رَحِمَهُ اللهُ كتاب بعنوان: أدلة التشريع فيما لا نص فيه.

(٢) انظر كتابنا: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ٤٢ - ٦٥، فصل: الاختلاف ضرورة ورحمة وسعة، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

يغوص في البحر كالحوت أو أعماق، وأن يحطم الذرة، ويصنع الحاسوب، ويصعد إلى القمر، ويجتهد أن يغزو الكواكب الأبعد.

إن هذا العقل يجب أن يُحترم لدى المسلمين، فلا يعطلوه عن وظيفته، ووظيفته الأساسية التفكير والبحث والاستنباط والنقد، وليست مهمته مجرد التلقي والتقليد والجمود، وقبول كل ما يلقي للإنسان دون أن يمتحنه، ويفحصه، ويعرف صدقه من كذبه، أو صحته من فساده، أو صوابه من خطئه.

ولهذا كان على العقل أن يناقش وينقد، ويطلب دليلاً على كل قضية، وهذا ما يعلمه لنا القرآن، فهو الذي يقول بكل وضوح: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

ولهذا كان لا بد في إثبات الحسيات من دليل المشاهدة: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩].

ولا بد في إثبات العقليات من دليل التوثيق: ﴿أَتُؤْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّن عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكان لا بد في إثبات العقليات من البرهان المنطقي، ولهذا تكرر في القرآن مطالبة أصحاب الدعاوى العقدية أن يأتوا بالبرهان على دعاوهم: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

والعقل الذي نريده، هو: العقل الحرُّ الباحث عن الحقيقة، الطليق من إसार التقليد، واتباع الظنون والأهواء، فإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، والهوى يعمي ويصم، أما العقل المكبل بأغلال الانبهار بفلسفة معينة، أو بثقافة بشرية، أو بتقليد الماضين، فهذا عقل غير مأمون على تحصيل المعرفة الصحيحة، والوصول إلى الحقيقة الصريحة. وقد قال الإمام ابن الجوزي: «اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلّد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطى شمعة يستضيء بها: أن يطفئها، ويمشي في الظلمة»^(١).

والتقليد مذموم في شرعة الإسلام: سواء كان تقليداً للأجداد والآباء، أو للسادة والكبراء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهَا كَانَتْ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

بل ينكر الإسلام تقليد العامة، والسير مع الجماهير، دون الرجوع إلى عقل أو شرع: «لا تكونوا إمعة: تقولون: إن أحسن الناس أحسناً، وإن ظلموا ظلمنا. ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أسأؤوا فلا تظلموا»^(٢).

وأشد ما يكون التقليد مذموماً: حين تقلد أمة فلسفة أمة أخرى، وتقبل - مبصرة أو غير مبصرة - فكرتها عن الدين، والمجتمع، عن الله والإنسان، عن الدنيا والآخرة، عن المعرفة والقيم. ويقودها أفراد منها، فتنوا بالآخرين، وغلبوا على عقولهم كأنهم مغيبون أو مخدرون!

(١) تلبس إبليس ص ٧٤، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب. والبخاري (٢٨٠٢)، عن حذيفة.

جربنا ذلك قديما في افتتان فئة من كبار مثقفي المسلمين بفلسفة الإغريق، بهروا بها، وأذعنوا لسلطانها، ولم يحاولوا أن يناقشوها أو يمتحنوها، بل عدّوها أو عدّوا قضاياها «مسلمات» واتخذوها أصلا، والإسلام فرعا، فما وافقها من عقائد الإسلام وشرائعه فهو مرضي مقبول، وما خالفها فهو مرفوض أو مؤول، ولو كان تأويلا بعيدا.

وبعض ما كان يُعدّ حقائق عندها وعندهم، يعرف تلاميذ المدارس الابتدائية اليوم: أنه خرافة وباطل، وقد كشف العلم الحديث زيفه.

حتى جاء حجة الإسلام الغزالي فهدم هذا الصنم الكبير على رأس أهله، وبيّن ما فيه من أباطيل وأوهام في كتابه «تهافت الفلاسفة». فأبطل الفلسفة بمنطق الفلاسفة.

ثم جاء بعده شيخ الإسلام ابن تيمية، فأكمل مشواره، وردّ على الفلاسفة ومن تأثر بهم من المتكلمين، وبيّن موقف الإسلام بمنطق العقل الفطري، وضبط جموح العقل الإنساني بضوابط الوحي الرباني، وذلك في عدة كتب له، أهمها «درء تعارض العقل والنقل»، الذي سُمّي أحيانا «موافقة صحيح المنقول صريح المعقول»^(١).

وفي عصرنا امتحن العقل الإسلامي بقضية أخرى: فتنة الانبهار بصنم آخر، هو صنم الحضارة الغربية الحديثة، بما تحمله من فلسفة للحياة والإنسان، مغايرة لفلسفة الإسلام، سواء في فلسفتها الليبرالية الفردية، أم في فلسفتها الجماعية الماركسية، فكلتاها فلسفة حسية مادية، مغرقة في النفعية والدينيوية، تُغلب المادة على الروح، والدنيا على الآخرة، والعقل على الوحي، والمنفعة على الأخلاق، هذا إن لم ترفض

(١) نشر في عشرة مجلدات.

الروح والآخرة، والوحي والأخلاق رفضاً مطلقاً، كما هو شأن الفلسفات المادية، ومنها: الشيوعية الماركسية.

لقد وجد من بني جلدتنا مَنْ فتنوا بهذه الحضارة، وَمَنْ لا يزالون مفتونين بها، ويريدون منا: أن ننسلخ من جلدنا، وننخلع من ذاتنا، لتتبع هذه الحضارة شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلوه وراءهم.

هؤلاء الذين سَمَّيْتُهُمْ «عبيد الفكر الغربي»، وهم الذين أرادوا أن «نفنى» في الغربيين، ونسير في ركابهم، ونأخذ حضارتهم كلّها، بجذورها الفلسفية، وخلفياتها العلمانية، وتناقضاتها التاريخية، أو كما قال قائلهم: بخيرها وشرّها، وحلوها ومرّها، ما يُحِبُّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب.

ونريد من «العقل المسلم» اليوم أن يتحرّر من التبعية والتقليد للغرب وفلاسفته، كما دعونه أن يتحرّر من التبعية والتقليد للشرق وأئمتّه. بل هذا التحرّر أحقُّ وأولى، فإن أئمة الشرق هم منا ونحن منهم، نشاركهم في الأصول الكلية، وفي الفكرة المبدئية، ولكن زماننا غير زمانهم، ومشكلاتنا غير مشكلاتهم، وظروفنا غير ظروفهم.

نريد للعقل المسلم أن يفكّر ويبحث، ويتحرّر من التبعية والتقليد، وألا يتعبّد إلا بمحكمات النصوص الربانية، التي تضيء له الطريق، وتهديه سواء السبيل، وهي في الحقيقة منارات تهدي، وليست قيوداً تكبل، تسدّد العقل ولا تقيّده، وتحرّره ولا تستعبده، ﴿وَمَنْ يَعْنَصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

لقد رأينا من الصالحين مَنْ يعتبرون التفكُّر عبادة، حتى قال بعضهم: تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة. وكيف لا، وقد وصف الله الأخيار من عباده من «أولى الألباب» بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

كما يرون النظر في الكون وسننه وآياته: فريضة أمر الله تعالى بها: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فهذه الصيغ القرآنية: الأمر في قوله: ﴿أَنْظَرُوا﴾. أو الإنكار في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾. تدل على وجوب النظر العقلي، وأنه فريضة لا نافلة. وهذا ما جعل أحد كبار الكتَّاب في عصرنا يصنف كتابا سماه «التفكير فريضة إسلامية» وصدق في تسميته^(١).

ليس عندنا - نحن المسلمين - ما في أديان آخر من عزل العقل عن قضية الإيمان، وحُسبان الإيمان مسألة تتعلق بالوجدان، ولا علاقة لها بعقل الإنسان. ولا غرو أن وجدنا عندهم مثل هذه العبارات: أعتقد وأنت أعمى! أو: أغمض عينيك ثم اتبعني. بل قال بعض فلاسفتهم: أومن بهذا؛ لأنه غير معقول! كأن الإيمان والعقل في نظره لا يتلاقيان.

أما عندنا - نحن المسلمين - فلا بد للإيمان أن يؤسَّس على العلم، حتى يؤمن الإنسان بربه وبرسوله عن بينة، ويسير في طريقه على بصيرة

(١) الأستاذ عباس العقاد.

ونور، فالعلم دليل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فالعلم يؤدي إلى الإيمان، والإيمان يؤدي إلى الإخبات، هكذا بالترتيب الذي دلَّ عليه العطف بالفاء (ليعلموا، فيؤمنوا، فتخبت قلوبهم).

وأكابر علماء المسلمين يقولون: إن إيمان المقلد تقليدًا مطلقًا لا يقبل، لا بد أن يكون إيمانه مبنياً على الدليل، ولو لم يستطع التعبير عنه بعبارة علمية.

وقد كنا نحفظ، ونحن طلبة في المرحلة الثانوية بالأزهر: قول صاحب «الجوهرة» في علم التوحيد:

إِذْ كُلٌّ مِّنْ قَلْدٍ فِي التَّوْحِيدِ إِيْمَانُهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ تَرْدِيدِ!

ولا توجد عندنا - نحن المسلمين - مشكلة الصراع بين العقل والوحي، أو بين الحكمة والشريعة، أو بين الفكر والعقيدة، أو بين العلم والدين، فالدين عندنا علم، والعلم عندنا دين.

ومن القواعد المعلومة المقررة عندنا: أنه يستحيل التناقض بين قواطع العقل وقواطع الشرع، لأن الحق لا يعارض الحق أبداً. وإذا وجد شيء من هذا في الظاهر، فلا بد أن يكون لأحدهما تفسير أو تأويل يخرج به عن التناقض.

أكد هذا المحققون من علماء الإسلام وأئمة الكبار، الذين جمعوا بين علوم الشرع وعلوم العقل، مثل: إمام الحرمين، والغزالي، والراغب الأصفهاني، وابن رشد، وابن تيمية، والشاطبي، وابن الوزير، وغيرهم من أفاض الأئمة ومصاييحها.

وحسبي أن أنقل هنا فقرات من كلام الإمام الغزالي لتوضيح هذه الحقيقة التي لا تخفى على ذي بصر، وقد قرّر ذلك في عدد من كتبه، كما بيّنا في كتابنا «الغزالي بين مادحيه وناقديه».

فها نحن أولاء نراه في «إحياء علوم الدين» يدعو إلى المزج بين العلوم العقلية والعلوم الدينية، ويبين الحاجة إلى كلّ منهما، ويقرّر أن لا غنى بالعقل عن نور الوحي، ولا بالوحي عن نور العقل، بل كل منهما مع الآخر: نور على نور. يقول: «فالداعي إلى محض التقليد - مع عزل العقل بالكلية - جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين».

فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضرّ بالغذاء، متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب، لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة^(١).

ثم يحمل الغزالي بقوة على من يظن أن ثمة تناقضا بين العقلية والشرعية، فيقول: «وظنُّ من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظنُّ صادر عن عمى في عين البصيرة، نعوذ بالله منه. بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض، فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض في الدين! فيتحير به، فينسل من الدين، انسلاخ الشعرة من العجين! وإنما ذلك، لأن عجزه في نفسه خيّل إليه نقصا في الدين، وهيئات!»^(٢).

(١) إحياء علوم الدين (١٧/٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) المصدر السابق.

وهو يصف عصابة الحقّ وأهل السنة في مقدمة كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» بأنهم وحدهم: «الذين اهتموا إلى أسرار ما أنزل الله على رسوله، واطلعوا على طريق التلفيق^(١) بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحقّقوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحقّ المعقول، وعرفوا أن مَنْ ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما أتوا إلا من ضعف العقول، وقلة البصائر. وأن مَنْ تغلغل من الفلاسفة و«غلاة» المعتزلة في تصرف العقل، حتى صادموا به قواطع الشرع^(٢)، ما أتوا إلا من خبث الضمائر. فميل أولئك إلى التفريط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم».

ويذكر الغزالي هنا مثالا للعقل والشرع، فمثال العقل: البصر السليم من الآفات، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، إلا مَنْ كان في غمار الأغبياء «فالمُعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس، مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما متدلّ بحبل غرور»^(٣).

(١) كلمة «التلفيق» يعني بها: ما نعينه بكلمة «التوفيق»، وليس يعني بها ما يوحي به اللفظ في عرفنا اليوم من الاحتيال على الجمع بين متنافرين.

(٢) أنكر د. عادل العوّا في تقديم كتاب: «الاقتصاد في الاعتقاد»، على الغزالي ضمه المعتزلة إلى الفلاسفة في العزوف عن الاستضاءة بنور الشرع. وقال: إنهم متكلمون، والمتكلمون هم حُرّاس العقيدة بالعقل. ولكن عبارة الغزالي لا تشمل كل المعتزلة، بل الغلاة منهم، فلا وجه للاعتراض.

(٣) من مقدمة كتاب الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،

فلا يجوز إذن نصب العقل عدوا للشرع، ولا نصب الشرع عدوا للعقل.

ولا يتصور أن يثبت الشرع ما ينفيه العقل - أي ما يقطع باستحالته - ولا أن ينفي ما يثبته العقل، أي ما يقيم البراهين اليقينية على وجوده. والعكس ثابت أيضا، بمعنى أن العقل لا يتصور أن يثبت ما يقطع الشرع بنفيه، ولا أن ينفي ما يقطع الشرع بثبوته.

وبعبارة موجزة يرى الغزالي: أن العقل لا يمكن أن يثبت حقيقة ينفيها الشرع، وأن الشرع لا يمكنه أن يأتي بعقيدة يحيلها العقل. وإذا وقع شيء من ذلك، فلا بد أن يكون من جاهل متوهم على العقل، أو متوهم على الشرع^(١).

إننا نعتب على كثير من المسلمين أنهم وضعوا عقولهم في «ثلاجة» فجمدوها حتى لا تفكر، أو كأنما منحوها إجازة من عناء التفكير، ولذلك راجت في ساحتهم الخزعبلات، وغاب عنهم «فقه السنن»، فقبلوا من الخوارق وما سموه «الكرامات» ما لا يصدقه عقل، ولا ينتظم به حال مجتمع، مثل ما يذكره الشعرا في «طبقات الصوفية» عن خوارق الذين عدّهم أولياء، كأن الكون يمضي بغير نظام، ولا ميزان ولا حسابان!

فلا غرو أن تخلف المسلمون وتقدم غيرهم، وجمدوا وتحرك غيرهم، وناموا واستيقظ غيرهم.

(١) انظر كتابنا: الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص ٤٧ - ٥٠، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢،

هذا والقرآن يخاطبهم بأولى الأبواب، ويدعوهم ليقوموا لله مثني وفرادي ثم يتفكروا، ويبين لهم الآيات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ويبين لهم أن في كونه ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أو: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أو: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾. وينكر بشدة على الذين ألغوا عقولهم ليفكروا برؤوس غيرهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا لِقَوْمٍ لَّا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

بل نرى كثيرًا من علمائهم الذين تعلّموا علم الدين، وظلّوا سنوات طويلا يتلقون هذا العلم، لا يجروون أن يفكروا برؤوسهم لمطالب عصرهم وبيئتهم، فلا بد أن يرجعوا إلى الموتى ليفتوهم فيما وقع لهم، وربما لم يجدوا عند هؤلاء الموتى خبرا بهذه النوازل الجديدة التي لم يشهدوها في عصرهم. ومن هنا لا يستطيع هؤلاء أن يفكروا لأنفسهم، وإذا وجد عالم فكر بنفسه، واستقل بعلمه، ووصل إلى اجتهاد مصيب أو مخطئ: أوسعوه ذمًا وتجريحًا، وصبوا عليه جام غضبهم، ورموه بمسموم سهامهم، وربما سقط جريحًا أو قتيلاً.

هذا وهم يقرؤون ما قرره علماؤنا الأقدمون من أهمية العقل مع النقل، وأنه لا غنى عن العقل الصريح، مع النقل الصحيح، كما قال الإمام الغزالي.

إن الخطاب الإسلامي المعاصر يجب أن ينوّه بقيمة العقل في الدين، ويدعو الأمة إلى التعبد لله باستعمال عقولها في فقه دينها، وفهم دنياها، وأن تحرر العقل من كل قيد يعوقه عن التفكير الحر، والتحليق في آفاق الكون، والسياحة في تاريخ العالم، والانتفاع بكل حكمة، صدرت من أي فرد، أو أي أمة، فقد ذكر لنا القرآن أن ابن آدم الأول تعلّم من غراب:

﴿قَالَ يَوَيْلَیْٓ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوْرَى سَوَّءَ أَخِي﴾
 [المائدة: ٣١]، وأن سليمان عليه السلام تعلّم من هدهد حين جاءه بعد غيبة،
 وخاطبه قائلاً: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢].
 وجاء في الحديث: أن بعض الصحابة تعلّم من الشيطان نفسه،
 حيث لقنه فائدة علمية حول آية الكرسي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «صدقك
 وهو كذوب»^(١).

لن تنهض الأمة إلا بفك قيود العقل، وتحريره من الجمود والتبعية
 والتقليد، وإطلاقه باحثاً ومفكراً ومستنبطاً ومستكشفاً، مهتدياً بنور
 الوحي، وبهذا يكون للإنسان المؤمن «نور على نور».

موقف خطابنا الديني:

ولا ننكر أن من آفات كثير من خطابنا الديني: أنه أعطى العقل إجازة
 طويلة، وربما دائمة، فهو معطل عن وظيفته في فهم الدين، وفهم الحياة،
 وكل اعتماده على التقليد والتلقين، لا يعطي عقله حق المناقشة لما
 يلقنه، ولا حق التحرر من تقليد السابقين، بل ألقى بزمامه إليهم، وأطفأ
 الشمعة التي منحه الله إياها، ومشى في الظلمة، كما قال ابن الجوزي^(٢).

لم يقم لله منفرداً ولا مع غيره ليفكر، ولم يمنح عقله فرصة لبحث،
 وسمح للأباطيل بأن تغزو فكره، وللضلالات بأن تملأ ساحته، وبالتالي
 روج هذه الأباطيل عند الجماهير، وحشا بها عقولهم وأفكارهم،
 فرددوها كالبيغاوات.

(١) رواه البخاري في الوكالة (٢٣١١)، عن أبي هريرة.

(٢) تلبس إبليس لابن الجوزي ص ٧٤.



راجت عند الناس قصص الجن والعفاريت التي تتركب الإنسان، وتتحكّم فيه، وتنطق على لسانه، وتسخره لما تريد، وسوّق ذلك بعض الوعاظ والخطباء، وصدّق الناس ذلك. وهذا غير مقبول في منطق الإسلام الذي أعلى من قيمة الإنسان، الذي كرمه الله وجعله في الأرض خليفة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة. فكيف يمكّن الجنّي منه إلى هذا الحد؟ وقد حدثنا القرآن أن الله تعالى سخر الجنّ للإنسان، كما في قصة سليمان، ولم يخبرنا أبدا أنه سخر الإنس للجان! وقد قال تعالى على لسان الشيطان الأكبر يوم القيامة مخاطبا الناس الذين أغواهم: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وأما مسّ الجن، فهو كما ذكر الله تعالى على لسان أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]. فهو مسّ الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس.

ومثل ذلك: ما راج في السنوات الأخيرة، من بدعة «العلاج بالقرآن» حتى وجدنا من يفتح «عيادات لعلاج المرضى بالقرآن!» وكأنهم بهذا اكتشفوا ما جهله المسلمون في أزهى عصورهم، وعرفوا ما لم يعرفه الصحابة والتابعون وخير القرون. ولو كان هذا النهج صحيحًا وقويًا لكان سلف الأمة أسبق إليه.

ولو نهج المسلمون هذا النهج، ما شيد المسلمون في ازدهار حضارتهم علم الطب، الذي تعلمت منه أوروبا، وكانت كتبهم فيه مراجع للعالم كلّ، واشتهر كثير من الأفذاذ بالجمع بين علم الطب وعلم الدين، مثل: الفخر الرازي، وابن رشد الحفيد، وابن النفيس، وغيرهم.

ورسول الإسلام هو الذي وضع الأسس الفكرية لطب علمي قائم على سنن الله في الأسباب والمسببات، فقد تداوى هو بالأدوية المادية، وأمر أصحابه بالتداوي بها، وأمر بعض أصحابه بأن يذهب إلى الطبيب المشهور الحارث بن كلدة الثقفي، وأعلن أن الله ما أنزل داء إلا جعل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله^(١).

وسئل عن الأدوية التي يتداون بها: هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»^(٢). فحلّ مشكلة العلاقة بالقدر، التي يستعصي فهمها على كثير من الناس، فبيّن أن الدواء من قدر الله، كما أن الداء من قدر الله، فنحن ندفع قدر الله بقدر الله.

واعتماد هؤلاء على مثل قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، لا يعني أنه شفاء للأمراض الحسية التي يعاني منها الناس. وإنما هو شفاء للأمراض النفوس والعقول وأمراض المجتمعات والأمم، بما يقدمه من عقائد، وما يهدي إليه من قيم وتشريعات وتوجيهات تضيء للناس الطريق. ولذا قال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. فهذه الآية قد قيّدت الآية الأخرى، وبيّنت أنه شفاء لما في

(١) رواه أحمد (٣٥٧٨)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. والحاكم في الطب (٣٩٩/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الضحيا (٣٤٣/٩)، عن ابن مسعود.

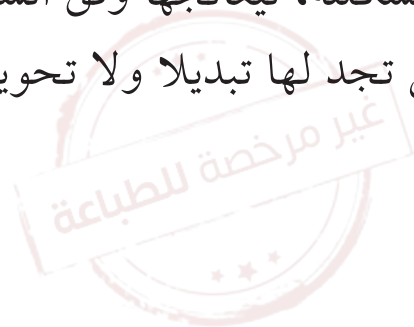
(٢) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، والحاكم (١٩٩/٤)، وصححه ووافقه الذهبي، ثلاثهم في الطب، وقال الهيثمي في المجمع (٨٢٨٣): رواه الطبراني، والحارث لم أعرفه، وبقيّة رجاله رجال الصحيح غير أبي خزيمة. وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٧٤٩)، عن ابن أبي خزيمة.



الصدور من الشكوك والشبهات والخرافات، وكذلك ما فيها من الضغائن والأحقاد وأمراض العجب والغرور والرياء وغيرها من آفات النفوس، التي سمّاها الإمام الغزالي «المهلكات».

إن تغييب العقل من خطابنا الديني: لا يثمر إلا قبول الخرافات، وانتشارها بين العوام: مثل المبالغة في ردّ كثير من الظواهر إلى السحر، و«عمل» السحرة، الذي يؤثر في الحب والكراهة، والجمع والتفريق. ومثل ردّ كل بلاء ينزل بالإنسان، أو مرض يصيبه إلى «الحسد» أو «العين» التي تدخل الرجل القبر، والجمل القدر.

ومثل هذا الاعتقاد يمنع الإنسان أن يبحث عن الأسباب الحقيقية لمشكلته، ليعالجها وفق السنن التي أقام الله عليها هذا العالم، وهي ثابتة لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً.





يدعو إلى الروحانية ولا يهمل المادية

ومن خصائص خطابنا الإسلامي في عصر التقارب العالمي، أو ما يسمونه «عصر العولمة»: أنه يدعو إلى «الروحانية» التي هي جوهر الدين ولبّه، ولكنه لا يهمل الجانب المادي من الحياة ولا يراه رجسا من عمل الشيطان.

ذلك: أن الله خلق الإنسان كائنا مزدوج الطبيعة، فيه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، وهذه النفخة الربانية هي التي ميزته عن سائر الحيوانات، وجعلته أهلا لأن يأمر الله الملائكة بالسجود تكريما له: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٢﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢]. كما أن قبضة الطين جعلته صالحا لعمارة الأرض والتعامل معها.

فإذا عني الإنسان بعنصره الروحي وأصله السماوي: سما وارتقى حتى يلتحق بأفق الملائكة. وإذا عاش أسيرا وخادما لعنصره الطيني، وأصله الأرضي: هبط وأخلد إلى الأرض، فينزل إلى حضيض الأنعام، وربما كان أضل منها وأسوأ درجة: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

لهذا كان الجانب الروحي في الدين هو الغاية وهو الجوهر، وكلُّ الجوانب الأخرى لمساعدته وخدمته.

ماذا يعني الجانب الروحي؟

والجانب الروحي يشمل:

١ - الإيمان بالله تعالى وتوحيده، فلا عبادة إلا له، ولا استعانة إلا به، ولا إذعان إلا لأمره، فهو الخالق المنعم بجلال النعم ودقائقها، فلا يستحق أن يعبد غيره: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

٢ - الإيمان بالآخرة، دار الجزاء والخلود، التي توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتُجزى بما عملت: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ * ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ * ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ * ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ * ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

٣ - عبادة الله تعالى وتقواه، بأداء فرائضه، وإقامة شعائره، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ * ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ * ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. ولا سيما أركان الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام وحج البيت.

والإسلام هو الديانة الوحيدة التي تجعل المسلم على موعد مع ربه كل يوم خمس مرات، فهي بمثابة حمام يومي يغتسل فيه من خطاياها وأدرانها وغفلته، ليخرج منها نظيفاً طاهراً، في حين لا تطلب أديان كثيرة من أتباعها إلا زيارة واحدة للمعبد كل أسبوع.

٤ - التقرب إلى الله تعالى بالنوافل والذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار، ليظلَّ المسلم موصول الحبال بربه في الخلوة والجلوة، في العمل وفي البيت، في العافية والبلاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

٥ - تطهير القلب من الآفات النفسية والخلقية ومن أمراض القلوب، التي تجعله عُشًّا للشيطان، يبيض فيه ويفرخ، وهي التي سمّاها الإمام الغزالي في إحيائه «المهلكات» من الكبر والعُجب والغرور والرياء وحب الدنيا، وحب المال، وحب الجاه، والغضب والحقد والحسد والبغضاء. وينبغي للمسلم أن يجاهد نفسه حتى تصفو من كدرها، وتخرج من الظلمات إلى النور، وحتى يصبح القلب «قلبا سليما» من الشرك والنفاق والكبر والآفات، ويصبح «قلبا منيبا» إلى الله، وهذا أساس النجاة والفوز عند الله. يقول تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]، ويقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

وروى مسلم في «صحيحه»، أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(١).

٦ - التقرب إلى الله تعالى بفعل الخيرات، والإحسان إلى الناس، والرحمة بالمخلوقات، وإسداء المعروف، وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، ومسح دمة المحزون، كل هذه تُعدُّ من «عمل الصالحات» ومن القربات إلى الله تعالى، سواء قدّمها للمسلمين أم غيرهم، وقد جاء

(١) رواه مسلم في البرِّ والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٨٢٧)، عن أبي هريرة.

في وصف الأبرار المرضيين عند الله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿ [الإنسان: ٨، ٩]. وكان الأسرى في ذلك الوقت من المشركين المحاربين.

بل جاء في الأحاديث الصحاح أن الرحمة بالحيوان، والمساعدة في دفع جوعه وعطشه: من أعظم القرب إلى الله تعالى، حتى صحَّ في الحديث: أن بغياً سقت كلباً يأكل الثرى من العطش، فغفر الله لها^(١). ولا شيء يكثر على الله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

كما أن رجلاً سقى كلباً فشكر الله له فغفر له، كما جاء في الحديث الصحيح. فقالت الصحابة: أئن لنا في البهائم لأجرًا، يا رسول الله؟ قال: «في كل كبدٍ رطبة أجر»^(٢).

لم يكن يخطر في بالهم أن الإحسان إلى البهيمة العجماء يستوجب أجراً، حتى بين لهم الرسول قيمة هذا العمل الدينية والأخلاقية، وأن الرحمة بكل «كبد رطبة» وهي كناية عن كل «كائن حي» يثاب عليها من قام بها، فإن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

لا إغفال للجانب المادي:

ومع هذه العناية البالغة بالجانب الروحي في الإسلام، التي يجب أن يركز عليها خطابنا في عصر العولمة: ينبغي ألا ينسى هذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٣٤٦٧)، ومسلم في السلام (٢٢٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٦٦) ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

الخطاب الجانب الآخر: الجانب المادي، فإنما يقوم الإنسان بعنصريه: الطيني والروحي.

الاهتمام بالدنيا وعمارتها:

ومن مظاهر الاهتمام بالجانب المادي: الاهتمام بالدنيا، فهي التي استخلفنا الله فيها، وكلّفنا فيها عبادته، وعمارة أرضه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. وهي التي سخر لنا كل ما فيها من نعم لخدمتنا، وتسهيل مهمتنا: ﴿الْمُتَرَوِّا أَنَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

ومن هنا لم يحظر الإسلام على المسلم أن يعمل للدنيا، وأن يملكها، وأن يحسنها ويجمّلها، حتى يملك الحسنيتين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، كما قال تعالى في مدح قوم: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. وكان الرسول أكثر ما يدعو بهذا الدعاء^(١).

الإسلام يعتبر العمل لعمارة الدنيا عملاً صالحاً: إذا توافرت فيه النية الصالحة، وأخذ حظّه من الإتقان، ولم يَجُزْ فيه على حقّ أحد، ولم يشغل

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٠)، عن أنس.

عن عبادة الله تعالى، كما وصف الله رواد بيوته بقوله: ﴿رَجَالٌ لَا نُلْحِيهِمْ
تِجْرَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

الخطر هو: إيثار الدنيا على الآخرة، وأن يجعل الدنيا أكبر همّه،
ومبلغ علمه، كالذين ذمهم الله بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩].

ومن المؤمنين مَنْ رزقهم الله ثواب الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى:
﴿فَأَنزَلْنَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسِّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].
وقد أتى الله بعض رسله من الدنيا ما آتاهم، مثل: يوسف، وداود، وسليمان،
فقد آتاهم الله الملك، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

المهم أن يملك المؤمن الدنيا ولا تملكه، وأن يجعلها في يده، ولا
يسكنها في قلبه.

نعم المال الصالح للمرء الصالح:

ومن دلائل العناية بالجانب المادي: أن الإسلام لا يرى المال شراً،
بل يراه خيراً ونعمة إذا أخذ من حله، وأنفق في محله، ولم يبخل به عن
حقّه. وقد كان النبي الكريم يدعو الله فيقول: «اللهم إني أسألك الهدى
والتقى، والعفاف والغنى»^(١). وامتنَّ الله عليه، فقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، وقال: «ما نفعتني مال كمال أبي بكر»^(٢). ودعا لخادمه

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧٢١)، وأحمد (٣٩٠٤)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (٧٤٤٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وابن ماجه في

المقدمة (٩٤)، عن أبي هريرة.

أنس: أن يكثر الله ماله^(١). وقال لسعد بن أبي وقاص: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء: خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»^(٢).

وكان من العشرة المبشرين بالجنة والمرشحين للخلافة، أو الذين استخلفوا بالفعل أغنياء، مثل: أبي بكر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام.

ولا ينظر الإسلام إلى المال والغنى نظرة المسيحية إليه، فالإنجيل يقول: «إنه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب إبرة، من أن يدخل الغني ملكوت الله!»^(٣)، ويقول: «إنكم لا تستطيعون أن تجمعوا بين الله والمال»^(٤).

أما رسول الإسلام فيقول: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»^(٥). ويقول تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

ولقد جاءت نصوص وأحكام القرآن والسنة تنظم شأن المال والتعامل فيه، وتعدّه عصب الحياة، فلا يترك للحمقى والطائشين ليتلفوه، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥]. بل أنزل الله تعالى أطول آية في كتابه لينظم شأننا دنيويا يتعلّق بالمال، وهو كتابة الدين: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بَدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٤٤)، ومسلم في المساجد (٦٦٠)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٢)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد.

(٣) انظر: إنجيل لوقا (٢٤/١٨ - ٢٥)، ومتى (٢٣/١٩ - ٢٤).

(٤) انظر: إنجيل متى (١٦/١٩ - ٢٦)، ومرقص (١٧/١٠ - ٣١)، ولوقا (١٨/١٨ - ٣٠).

(٥) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع

(٢/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عمرو بن العاص.

كما وضع القرآن قاعدة مهمة في توزيعه: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

كما أن أركان الإسلام فيها ركن يتعلق بالمال وتوزيعه لمستحقه، وهو الزكاة. كما أن الموبات السبع تتضمن كبرتين تتعلقان بالمال، وهما: «أكل الربا، وأكل مال اليتيم»^(١).

وفي وصايا سورة الإسراء، نجد جملة منها تتعلق بأمر المال، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا بُذَّرْ بُذِيرًا﴾ * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ ﴿[الإسراء: ٢٦، ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ * [الإسراء: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ * [الإسراء: ٣٤]، وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ * [الإسراء: ٣٥].

وفي الأرباع الأخيرة من سورة البقرة ركزت على المال وإنفاقه وتوزيعه وكسبه وتنميته، وحملت على الذين يأكلون الربا، وأنذرتهم إنذاراً شديداً إذا لم يذروا الربا: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ * [البقرة: ٢٧٩].

وأحكام المعاملات المالية تأخذ مساحة كبيرة من الفقه الإسلامي، حتى يستقيم التعامل على أساس العدل والوضوح، بعيداً عن الظلم والغرر والميسر.

وجاء في القرآن والسنة نصوص كثيرة تحضُّ على عمارة الأرض بالزراعة والصناعة، وإحياء الموات، والتجارة، والاحتراف بشتى الحرف.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.

وقال ﷺ: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»^(١)، فقد كان عمل داود صناعة الدروع الحديدية، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقال ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»^(٢). كما وردت أحاديث في فضل التجارة والتاجر الصدوق.

ومن الطريف: أن علماء الإسلام اختلفوا: أي هذه الأعمال أفضل وأكثر أجرا عند الله؟

والذي رجّحه المحققون: أنها كلها مطلوبة، وأفضلها ما كان الناس في حاجة أكثر إليه، وأعرض الناس عنه، فإذا كان الناس في حاجة أكثر إلى الزراعة، ولم يلتفت الناس إليها: كانت هي الأفضل، وكذلك الصناعة والتجارة.

وقد عدّ فقهاء المسلمين إتقان الصناعات التي يحتاج إليها الناس: فرض كفاية على الأمة، بحيث إذا توافر لها العدد الكافي من الخبراء والعاملين في كل فرع منها، سلمت الأمة من الإثم، وإن قصرت، ووجدت ثغرات لم تُسدّ: أثمت الأمة كلها، وأولو الأمر فيها على وجه الخصوص.

وفي عصرنا يجب أن تتقن الأمة العلوم الطبيعية والرياضية، وما يلحق بها من التطبيقات التكنولوجية، حتى لا تتخلف الأمة عن ركب العالم الذي يخوض الآن ثورات في مجالات شتى: الذرة، والفضاء، والإلكترونيات، والبيولوجيا، والاتصالات، والمعلومات.

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس.

إن المسلم الذي يعمل في هذه الميادين بجدارة وإتقان إنما يتعبد لله سبحانه، ويتقرب إليه بعمله هذا. إن العبادة لا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وصيام. إن كل عمل ينفع الأمة، ويرقى بها، ويحصنها من أعدائها، هو من أعظم العبادات والقربات إلى الله تعالى.

إن العمل للدنيا مطلوب من المسلم، كالعمل للآخرة، والمهم هو صحة الهدف، وصدق النية، وفي الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١).

وليس المطلوب أي عمل، ولكن العمل المتقن، كما في الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»^(٢). المراد بالإحسان: الإتقان والإحكام. وقال ﷺ: «إن الله يحبُّ أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»^(٣)، وقال: «إن الله تعالى محسن فأحسنوا»^(٤).

ومن الروائع النبوية في هذا الجانب: ما أمر به النبي كلَّ مسلم أن يظلَّ عاملاً للحياة، منتجاً فيها، معطاءً لها، ولو رأى الساعة تقوم أمامه، وذلك في قوله ﷺ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع

-
- (١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر.
- (٢) رواه مسلم في الصيد (١٩٥٥)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)، عن شداد بن أوس. وهو من أحاديث الأربعين النووية.
- (٣) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١١١٣)، عن عائشة.
- (٤) رواه ابن عدي في الكامل (١٧٣/٨)، وقال الصنعاني في التنوير شرح الجامع الصغير (١٧٩٦): سكت عليه المصنف - أي السيوطي - وإسناده ضعيف. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٢٣)، عن سمرة بن جندب.

ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها»^(١). ولماذا يغرسها، وهو لن يأكل منها، ولا أحد من بعده؟ إن هذا يشير إلى أن العمل عبادة، وعمارة الأرض قربة إلى الله، والمطلوب من المسلم أن يستمر عاملاً لله، مؤدياً لرسالته، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها.

الاستمتاع بالطيبات:

ومن مظاهر المادية: الاستمتاع بطيبات الحياة، فإن الله لم يحرم على الناس طيباً مما خلقه الله لهم، بل كان عنوان رسالة رسول الله ﷺ، في التوراة والإنجيل: أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأنكر القرآن بشدة على الذين يحرمون زينة الله والطيبات من الرزق، فقال بصيغة الاستفهام الإنكاري: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

فلا حرج على المسلم المتدين أن يأكل من طيبات الدنيا، ويستمتع بزینتها الحلال، وقد سمّاها القرآن (زينة الله)، التي أخرج لعباده، تشريعاً لها، وترغيباً فيها.

وقال رسول الإسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٢). وسمع أحد الصحابة الرسول يقول: «لا يدخل الجنة من كان

(١) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، عن أنس.

(٢) رواه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، وحسنه، والطيالسي (٢٣٧٥)، والحاكم في الأظعمة =

في قلبه مثقال ذرة من كبر». فقال: يا رسول الله، إني رجل أولعت بالجمال في كل شيء، ولا أحب أن يفوقني أحد بشراك نعل، فهل هذا من الكبر؟ فقال: «إن الله جميل يحبُّ الجمال! الكبر بَطَرُ الْحَقِّ وغمط الناس»^(١).

إنما يكره الإسلام الاستغراق في هذا الاستمتاع حتى يصل إلى درجة الترف، الذي يفسد الحياة، ويفسد الإنسان، ويصيب المجتمع بالانحلال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

العناية بالجسم:

ومن مظاهر الاهتمام بالجانب المادي: العناية بالجسم، والحفاظ عليه: من ناحية الصحة والسلامة، ومن ناحية النظافة والتجمل، ومن ناحية القوة والمرونة.

ولأول مرة يسمع الناس في جو الدين هذه الكلمة المعبرة: «إن لبدنك عليك حقًا». قالها محمد ﷺ، لأحد أصحابه حين بالغ في العبادة على حساب جسده، وواصل صيام النهار وقيام الليل، وتلاوة القرآن، فأراد الرسول الكريم أن يوقفه عند الحد الوسط، والمنهج الوسط، فقال له: «إن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لأهلك عليك حقًا، وإن لزورك - أي زوارك - عليك حقًا»^(٢)، أي: فأعط كل ذي حق حقه.

= (١٣٥/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٦٠)، عن عبد الله بن عمرو.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو.

وبهذا علمه الوسطية والموازنة بين الحقوق بعضها وبعض، ومنها حق جسه عليه، ومن حقه عليه: أن يطعمه إذا جاع، وأن يسقيه إذا ظمئ، وأن يريحه إذا تعب، وأن ينظفه إذا اتسخ، وأن يقويه إذا ضعف، وأن يداويه إذا مرض.

ومن توجيهاته ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»^(١). وقد حلّ مشكلة عويصة عند أهل الدين، وهي علاقة الدواء البشري بالقدر الإلهي، فقد سئل ﷺ: يا رسول الله، أرايت أدوية نتداوى بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»^(٢).

فما أصدق هذا الجواب! وما أحكمه! وما أروع! فالذي قدر الداء، قدر الدواء، والناس يتصورون الأدوية والأمراض من قدر الله، ولا يتصورون أدويتها من قدر الله، فعلمهم: أن الكل بقدر الله، الداء بقدر الله، والدواء بقدر الله، والمؤمن يدفع قدر الله بقدر الله.

ونصح الرسول بعض من اشتكى من فؤاده: أن يذهب إلى الحارث بن كلدة^(٣)، الطبيب الثقفي المعروف، وقالوا: إنه لم يكن أسلم حينئذ. فدلّ على جواز العلاج عند غير المسلم ما دام مأمونا.

وقد شرع الإسلام رياضيات متنوعة، لتقوية الجسم، مثل: السباحة، والرماية، وركوب الخيل، وغيرها من ألعاب الرياضة.

(١) رواه البخاري في الطب (٥٦٧٨)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٩٦.

(٣) رواه أبو داود في الطب (٣٨٧٥) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٨٣٤)، وقال الأرناؤوط في تخريجه لسنن أبي داود: رجاله ثقات لكنه مرسل. عن سعد بن أبي وقاص.

وتعاليم الإسلام كلها تحافظ على الجسم؛ من العبادات والطهارات، وتحريم المسكرات والمخدرات، وتناول كل ما يضر بالأجسام، إذ لا ضرر ولا ضرار.

وهذا الاهتمام بالجسم انفرد به دين الإسلام، في حين أن هناك ديانات وفلسفات، تقوم على فكرة تعذيب الجسم من أجل نقاء الروح، فقد يعذبه بالجوع أو بعدم النظافة، أو بتعريضه للأذى، أو بحرمانه من الطيبات، وهذا معروف عند البراهمة في الهندوسية، وعند البوذية الآسيوية، والمانوية الفارسية، والرواقية اليونانية، والرهانية المسيحية، وغيرها. وقد جاء الإسلام بالمنهج الوسط للأمة الوسط: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

موقف خطابنا الديني:

على خطابنا الديني: أن يدرك هذه الحقيقة، في الجمع بين الروحانية والمادية، أو بين الدنيا والآخرة، ويجعل لكل منهما حقها بالقسطاس المستقيم، بلا طغيان ولا إخماس، كما هو المشاهد لدى الكثيرين من المتحدثين باسم الدين. وقد قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]. وأكثر ما يعاب على خطابنا الديني: أنه جار على الجانب المادي، وأغفل حق الدنيا، وأهمية الدنيا للدين.

ولن ينتصر المسلمون دينيا، إذا لم ينتصروا دنيوياً. لا بد لهم من أن يعمرُوا الأرض، ويكتشفوا قوانين الكون، ويسخروا المادة، لتكون في خدمتهم وخدمة دعوتهم الربانية، وأهدافهم الأخلاقية، ورسالتهم

الحضارية، التي اتّسمت بالتكامل والتوازن، فجمعت بين العلم والإيمان، وبين الإبداع المادي والسمو الروحي والأخلاقي.

لا بد للخطاب الديني من أن يصحح مفاهيم المسلمين المغلوطة، التي ورثوها من عهود التراجع والتخلف في التاريخ الإسلامي، كالذين يفهمون «الإيمان بالقدر» على أنه «الجبر» وفقد الاختيار، ويفهمون «الزهد» على أنه ترك الدنيا بالكلية، ويفهمون «التوكل» على أنه اطراح الأسباب، وترك الأمور تجري في أعنتها، بلا تخطيط ولا تدبير ولا سعي، حتى أُلّف بعض الصوفية كتابا سماه: «التنوير في إسقاط التدبير»! يعني: لا تدبر أمرا لنفسك، ودع الله يدبر لك، فتدبيره لك خير من تدبيرك لنفسك!

وهذا خلاف ما كان عليه الرسول والصحابة وسلف الأمة. ولو أنهم استجابوا لمثل هذه النزعة، ما أقاموا حضارتهم الشامخة. ولماذا إذن أمر القرآن بالنظر والتفكير، والعمل والسعي، والمشي في مناكب الأرض، وابتغاء فضل الله فيها؟

لا بد للخطاب الديني أن يعطي «البعد المادي» حقه، حتى ينهض المسلمون من تخلفهم، ويلحقوا بالعالم المتحضّر، ويمتلكوا زمام القوة اقتصاديًّا وعسكريًّا وعلميًّا، حتى يحافظوا على سيادتهم وهويتهم ورسالتهم، ويُرهبوا عدو الله وعدوهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. على أن يكون ذلك كله وسيلة لغاية أسمى وأعظم، وهي: أن يعرف الناس ربّهم ويعبدوه حقَّ عبادته، وأن يبذلوا جهودهم، لتكون كلمة الله هي العليا.





يعنى بالعبادات الشعائرية ولا يُغفل القيم الأخلاقية

الإسلام أكثر الأديان اهتمامًا بعبادة الله وحده:

ومن خصائص الخطاب الإسلامي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، والمحافظة على العبادات الشعائرية، التي بُني عليها الإسلام، وغدت تُعدُّ «أركانه العملية»، من الصلاة والصيام والحج والزكاة. يضاف إليها ما يقويها ويكملها من الذكر والدعاء، والاستغفار، وتلاوة القرآن. وهذه هي التي تغذي «الجانب الروحي» في حياة الإنسان، وتصله بربه أبدًا في كل مكان، وكل زمان، وكل حال، وتجعله رطب اللسان بذكره، عامر القلب بحبه، ممتلئ الجوانح من خشيته.

وقد وضع الإسلام هنا من الشعائر العملية: ما يجعل المسلم وثيق الصلة بالله في الخلوة والجلوة، في الحضر والسفر، في السلم والحرب، في الصحة والمرض، في الغنى والفقر. فقد فرض الإسلام عليه خمس صلوات في اليوم والليلة، تجعله على موعد مع الله باستمرار، كلما مضت فترة من اليوم ناداه المنادي: أن حي على الصلاة، فيدع دنياه، ويخرج من عمله، ليقف بين يدي مولاه دقائق، يعبر فيها عن امتثال أمره، وابتغاء مثوبته، وشكر نعمته.

وقد أسلم أحد اللوردات من الإنجليز في أوائل هذا القرن، فكان مما أعجبه واستلفت نظره في الإسلام: أنه يجعل الإنسان موصولاً بالله على الدوام، على حين لا يكاد المسيحي يتذكر ربه إلا عندما يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد.

بل يُرغَّب الإسلام المسلم في أن يذكر الله في كل مناسبة، عندما يأكل يقول: بسم الله. وعندما يشبع يقول: الحمد لله. وعندما ينام يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه. وعندما يستيقظ يقول: الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور. وعندما يركب دابته أو سيارته يقول: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿[الزخرف: ١٣، ١٤].

وعندما يسافر يقول: اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. حتى عندما يجامع زوجته، يقول: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا.

وهناك كتب ألفت في الأذكار والدعوات التي يقولها المسلم في سائر أحواله.

العبادة المقبولة هي التي تزكي النفس:

ولكن الذي يهمننا أن نؤكد هنا: أن الإسلام لا يعنيه من هذه العبادات المفروضة والمسنونة مجرد «الطقوس» والأداء الشكلي للعبادة، بل المهم هو الروح التي تسري في العبادة - وهي روح الإخلاص لله والخشية من الله - وهي التي تمنحها القبول من الله تعالى، كما قال وَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

إن العبادة المغشوشة، التي دخلها الرياء، وابتغاء المحمدة والشهرة عند الناس: مردودة عند الله، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجهه، وبهذا يكون المرء من المتقين، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

يريد الإسلام العبادة الخالصة النقية، وهي وحدها التي تزكي النفس، وترقى بالروح، وتحقق الثمرات الأخلاقية المنوطة بها، والمرجوة منها. فقد شرع الإسلام هذه العبادات لحكم وأسرار، منها: أن تؤتي أكلها في صلاح النفس، وزكاتها بمكارم الأخلاق.

فالصلاة لها ثمرتها الأخلاقية، التي عبر عنها القرآن بصراحة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣].

فدلّ على أن المداومة على الصلاة هي التي تقاوم «الهلع» في طبيعة الإنسان: الجزع عند الشر، والمنع والبخل عند الخير.

والزكاة لها ثمرتها، التي عبر عنها القرآن بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. فكما أن للزكاة أثرها على أخذها، في سدّ كفايته، أو قضاء غُرمه، أو تخفيف معاناته، كذلك لها أثرها في نفس معطيها حيث تطهّره من رجس الأنانية، ومن داء الشحّ، وتنمي روحياً ونفسياً بالبذل والعطاء الذي يحبه إلى الله، ويحبه إلى الناس.

والصيام له ثمرته، التي عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فالصيام المقبول هو الذي يجعل

الإنسان على رجاء التقوى لله تعالى. حيث يقول سبحانه في الحديث القدسي: «يَدْعُ طَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، وَيَدْعُ شَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي، وَيَدْعُ زَوْجَتَهُ مِنْ أَجْلِي»^(١).

والحج أيضا له ثمرته، كما قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ويتحدث عن الضحايا التي تهدي إلى الكعبة في الحج، بقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وهذه العبادات والشعائر الكبرى إذا لم تحقق ثمراتها الأخلاقية، دلّ ذلك على أن بها دخلاً وغشاً أفسد حقيقتها، وضيع ثمرتها. وفي هذا يقول الرسول الكريم ﷺ: «رَبِّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرَبِّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ»^(٢)، وقال: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(٣)، أي أنه أضرع فائدة صيامه والحكمة منه، حيث لم يتخلّ عن قول الزور والعمل به.

الأخلاق والفضائل من ثمرات الإيمان:

لقد اهتم الإسلام بالجانب الأخلاقي، وعدّه من ثمار الإيمان، بل من «شعب الإيمان». وجاء في الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وستون أو

(١) رواه ابن خزيمة في الصيام (١٨٩٧)، وقال الأعظمي: إسناده صحيح. عن أبي هريرة. وأصل

الحديث في الصحيحين: «الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي» متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٨٨٥٦)، وقال مخرّجوه: إسناده جيد. وابن ماجه (١٦٩٠)، والحاكم (٤٣١/١)، وصحّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في الصوم (١٩٠٣)، عن أبي هريرة.

بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله. وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»^(١).

وقد صنف الإمام البيهقي كتابًا كبيرًا سمّاه «الجامع في شعب الإيمان» في بضعة عشر مجلدًا، جعل فيه الفضائل الأخلاقية تحتلُّ حيزًا غير قليل من شعب الإيمان، ودلّ على ذلك بالقرآن والسنة.

وانظر إلى قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُصَلِّ رَحْمَهُ»^(٢)، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتَ»^(٣)، وقوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٤)، وقوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَن تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تُحَابُّوْا»^(٥)، وقوله: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَشْبَعُ وَجَارَهُ جَائِعٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ»^(٦).

وهذا المعنى - أن الأخلاق من شعب الإيمان - أكّده القرآن الكريم حين جعل الفضائل الأخلاقية من صفات المؤمنين والمتقين وعباد الرحمن والأبرار وأولى الألباب، الذين يستحقون مثوبة الله تعالى ورضوانه ودخول جناته، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي

(١) سبق تخريجه ص ٤٠.

(٢) رواه البخاري في الأدب (٦١٣٨)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٨)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

(٥) رواه مسلم في الإيمان (٥٤)، وأحمد (٩٠٨٤)، عن أبي هريرة.

(٦) رواه البزار (٧٤٢٩)، والطبراني (٢٥٩/١)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب

(٣٨٧٤)، والهيثمى في مجمع الزوائد (١٣٥٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع

(٥٥٠٥)، عن أنس.

صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * [المؤمنون: ١ - ٨]. فوصفهم - مع الخشوع في الصلاة وأداء
الزكاة - بالإعراض عن اللغو والباطل، والعفة عن الزنى، ورعاية الأمانات
والعهود. وكلها فضائل أخلاقية.

كما وصف أولى الألباب الذين رضي الله عنهم وجعل لهم عقبى
الدار بأنهم ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِٖ
أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
عُقُبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٠ - ٢٢].

وكذلك وصف القرآن «عباد الرحمن» بجملة صفات أخلاقية: ﴿الَّذِينَ
يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ... وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ
يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ... وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا
مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا...﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٢]. وكذلك وصف الأبرار في
سورة «الإنسان».

وإذا كانت الفضائل الأخلاقية من أوصاف المؤمنين الأساسية، فإن
أضدادها من الرذائل من صفات الكافرين، أو خصال المنافقين، كما قال
تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُبُونَ﴾
[الأنفال: ٥٥، ٥٦]. وفي الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب،

وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»^(١)، «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذ حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٢)، وفي بعض الروايات: «كان منافقاً خالصاً، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم».

شمول الأخلاق الإسلامية:

والأخلاق الإسلامية: أخلاق شاملة، تشمل:

١ - الأخلاق العملية: من الأمانة والموضوعية، والإذعان للحق، وإنصاف الغير، والاعتراف بالخطأ، والتحرر من التقليد والعصبية، والتماس الحكمة من أي وعاء خرجت، إلخ.

٢ - الأخلاق الفردية: من الحياء والتواضع، وعزة النفس، والقناعة، والرضا، ورعاية الوقت، والصبر على نوازل الدهر.

٣ - الأخلاق الأسرية: من المودة بين الزوجين ورعاية كل منهما لحق صاحبه، وحفظ الأسرار العائلية، والتعاون في السراء والضراء، وصبر كل من الزوجين على صاحبه، والعطف على الأولاد، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، وإيتاء ذي القربى (الأسرة الموسعة).

٤ - الأخلاق الاجتماعية: من العدل والإحسان، والرحمة بالإنسان والحيوان، والبذل والتضحية، والصدق والأمانة، والوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد، والتعاون على البر والتقوى، ورعاية النظام والنظافة، والرفق بالإنسان والبيئة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

٥ - الأخلاق السياسية: من النصيحة في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والطاعة في المعروف، وكلمة الحق عند السلطان الجائر، واستشارة أهل الحل والعقد، والنزول على رأيهم، والإشارة على ولي الأمر، بما يرى أنه الحق، والعدل في الرعية، والقسمة بالسوية، وأخذ المال من حله، وإنفاقه في حقه، وعدم إمساكه عن حقه، وصيانة حرمان الأفراد: من الدم والعرض والمال، ورعاية حقوق الإنسان، والتسامح مع المخالفين، والبر والقسط معهم، وإحياء روح الجهاد دفاعاً عن كرامة الأمة ومقدساتها.

٦ - الأخلاق الاقتصادية: من عمارة الأرض، وإحياء الموات، والتعبد لله بالزراعة والصناعة والتجارة، والصدق في التعامل، والبعد عن الغش والاحتكار والربا، واجتناب الإسراف والتقتير، والمحافظة على مال اليتيم والأموال العامة (الأوقاف وأموال الدولة)، وتحريم الترف ومظاهره، وتحريم الكنز.

وبهذا نرى الأخلاق الإسلامية تشمل الحياة كلها، فلا انفصال في الإسلام بين العلم والأخلاق، ولا بين الاقتصاد والأخلاق، ولا بين السياسة والأخلاق، ولا بين الحرب والأخلاق. بل كلها يجب أن تسير في إطار الضوابط الأخلاقية، ولا تحيد عنها.

عموم الأخلاق في الإسلام:

وإذا كانت الأخلاق في الإسلام شاملة، فهي كذلك عامة، لا تقتصر على المسلمين وحدهم، ولا على العرب وحدهم، بل هي تعم الناس جميعاً، المسلم وغير المسلم. فالعدل مطلوب ومفروض للمسلم وغير المسلم، والرحمة مطلوبة بالمسلم وغير المسلم، والوفاء مطلوب

بالمسلم وغير المسلم، وكلُّ الفضائل يجب أن تكون مع الناس جميعاً، ومثلها الرذائل لا تتجزأ، فالكذب حرام مع الجميع، والخيانة محرمة مع الجميع، والغدر محرم مع الجميع.

بل إن بعض الفضائل لتشمل الكائنات كلها، مثل «الإحسان»، فالمطلوب: الإحسان بالإنسان، والإحسان بالحيوان، والإحسان بالنبات، والإحسان بالأرض والماء والهواء وغيرها من مقومات البيئة، وبهذا سبق الإسلام دعاة حماية البيئة^(١)، وأحزاب الخضر بقرون، منذ قرّر القرآن: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٢)، وقال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(٣).

ولا يقبل الإسلام الفلسفة القائلة: الغاية تبرر الوسيلة. بل لا بد من شرف الغاية، وطهر الوسيلة معاً. ولا يجوز الإسلام للمسلم أن يقبل الرشوة، أو يأكل الربا، أو يغش في تجارته، ثم يبني مما كسب مسجداً، أو يقيم مشروعاً خيرياً، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب.

والمثل الأخلاقي الأعلى لدى المسلمين هو: رسولهم محمد ﷺ، الذي أدبه الله فأحسن تأديبه، وعلمه فأتّم تعليمه، وآتاه الكتاب والحكمة، وعصمه من الآثام والرذائل، ونصبه أسوة حسنة للناس، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وكذا أثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. ووصفته عائشة فقالت: «كان خلقه القرآن»^(٤). أي أن الأخلاق التي جاء بها القرآن تتجسد فيه ﷺ.

(١) انظر كتابنا: رعاية البيئة في شريعة الإسلام، نشر دار الشروق، القاهرة.

(٢) سبق تخريجه ص ١١٠.

(٣) سبق تخريجه ص ١٠٨.

(٤) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٢٦٩)، عن عائشة.

موقف خطابنا الديني:

من هنا كان واجبا على خطابنا الديني المعاصر: أن يركّز على الجانب الأخلاقي، الذي أصابه الخلل - وربما العطب - في حياة المسلمين.

ينبغي أن يعلم الناس: أن الأخلاق فريضة دينية، وضرورة عملية، فلا يستطيع الفرد أن ينجح أو يسعد أو يحقق هدفا بغير أخلاق وفضائل تمّده بالقوة، وتحميه من الانهيار. لا بد له من الصبر وقوة الإرادة والعفة والشجاعة والصدق والأمانة والتضحية وغيرها من الفضائل، لتسند في سيرته، حتى يحقق أحلامه. وقد قال شوقي:

صلاحُ أمرِك للأخلاق مرجعُه فقوّم النفس بالأخلاق تستقيم
والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرّها في مرتعٍ وخم^(١)

ولا تستطيع أمة من الأمم أن تحافظ على كيائها، وتحمي هويتها، وتؤدي رسالتها، إلا بالأخلاق، فهي سياج الأمم، فإذا انكسر السياج تعرضت الأمة للخطر.

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً^(٢)!

القوانين وحدها لا تحمي الأمم من الانحراف والضياع. ولكن لا بد لها من ضمائر حية تحرس القوانين.

إن الذي يصلي ويصوم ويحج ويعتمر، ولكنه - مع هذا - لا يملك أخلاقاً فاضلة: لا تنفعه عباداته، ولا صلاته وصيامه، انظر إلى قوله

(١) في نهج البردة، انظر: الشوقيات ص ٥٠٨، تعليق يحيى الشامي، نشر دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٦.



تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتيمَ * وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ١ - ٧].

بيّنت هذه السورة: أن القسوة على اليتيم، وإهمال أمر المسكين، ليس من شأن الإنسان المؤمن، بل هو شأن المكذب بالدين. وأنذرت بالويل ذلك النوع من المصلين، الذين لا يحافظون على صلاتهم، بل يتشاغلون عنها حتى يضيع وقتها، وهم أهل الرياء الذين يبخلون على جيرانهم، بالمساعدة في أهون الأشياء التي يحتاج إليها الجيران بعضهم من بعض، ولهذا يمنعون الماعون.

الخطاب الديني الموفق. هو الذي يحرص على الدعوة إلى إقامة الشعائر التعبدية، وهي حق الله علينا، الذي لا يجوز التفريط فيه، ولكن يجب عليه أن يدعو ويؤكد الدعوة إلى مكارم الأخلاق، التي هي الدليل على صدق الإيمان، وعلى قبول العبادة عند الله.

* * *





يدعو إلى الاعتزاز بالعقيدة، وإلى إشاعة التسامح والحب

ومن خصائص خطابنا الإسلامي المنشود: أنه يغرس في نفس المسلم الاعتزاز بعقيدته، والمغلاة بها، والإعلان عنها في عزة وفخر، بوصفها عقيدة التوحيد الصافية من كل شوب، وبوصفها العقيدة الشاملة والعقيدة الخاتمة. وحيث إن الله تعالى حفظ مصادرها من الضياع والنسيان، ومن التحريف والتبديل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والقرآن يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]. وقوله: ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قول من يعتز بانتسابه إلى ملة الإسلام، وبانتمائه إلى خير أمة أخرجت للناس، فهي تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله.

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وإنه، لذكر لك ولِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣: ٤٤]. وهذا ما ظهر في سيرته ﷺ، فقد ساومه المشركون، على أن يعطوه ما شاء من المال والجاه، ومن الشرف والملك، فجعل ذلك كله دبر أذنيه، وتحت قدميه، ولم يرد عليهم إلا بتلاوة القرآن الذي كان كافيا أن يؤسهم من كل هذه المحاولات.

ولما وسطت قریش عمه أبا طالب أن يقنع ابن أخيه بالعدول عما دعاهم إليه فعرض عليه أن يخفف من موقفه، وأن يلين مع قومه، وأن يقبل أنصاف الحلول، إشفاقاً على ابن أخيه، وخوفاً عليه من أذاهم، وأن يمسوه بسوء، فما كان منه عليه السلام إلا أن قال له: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه»^(١).

وهذا ما رأيناه عند الصحابة، فقد كانوا يعتزُّون بإسلامهم ويغالون به إلى أقصى حدٍّ، فيقول عمر بن الخطاب: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فَمَنْ طلب العزة بغيره أذله الله^(٢).

ويقول ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس، وقد سأله: مَنْ أنتم؟! فقال بكلِّ اعتزاز: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتِها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(٣). فلخص له أهداف الإسلام الكبرى في هذه الكلمات الموجزة.

وكان الصحابي من هؤلاء بعد أن هداه الله للإسلام، يفتخر بانتمائه إليه، لا بالانتماء إلى ربيعة أو مضر، أو قيس أو تميم، فيقول شاعرهم:

(١) رواه الطبري في تاريخه (٣٢٦/٢)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٠٩)، وقال: وقد وجدت للحديث طريقاً أخرى بسند حسن لكن بلفظ: «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تستشعلوا لي منها شعلة يعني الشمس». وقد خرجته في الأحاديث الصحيحة رقم (٩٢). عن يعقوب بن عتبة بن الأَخَس.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨٥)، والحاكم في الإيمان (٦١/١)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الطبري في تاريخه (٤٠١/٢)، نشر دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم^(١)!
وكان أحد علماء المسلمين يتغنّى بقوله مناجيا ربّه:

ومما زادني شرفاً وعزاً وكدتُ بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك: يا عبادي وأن أرسلتَ أحمدَ لي نبياً^(٢)

لا يساوم المسلم على دينه، ولا يتهاون فيه بحال، ولا يبيعه بملك
المشرق والمغرب، ولا يفرط فيه، وإن نزلت به المحن، ومستته البأساء
والضراء، وأحاط به الكرب من كل جانب، موقنا بأن هذه سنة الله في
أصحاب الدعوات الربانية، وحملة الرسالات الإلهية، يريهم الله
بالامتحانات، ويزكيهم بالابتلاءات، حتى يخرجوا منها، كالذهب
الخالص بعد أن يخرج من النار، فهم يقولون: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا
كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، أو
ما وصف الله به المؤمنين في غزوة الأحزاب، وقد ابتلي المؤمنون
وزلزلوا زلزالاً شديداً: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

الدعوة إلى التسامح مع المخالفين:

هذا الاعتزاز بالعقيدة الإسلامية، والاستمسك بعروتها الوثقى:
لا يعني التعصب ضد الآخرين، أو الإنكار لوجودهم، أو التنكّر
لحقوقهم، أو إضمار البغض والعداء لهم، بل يغرس الإسلام في نفس

(١) من شعر نهار بن توسعة الشكري. الكامل في الأدب (١٣٣/٣).

(٢) البيتان للقاضي عياض، كما في حلية البشر لعبد الرزاق البيطار ص ٢٣٥، نشر دار صادر،
بيروت، ط ٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

المسلم - مع هذا الاعتزاز - التسامح مع المخالفين، وأكثر من ذلك أنه يدعو إلى حبّ الناس جميعًا.

بل إننا نجد في القرآن الكريم سورة اشتملت على غاية الاعتزاز، وغاية التسامح معًا، في سياق واحد، وهي سورة «الكافرون». فقد نزلت لسبب معروف، وهو المساومات الشريكية من قريش للنبي ﷺ، ليعبد آلهتهم مدة من الزمن، ويعبدوا إلهه مدة من الزمن، ليحرب كل واحد من الطرفين إله الآخر، وبعد ذلك يقرر ما يراه. فنزلت السورة بموقف صارم يرفض هذه المساومات، ويقطع هذه المفاوضات، ويحسم الأمر بما لا يدع مجالاً لتردد أو شك، أو تساهل في قضية القضايا، وهي التوحيد. فرفضت السورة قبول عبادة غير الله بصورة جازمة، في الحاضر وفي المستقبل، وعلى أي وضع أو حال. فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون]. فالسورة كلها تجسّد غاية التمسك والاعتزاز. وآخر آية منها تمثل التسامح الكريم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. لكلّ دينه الذي يتدين به، ويُسأل عنه أمام الله والناس، ويتحمّل مسؤوليته في الدنيا والآخرة.

الأساس العقائدي والفكري للتسامح الإسلامي:

والأساس الفكري والعقدي لتسامح المسلمين مع مخالفينهم، يتمثل في عدّة عناصر أساسية، تُكوّن الفلسفة المتسامحة مع الآخرين:

الأول: أن المسلم يعتقد من قراءته لكتاب الله: أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، التي لا تنفصل عن حكمته، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ

﴿يُونُس: ٩٩﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هُود: ١١٨، ١١٩]، وغير ذلك من الآيات.

والمسلم يسلم لمشیئة الله تعالى، لأنه لن يستطيع معارضتها، فهي نافذة لا محالة، ثم إنه لن ينظم الكون أفضل مما نظمه خالقه **وَعَلَّك**.

والثاني: أن حساب الناس على كفرهم إذا كفروا، وعلى ضلالهم إذا ضلوا، ليس في هذه الدنيا، وإنما هو في يوم الفصل، أو يوم الحساب، الذي توفي فيه كل نفس ما كسبت، وتُجزى بما عملت، من خير أو شر. والذي يحاسب الناس في هذا اليوم، أو تلك الدار: إنما هو خالقهم الذي يعلم سرهم ونجواهم، وما تخفي صدورهم، ويعلم المعذور منهم من غير المعذور، ويعلم من كفر منهم عجزاً وجهلاً، ومن كفر عناداً واستكباراً من بعد ما تبين له الحق.

وهذا ما يقرره القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ * ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨، ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، كما أمر الله رسوله أن يقول لمخالفيه: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

العنصر الثالث: أن المسلم مأمور من ربه أن يعدل مع الناس جميعاً، ولا يجوز أن يحملة شنان قوم - أي شدة بغضهم له أو بغضه لهم - أن يحيد عن منهج العدل، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وقد ذكرت كتب التفسير: أن الله تعالى أنزل تسع آيات في سورة النساء تدافع عن يهودي اتهم ظلماً بسرقة هو بريء منها، وكان الجاني الحقيقي أحد المسلمين، الذي اجتهد أهله وذووه أن يدفعوا الرسول ليخاصم عنه وعنهم، فنزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ * وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * [النساء: ١٠٥ - ١٠٧].

الرابع: أن الإسلام يكرم الإنسان لمحض إنسانيته وأدميته قبل كل شيء، سواء كان مسلماً أم غير مسلم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد روى البخاري في صحيحه، أن النبي ﷺ، مروا عليه بجنزة فقام لها واقفا فقالوا له: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! فقال: «أليست نفساً؟»^(١). فما أروع موقفه ﷺ، وما أروع تعليله! فقد أعلمهم أن النفس الإنسانية - من حيث هي نفس - تستحق الاحترام والتكريم.

ولقد رأيناه ﷺ ينهى عن التمثيل بجثث المشركين في الحرب، كما روى مسلم في «صحيحه»، من حديث بريدة: «ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا

(١) سبق تخريجه ص ٧٤.

تمثلوا»^(١). على رغم أنهم مشركون، وأنهم معادون مقاتلون، فهو لا يجيز الانتقام منهم بتشويه جثثهم بعد موتهم، فلا يجوز أن يعاقب الإنسان بعد موته.

دستور العلاقة مع غير المسلمين:

ولقد ذكرت سورة الممتحنة آيتين تعدّان بمثابة دستور للعلاقة مع غير المسلمين، وذلك بحسب موقفهم من المسلمين، مسالمة أو محاربة، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

ومن المعروف أن هاتين الآيتين من سورة الممتحنة إنما نزلتا أساسا في شأن المشركين الوثنيين. أما أهل الكتاب فينظر إليهم الإسلام نظرة خاصة، باعتبارهم أهل دين سماوي في الأصل، يشاركون المسلمين في الإيمان بالالوهية، والإيمان بالنبوة، والإيمان بالآخرة، وفي عبادة الله تعالى، وفي الإيمان بقدسية القيم الأخلاقية. ولهذا يخصهم بهذا النداء الموحى بالإيناس والتقريب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾. كما يثني على كتبهم ورسولهم.

وأكثر من ذلك: أنه أجاز مصاهرتهم، فأباح للمسلم أن يتزوج كتابية، فتصبح شريكة حياته، وأم أولاده، ويصبح أهلها أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وتصبح لهم حقوق ذوي القربى. وهذه قمة في التسامح لم يسمح بها كثير من الأديان مع مخالفيهم.

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأحمد (٢٣٠٣٠)، عن بريدة.

الدعوة إلى الحب:

ومما ينبغي أن يتبنّاه الخطاب الإسلامي في عصر العولمة: الدعوة إلى إشاعة الحب بين الناس، وتحرير الناس من دعاوى الكراهية والحقد والحسد والبغضاء، وهي التي سمّاها الرسول «داء الأمم»^(١). وهو داء يفتك بالعلاقات الإنسانية، أكثر مما تفتك الأمراض والأوبئة القتالة بالأجسام.

إن حقيقة الدين: دعوة إلى الحب في كل مجال، وعلى كل صعيد:

أول الحب وأعمقه وأعظمه هو: حب الله تعالى. مصدر كلّ النعم، وواهب كلّ الخير: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ومن حقّ الإنسان - بل من واجبه - أن يحب من أحسن إليه، فالإنسان أسير الإحسان. فكيف بمن غمره فضله وإحسانه من قرنه إلى قدمه، حتى من قبل أن يولد، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة؟

ثم هو يحب الله تعالى، لأنه مصدر كل جمال وكمال، فكل ما نراه في الكون من إبداع وحسن وإتقان، فهو من الله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. ولذا جاء في الحديث الصحيح: «إن الله جميل يحب الجمال»^(٢).

(١) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة

(٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب

والترهيب (٦١/٣): حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

(٢) سبق تخريجه ص ١١٠.

وهو كما يحب الله تعالى، يحبُّ الطبيعة التي خلقها الله تعالى، وسخرها لخدمة الإنسان، ومنفعة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠].

فإذا كان الغربي ينظر إلى الطبيعة وكأنها عدو يحاربه، ويريد أن ينتصر عليه، ولذلك يعبرون عن الانتصارات العلمية بـ «قهر الطبيعة»، فالمسلم يشعر بالود للطبيعة الحنون المسخرة له من ربه.

وأظهر دليل على ذلك، هذا الحديث النبوي المعبر، الذي قال فيه النبي ﷺ عن جبل أحد، حينما لاح له، وهو قادم من سفر: «هذا أحد، جبل يحبنا ونحبه»^(١). ولم يكتف بحبه للجبل، حتى أعلن أن الجبل نفسه يحبهم، كأن له قلبا يخفق بالمشاعر.

وأهم من ذلك: حب الناس، كل الناس، حب الخير للناس، حب الهداية للناس، حب السعادة للناس، حب السلامة للناس، حب الرخاء والعافية للناس.

فهو يحب المسلمين، لأنهم إخوانه في العقيدة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٢). وهو يحب غير المسلمين ما داموا مسالمين له، ويتمنى لهم كل خير، ويدعو الله ليهديهم إلى سعادة الآخرة والأولى. وقد طلب من النبي ﷺ: أن يدعو على قومه وقد آذوه، فأبى ذلك، وقال: «إني لأرجو

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٩)، ومسلم في الحج (١٣٦٥)، عن أنس.

(٢) سبق تخريجه ص ١١٩.

أن يخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا شريك له»^(١)، «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»^(٢).

وما في الإنسان من نزعة فطرية للكرهية والعداوة، فإن الإسلام يوجهها إلى كراهة الشر والفساد، وعداوة من يمثل الشر ويجسده ويتزعم الدعوة إليه، وهو الشيطان اللعين^(٣)، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والإسلام لم ينتشر في العالم بالسيف كما قال مَنْ قال، بل انتشر بحبّ المسلمين للناس، وحب الناس لهم، أحبّوهم فأحبّوا الإسلام بحبهم، فدخلوا في دين الله أفواجا.

والذين يتوهمون أن المسلم يجب أن يبغض كل كافر: مخطئون؛ لأن الإسلام إنما حرم موادّة ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. أي حارب الله ورسوله وعاداهما، أما الكافر فلا مانع من موادّته إذا كان قريبا أو جارا أو زميلا أو صاحبا غير معادٍ للمسلمين ولا محاربٍ للإسلام. وحسبك أن الإسلام أجاز أن تكون زوجة المسلم وشريكة حياته كتابية غير مسلمة. وأساس الحياة الزوجية: المودة والرحمة، كما صورها القرآن. وهل يتصور ألا يود المرء زوجته، أو الولد أمه؟ أو الحفيد جده وجدته؟! وابن الأخت خاله أو خالته؟ وأين صلة الأرحام إذن وحق ذوي القربى؟

- (١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد (١٧٩٥)، عن عائشة.
- (٢) رواه البيهقي في الشعب (١٣٧٥)، عن عبد الله بن عبيد مرسلاً، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٣٦). وهو عند الشيخين بلفظ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢)، عن ابن مسعود.
- (٣) لمزيد من التفصيل راجع كتابنا: الإيمان والحياة ص ١٥٤ - ١٦٩، فصل: الإيمان والحب، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٨، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.



وقال الإمام الشهيد حسن البنا: سنغزو الناس بالحبّ لا بالسيف!

موقف خطابنا الديني:

مهمة الخطاب الديني اليوم: أن يحرص على ترسيخ هذه النزعة الوسطية، وأن يرعى التوازن المنشود بين الدعوة إلى الاعتزاز بالعقيدة والرسالة من جانب، والدعوة إلى التسامح والحب من جانب آخر، وليحذر الخطاب الديني أن ينساق مع المغلّقين من دعاة التعصب، أو دعاة الكراهية، الذين يريدون أن يعادوا البشرية كلها، حتى من يخالفهم من المسلمين في رأيهم، يضمرون له العداوة والبغضاء، ويتقربون إلى الله بذلك.

ليس معنى هذا: أن نفرط في عقيدتنا أو نساوم عليها، بل نفديها بأرواحنا وأموالنا، ولا نضنّ عليها بكل ما نملك. ومع هذا - من أجل هذه العقيدة وبوحياها - نرحب بالتسامح مع مخالفنا، والحوار معهم، وأن نضع يدنا في أيديهم، غايتنا الخير المشترك للجميع. وإنما لكل امرئ ما نوى.

* * *





يغري بالمثال ولا يتجاهل الواقع

ومن خصائص الخطاب الإسلامي: أنه يغري بالمثل العليا التي ينشدها الإسلام للإنسان، ولكنه لا يتجاهل الواقع الذي يعيشه الناس في حياتهم، ويضطرون للتعامل معه في مصيبتهم وممساهم.

فالإسلام ينشد الإنسان الفرد المسلم المثالي، والأسرة المسلمة المثالية، والمجتمع المسلم المثالي، والأمة المسلمة المثالية، والدولة المسلمة المثالية، والعالم الإنساني المثالي. ولكنه - مع هذه الدعوة إلى المثالية - لا ينسى الواقع الذي يحياه الناس ويهبطون إليه أفراداً وأسرًا وجماعات وأمماً ودولاً. فهو يعالج هذا الواقع نظرياً، ويعالجه عملياً، يعترف به ولكنه يحاول أن يرقى بالإنسان، ليعلو عليه بإيمانه وأخلاقه ومثله وأهدافه الكبرى في الحياة.

ينشد الإسلام الفرد المثالي: الذي يجتنب المحرمات، ويؤدي الواجبات، ويرغب في التطوعات. الإنسان الحي الضمير، المرهف الشعور، المتوازن العاطفة، القوي الإرادة، المستنير العقل، المستقيم الخلق، السليم الجسم، الصالح في نفسه، المصلح لغيره، الغيور على دينه، النافع لمجتمعه، المدافع عن وطنه، الذائد عن أمته، العابد لربه، المحسن إلى خلقه، العامر لأرضه، القائم بخلافته، الحامل لدعوته. إنه

الإنسان المثالي الذي تحدّث عنه آيات القرآن الكريم، ووصفته لنا فأحسن الوصف، حينما تحدّث عن المؤمنين، والمتقين، والمحسنين، والأبرار، وأولي الألباب، وعباد الرحمن.

ويكفي أن تقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقوله تعالى في وصف عباد الرحمن في أواخر سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا...﴾ [الآيات: ٦٣، ٦٤].

وقوله في سورة الذاريات في وصف المتقين المحسنين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [١٧ - ١٩].

وفي سورة الإنسان يصف الأبرار بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ [٧ - ١٠].

كما نقرأ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربّه ﷻ: «ما تقرب إليّ عبدي بأفضل مما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...»^(١).

ومع هذا رأينا الإنسان كثيرًا ما ينزل عن هذه الدرجات العُلا، ويسقط في أحوال الخطيئة، فيعصي ربّه سبحانه، فيترك المأمور، ويفعل المحذور، ذلك أن الإنسان ليس مخلوقًا مطهّرًا كالملائكة، ولا معصومًا

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

كالأنبياء، ولكنه مخلوق مزدوج الطبيعة: فيه قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله. فأحيانا تنتصر الروح، فتستجيب لباعث الدين، وأحيانا ينتصر الطين، فيستجيب لباعث الهوى.

واعترافا بطبيعة الإنسان وضعفه، واستعداده للعلو والهبوط، وللتزكية والتدسية، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]. فالنفس البشرية مستعدة للفجور استعدادها للتقوى، بل ربما كان استعدادها للفجور أقوى، ولهذا قُدِّم في الآية. والمدار هنا على جهد الإنسان، فإما أن يزكي نفسه ويجاهدها فيكسب الفلاح والفوز، وإما أن يدسها ويدعها لشهواتها، فلا يجني غير الخسار والخيبة.

ومن أجل ذلك قسّم القرآن أصناف الناس في الأمة التي اصطفاه الله من عباده، والتي أورها الكتاب، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فهؤلاء هم أصناف الأمة التي وصفها الله بما وصفها به:

١ - الظالم لنفسه، وهو الذي يقصّر في أداء الواجبات، ويرتكب بعض المحرمات.

٢ - المقتصد، وهو الذي يؤدّي الواجبات، ولا يقترب المحرمات، ولا يزيد على ذلك.

٣ - السابق بالخيرات، وهو الذي يزيد على فعل الواجبات، بفعل المستحبات، ويزيد على ترك المحرمات، بترك الشبهات والمكروهات. وقد يرتقي فيدع ما لا بأس به، حذرا مما به بأس.

وهكذا رأينا «الظالم لنفسه» جزءاً من الأمة، وعضواً من أعضائها، فهي ليست أمة من الملائكة، بل هي أمة من البشر الذي شأنه أن يطيع ويعصي، ويصيب ويخطئ.

ولا عجب في أن يخطئ ابن آدم ويعصي، فقد أخطأ أبوه آدم من قبل، فقد أسكنه الله وزوجه الجنة، وأمرهما أن يأكلا من ثمارها رغداً حيث شاءا، إلا شجرة واحدة نهاهما عن الأكل منها، فما زال الشيطان يُدليهما بغرور، ويزين لهما الأكل منها، حتى وقعا في المحذور: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

ولكن الله لم يدع آدم سجين عثرته، ورهين معصيته، فقد آتاه سبباً يمكنه به أن يغتسل من ذنبه، وأن يتطهر من آثاره، وهو «التوبة»: ﴿ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَقَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وهكذا أورث الله بني آدم هذين الأمرين: الوقوع في الخطيئة، وغسلها بالتوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

بل شرع الإسلام للإنسان «أنهاراً» يغتسل فيها من درن المعصية، مثل الحسنات التي تذهب السيئات: من الوضوء، والصلاة، والصدقة، والصيام، والحج والعمرة، والذكر والدعاء. وحسبنا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]. وقوله ﷺ: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٩١٩٧)، عن أبي هريرة.

كما شرع التوبة والاستغفار، فالتوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وفي الحديث: «كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ، وخير الخطّائين التوابون»^(١).

وينشد الإسلام الأسرة المسلمة التي تؤسس على السكون والمودة والرحمة، وتقوم على المعاشرة بالمعروف، وعلى قيام كلٍّ من الزوجين بواجبه، وتمتعه بحقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

كما تقوم الأسرة على مسؤولية الوالدين عن رعاية أولادهم وحسن تربيتهم، وعلى برّ الأولاد لوالديهم، وحبّهم لإخوانهم وأخواتهم، وتعاونهم وتناصرهم فيما بينهم بالمعروف، وصلة الأرحام، وإيتاء ذي القربى. إن الأسرة في الإسلام هي الأسرة الممتدة الموسّعة، التي تشمل الآباء والأجداد، والأمهات والجَدات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وذرياتهم.

ومع هذا يعلم الإسلام أن من الأزواج من لا يوفّق مع زوجته، فلم يشأ أن يفرض عليهما الحياة تحت سقف واحد، وكلاهما يبغض صاحبه، ولا يطيق عشرته، ولهذا شرع الطلاق عند تعدُّر الوفاق، وإن كان لا يحبّذه إلا في أضيق نطاق: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(٢). وقرّر

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٩)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، وحسنه الألباني في المشكاة (٢٣٤١)، عن أنس.

(٢) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، كلاهما في الطلاق، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٢٠٤٠)، عن ابن عمر. انظر كلامنا عنه في كتابنا: فتاوى معاصرة (١١٤/١)، نشر دار القلم، القاهرة، ط ٩، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

للزوجة حق «الخلع» من زوجها إذا لم تُطّق هي عشرته، فتفدي نفسها منه، بدفعها له ما بُذل لها من مهر: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

كما قد يتزوَّج الرجل امرأة لا تنجب وهو تَوَّاق إلى الأولاد، فلم يمنعه الإسلام أن يُبقى عليها وفاء لعشرتها معه، ويتزوج أخرى رجاء أن ينجب منها.

وقد تمرض امرأته ويطول عليها المرض، وهو لا يريد طلاقها، ويريد أن يتزوَّج أخرى في الحلال، توفّر له ما عجزت عنه زوجته المريضة.

وقد يكون الرجل قوي الشهوة، وزوجته تطول عندها مدة الحيض، ولا يريد أن يرتكب الحرام، أو يفكر فيه، فيتزوَّج أخرى تلبّي له حاجته.

ومن هنا نرى تشريع الإسلام لتعدد الزوجات من دلائل واقعيتها. والغربيون يمارسون التعدد بالعشرات في حياة أحدهم، ولكن بلا التزام أخلاقي ولا قانوني، كما هو شأن الإسلام. ومع هذا يشنّعون على الإسلام!

والإسلام يريد مجتمعًا مثاليًا خاليًا من الجرائم، ولكن جرت سنة الله في خلقه أن يظلم الناس بعضهم بعضًا، وأن يجور بعضهم على بعض، لهذا شرع الإسلام القصاص والحدود، ليردع الناس عن الانتكاس في الجرائم والاستمرار فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال ﷺ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

ويوم كانت البشرية أسرة واحدة، رأينا الأخ الشرير يعتدي على أخيه الطيب الخير بغير ذنب جناه، إلا أن الله تقبل قربان هذا، ولم يتقبل

قربان ذلك: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

هذا وقع قبل أن يتكوّن «المجتمع» الذي يؤثر في أفكار الأفراد وسلوكهم، وإنما هي نزعات النفس البشرية، التي كثيراً ما يغلب عليها الظلم والجهل، ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وفي العلاقة بين الأمة بعضها ببعض، وبين الحكام والمحكومين، كثيراً ما نجد الشريعة الإسلامية، تنزل بالإنسان من «المثل الأعلى» إلى «الواقع الأدنى»، نزولاً على حكم الأمر الواقع المبين.

فالإسلام يريد في رجال إدارته «القوي الأمين»، كما جاء في قوله تعالى على لسان ابنة الشيخ الكبير في قصة موسى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أُسْتَجَرَّتْ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وكما جاء على لسان يوسف عليه السلام إذا قال لملك مصر: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. فالعلم يجسد القوة، والحفظ يجسد الأمانة.

ومع هذا قال الفقهاء: إذا لم يوجد القوي الأمين، أخذ أفضل الموجود، وإن لم يكن قوياً ولا أميناً، وإن كان الواجب - كما قال ابن تيمية - العمل على إصلاح الأحوال، حتى يوجد القوي الأمين^(١).

وقال العلماء يجب أن يكون إمام المسلمين «ولي أمرهم» وقاضي المسلمين: عالماً بلغ مرتبة الاجتهاد في استنباط الأحكام. ولما كان هذا أمراً قد أصبح مفقوداً أو شبه مفقود في الأزمنة الأخيرة، قالوا: يؤخذ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٥٤/٢٨، ٢٥٥)، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة،

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

أفضل الموجود، وإن لم يكن مجتهدًا حتى لا تتعطل الأحكام، ولا تبقى الأمة بلا إمام ولا قضاة.

ويتمنى الإسلام عالمًا يسوده السلام والأمان، ويعيش الناس فيه في ظلّ التعارف والوئام، ولكن ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه. فقد بدأ الإسلام دعوته مسالماً، داعياً الناس إلى توحيد الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فوقف عبّاد الأوثان يصدّون عن سبيله، ويفتنون من دخل في الدين بألوان الأذى والعذاب، حتى سقط منهم شهداء تحت نير العذاب، وحتى حوصروا وقوطعوا مقاطعة اجتماعية واقتصادية، حتى أكلوا أوراق الشجر من الجوع.

واضطر الإسلام في النهاية إلى أن يشهر السيف دفاعاً عن نفسه، في وجه السيوف التي رفعت من أول يوم تريد أن تقطع عنقه، وتجهز عليه، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِإِنِّهِمْ ظَلُمُوا وَإِنَّا لَنُصَرِّهُمُ لَقْدِيرٌ﴾ [الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْبِيَاءُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا] [الحج: ٣٩، ٤٠].

والقرآن يشير بهذه الجملة الأخيرة إلى تقرير سنة من سنن الله تعالى في المجتمعات، وهي: «سنة التدافع»، التي يهيئ الله فيها أناساً من خلقه يدفعون عن أناس آخرين، لا حول لهم ولا قوة، دون أن يוכלوهم في الدفاع عنهم.

ومن واقعية الإسلام: أنه اعترف بالضرورات التي تنزل بالإنسان، فأباح بها المحظورات، وقرّرت ذلك أربع آيات في كتاب الله، بعد ذكر الأطعمة المحرمة، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ

الْخِزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة: ١٧٣﴾.

وبهذا قرر الاستثناء من الأحكام العامة، نزولاً على حكم الضرورات، أو الحاجات التي تنزل منزلة الضرورات.

موقف الخطاب الديني:

إن الخطاب الديني الموفق هو الذي يراعي واقع الناس الذي يضغط عليهم، وضعفهم أمام هذا الواقع، ويراعي ضرورات الناس التي تباح بها المحظورات، وحاجاتهم التي كثيراً ما تنزل منزلة الضرورات، ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة مقربون، بل يعاملهم بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، تدفعهم الغرائز، وتغريهم الشهوات، ويوسوس لهم الشيطان، فيعثرون ويسقطون، ومع هذا لا ينبغي أن يقنطوا من رحمة الله.

كما لا يليق بالخطاب الديني أن يخضع للواقع المنحرف، ويحاول أن يسوّغه بمستندات شرعية مزوّرة أو محرّفة، بل يجب أن يعمل دائماً على معالجة هذا الواقع بما يناسبه من دواء، حتى تتجاوزه الأمة، وتعلو عليه.

يجب على الخطاب الديني أن يحافظ على التوازن، فيعترف بالواقع على ما به، ولكن على الأمة دائماً أن تتطّلع إلى المثل الأعلى، وتجتهد أن ترقى إليه، ولو بالتدرّج. ومن سار على الدرب وصل.





يدعو إلى الجد والاستقامة ولا ينسى الله والترويح

ومن خصائص الخطاب الإسلامي المنشود في عصر العولمة: أنه يدعو إلى الجد والطهارة والاستقامة في الحياة، وفي الوقت نفسه لا ينسى الله والترويح عن النفس.

أما الجد والطهارة والاستقامة على الطريق القويم، وتربية الأمة عامة، وشبابها خاصة، على حياة العفة والفضيلة والإحسان، وتحري الحلال، والبعد عن الحرام، وتجنب حياة الترف والميوعة - ناهيك بحياة التحلل والتسيب - فهذا هو النهج الذي جاء به الإسلام، لتكوين الإنسان الصالح، والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح.

إن «الطهارة» ليست مجرد شرط من شروط صحة الصلاة للإنسان المسلم، ولكنها شعار لحياته كلها: الطهارة في المأكل، والطهارة في الملبس، والطهارة في المسكن، والطهارة في القول، والطهارة في السلوك، والطهارة في المال، والطهارة في شؤون الدنيا والدين، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

والاستقامة على الطريق هي المعبر العلمي عن الإيمان، ولهذا حين

سأل أحد الصحابة النبي ﷺ: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك: قال له: «قُل: آمنت بالله. ثم استقم»^(١).

وقد اقتبس النبي الكريم هذا الجواب من القرآن، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

ومقتضى هذه الاستقامة: أن يلتزم المسلم ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، الذي يدعو الله كل يوم أن يهديه إليه في صلواته الخمس: سبع عشرة مرة، فضلاً عن صلوات السنن والنوافل.

وهذا الصراط أو الطريق أو المنهج، قد رسمه القرآن ووضع أسسه وقواعده، وبَيَّنَّته السنة وفصلته، فلم يعد لأحدٍ حجة أن يدَّعي أنه يجهله، فقد تركنا رسولنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فالحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وما كان بينهما من مشبهات يمكن أن يُسأل عنها أهل العلم ليبينوها، وما بقي مشتبهاً على صاحبه، فالورع ترك، «وَمَنْ اتَّقَى الشَّبَهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّبَهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ»^(٢).

(١) رواه مسلم في الإيمان (٣٨)، وأحمد (١٥٤١٦)، عن سفيان بن عبد الله الثقفي. وهو من أحاديث الأربعين النووية.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

والمسلم الحق هو الذي يملك إرادة قوية، يقاوم بها الشهوات، ويستعلي بها على نداء الغرائز، وبمقدار انتصاره على هواه، تثبت حقيقة إيمانه، وبالتالي حقيقة إنسانيته.

إن الإيمان هو الذي يقوي إرادة المؤمن أمام وساوس الشيطان، ودواعي الهوى، فيجعله يرفض الحرام، وهو متاح له، لا يحول دونه حائل إلا خشية الله.

فقد تتاح للمرء صفقات يكسب فيها الملايين من المال الحرام، من التجارة في أغذية فاسدة، أو انتهى أمد صلاحيتها، أو أصابها التلوث أو الإشعاع، أو من خلال الغش في البنيان، أو من خلال توريد أصناف أقل من المستوى، أو من خلال التعامل مع الأعداء، أو من خلال الرشا التي تدفع بالملايين باسم العمولات أو الهدايا. ولكن المؤمن يرفض هذا كله، لأنه حرام، وهو لا يقبل أن يدخل جيبه أو خزائنه درهم من حرام، أو يدخل في بطنه - أو بطن أحد ممّن يعوله - لقمة من حرام، فكل جسد نبّت من حرام فالنار أولى به!

وقد تتاح للإنسان فرص لكسب جاه حرام، أو مجد حرام، أو منصب حرام في سبيل أن يتنازل عن مثله العليا، أو يسير في ركاب الطغاة، أو يحني رأسه للغزاة والسادة، أو يغض الطرف عما يفعله الكبار من سرقات ونهب وعبث بالأموال والحرّمات. ولكن المؤمن يركل هذا كله بقدمه، ولا يسيل لعبه لهذا العرض الزائل، ويقول لأصحاب السلطان ما قاله سحرة فرعون لفرعون حين آمنوا بالله ربّ العالمين، ربّ موسى وهارون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا﴾

[طه: ٧٢، ٧٣].

إنها الاستقامة، التي تفرض على صاحبها: أن يؤدي حقَّ ربِّه، ويؤدي حق نفسه، ويؤدي حق أسرته، ويؤدي حق مجتمعه، ويؤدي حق أمته، فهو مع الله بالعبادة، ومع نفسه بالتزكية، ومع أسرته بحسن الرعاية والنفقة، ومع المجتمع بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ومع أمته بالتضامن معها، والحرص على وحدتها، والدفاع عنها.

ومع هذا لا ينسى أنه بشر، له حاجات البشر، ومطالب البشر، ولهذا يتعب كما يتعب البشر، ويملُّ كما يملُّ البشر، ومن حقِّه أن يستريح إذا تعب، وأن يروِّح نفسه إذا ملَّ، وأن ينوِّع حياته بين الجد واللَّهو، حتى يستطيع أن يواصل السير، ولا ينقطع من الإعياء والجهد في منتصف الطريق، فلا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

ولهذا قال النبي ﷺ لحنظلة، حين اتَّهم نفسه بالنفاق، لأنه كان في مجلس رسول الله ﷺ، على حال من الرقة والخشوع والسمو الروحي، فلما رجع إلى بيته داعب امرأته، ولعب أولاده، ونسى ما كان عليه. فظن ذلك نفاقاً، ورجع يعدو إلى النبي ﷺ، يشكو هذه الازدواجية، وهذا التناقض، فقال ﷺ: «يا حنظلة، لو بقيتم على الحالة التي تكونون فيها عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات. ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة»^(١)، أي كما نقول في المثل: ساعة لقلبك، وساعة لرَبِّك.

وساعة القلب هذه مطلوبة للإعانة على ساعة الربِّ، فإن النفس البشرية لا تصبر على الحق المر، والجد الصارم باستمرار، ولهذا قال

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٠)، وأحمد (١٧٦٠٩)، عن حنظلة الكاتب.

علي رضي الله عنه: رَوِّحُوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمي^(١)! ويقول: إن القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة^(٢).

ومن هنا كان الرسول الكريم يمزح ولا يقول إلا حقًا، ويرى أصحابه يتمازحون ولا ينكر عليهم، ويعرف لكل قوم طريقته وأعرافهم، ويتيح لهم أن يمارسوا هواياتهم، كما سمح للحبشة أن يلعبوا بحرابهم في مسجده في يوم العيد، وهو يشجّعهم ويقول لهم: «دونكم بني أرفدة»، ويتيح لزوج عاتشة أن تنظر إليهم وهم يلعبون حتى تسأم^(٣)، ولما همَّ عمر أن يرميهم بالحصى، لأنهم يرقصون بحرابهم في المسجد النبوي قال له الرسول: «دعهم يا عمر»^(٤).

وغنّت جاريتان في بيت عائشة، والرسول عندها، ودخل أبو بكر، فوجدهما تغنيان فانتهرهما، وقال: أبزمور الشيطان في بيت رسول الله؟ فقال الرسول: «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا. حتى تعلم يهود أن في ديننا فسحة، وإني بعثت بحنيفة سمحة»^(٥).

وأنكر على عائشة أن تزفَّ عروس إلى عروسها بغير لهو وغناء، ولا سيما أن الزوج من الأنصار، وقال: «هَلَّا كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»^(٦).

(١) إحياء علوم الدين (٣٠/٢).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٢٩/٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٩٥٠)، ومسلم (٨٩٢)، كلاهما في العيدين، عن عائشة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠١)، ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٣)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه أحمد (٢٤٨٥٥)، وقال مخرّجوه: حديث قوي. وحسّن إسناده الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق (٤٣/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٨٢٩)، عن عائشة.

(٦) رواه البخاري في النكاح (٥١٦٢)، عن عائشة.

وقد ذكرنا شروطًا وضوابط للغناء المباح - بآلة أو بغير آلة - من حيث المضمون، ومن حيث طريقة الأداء، ومن حيث الكم، ومن حيث سلامته من الاقتران بأشياء محرمة، مثل الخمر أو الخلاعة والرقص، وغيرها، لا نريد الإطالة بذكرها فليراجعها من شاء في كتبنا، وبخاصة كتاب «فقه الغناء والموسيقى في ضوء القرآن والسنة»^(١).

ويمكن أن يكون اللهو بممارسة بعض الرياضات، كالسباحة، والرماية، وركوب الخيل، والمسابقة بينها، ونحو ذلك من ألعاب الفروسية.

وللناس أن يخترعوا من الألعاب والهوايات ما يشغل فراغهم، ويرفّه عنهم^(٢)، ما لم يسرفوا في ذلك، فإن الإسراف في المباحات ممنوع، كما قال تعالى: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ حُذُواْ زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

بل الإسراف في العبادة ممنوع أيضًا، لأنه لا يتم إلا على حساب حقوق آخر، وكما قال الحكيم: ما رأيت إسرافًا إلا وبجانبه حقٌ مضىع. ثم عليهم أن يلتزموا الحلال، ولا يتجاوزوه إلى الحرام، مثل اللعب بالقمار، فكلُّ شيء دخله القمار، فهو حرام.

موقف خطابنا الديني:

إن خطابنا الديني يغلب عليه التزمت والتشدد في قضية اللهو

(١) فصلنا أحكام الغناء والموسيقى في كتابنا: فقه الغناء والموسيقى، نشر مكتبة وهبة، القاهرة،

فليرجع إليه من يريد استيعاب الموضوع.

(٢) راجع رسالتنا: الإسلام والفن، ما كتبناه عن اللعب، من رسائل ترشيد الصحوة، نشر مكتبة

وهبة، القاهرة، ومؤسسة الرسالة، بيروت.

والترويح، وكثير من خطبائنا الدينيين يشددون على عباد الله في قضية الغناء والموسيقى، فيحرمونها تحريمًا باتًا، ولا سيما الموسيقى، مثيرها وهادئها، وقد اعتمدوا في ذلك على نصوص نقلوها، بعضها صريح غير صحيح، وبعضها صحيح غير صريح، أي في الدلالة على التحريم. ومن المعلوم أن الشرع يشدد في مسألة «التحريم»، فلا يجوز التحريم إلا بنص صحيح صريح، سالم من المعارضة، غير قابل للتأويل، حتى لا يقال للمحرّم: ﴿قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

والواجب هو الموقف المتوازن من هذه القضية الخطيرة، فلا يسدّ الخطاب الديني على الناس أبواب الحلال كلّها، ويحرم عليهم ما أحلّ الله بغير بينة، كما لا يفتح الباب على مصراعيه للهو الحرام، والترفيه الذي لا ينضبط بشرع ولا أخلاق.

إن من الخطاب الديني: ما يريد أن يجعل الحياة «مأتمًا» دائمًا، فلا يسمح لقلب أن يفرح، ولا للسن أن تضحك، ولا ليد أن تصفق، ولا للسان أن يروي فكاهة أو دعاية، يريد أن يعيش المرء مهمومًا حزينًا، وأن يلقي الناس عبوس الوجه، مقطب الجبين. وهذا ضد الفطرة، وضد الشرع معًا.

وقد كان للرسول من يضحكه، وكان الرسول ﷺ، من أفكه الناس، وقد رويت عنه ممازحات شتى لرجال ونساء من أصحابه، كما أقرّ أصحابه على مداعبتهم بعضهم مع بعض، ومنها ممازحات من الوزن الثقيل. ولا سيما من الصحابة المعروفين بمزاجهم الفكاهي (الكوميدي)^(١).

(١) راجع كتابنا: فتاوى معاصرة (٤٤٥/٢ - ٤٥٧)، فتوى: الدين والضحك، نشر دار القلم، ط ٣،

فلنتأس بالرسول وصحبه، ولندع هؤلاء الثقلاء الذين يريدون أن
يفرضوا ثقلهم وشدتهم وضيق صدورهم على العالمين.





يتبنى العالمية ولا يُغفل المحلية

لا بد للخطاب الديني في عصرنا هذا، عصر العولمة: من أن يتبنى عالمية الدعوة والتوجه، وإن لم يغفل الجوانب المحلية والإقليمية، وهذا ما نادينا به وما زلنا، وذلك لسببين أساسيين:

أولهما: أن هذه هي طبيعة الدعوة الإسلامية، فهي ليست دعوة عربية، ولا دعوة شرقية، وليست دعوة عرقية ولا إقليمية بحال. بل هي دعوة للعالمين.

أعلنت عن ذلك منذ فجرها في مكة، وأتباعها قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، فقال تعالى لرسوله في سورة الأنبياء، وهي مكية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ١٠٧]، وقال في سورة الفرقان وهي مكية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِّلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الآية: ١]، وفي سورة (ص) وهي مكية: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ الَّذِي يَدْعُكَ إِلَى اللَّهِ وَيُبَشِّرُكَ بِالْغُلَامِ وَمَا تَدْعُكَ إِلَّا إِلَىٰ لَهْوٍ وَلَٰغٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الآية: ٦١]، وتكرر وصف القرآن في أكثر من سورة مكية بأنه ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أو ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وفي سورة الأعراف - وهي مكية - أمر من الله لرسوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الآية: ١٥٨].

وعدد الرسول الكريم خصائصه التي تميز بها على من قبله من الأنبياء، فكان منها: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة»^(١).

وفي أول فرصة أتاحت لرسول الله ﷺ، بعد صلح الحديبية: وجّه رسائله إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض القريين من جزيرة العرب، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

وعالمية الإسلام من الثوابت اليقينية التي لا نزاع فيها.

والسبب الثاني: أن العزلة الآن لم تعد ممكنة، لم يعد في إمكان عالم أو داعية أن يغلق أبواب مسجده أو معهده على نفسه وعلى مصليه أو تلاميذه، ويقول لهم ما يود أن يقوله دون أن يسمع به أحد.

فقد تقارب العالم وتقارب حتى أصبح شبه قرية واحدة، وسماه بعضهم «قرتنا الكبرى». وأنا أقول: إنه لم يعد قرية كبرى، بل قرية صغرى. فإن القرية الكبرى لم يكن الناس في شرقها يعرفون ما يجري في غربها إلا بعد يوم أو أكثر، أما العالم اليوم، فنحن نعلم ما يحدث فيه بعد لحظات من وقوعه، بل قد نتابع الحدث وهو يحدث في مكانه لحظة بلحظة، نتيجة لثورة الاتصالات الحالية.

فلهذا ينبغي علينا أن نعلم أن ما يقال على منبر في قرية نائية في إندونيسيا أو في نيجيريا، أو في المغرب أو في السودان: قد تتناقله وكالات الأنباء في العالم، وتذيعه في أقطار الأرض كلها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله.

في السنة الماضية كنا في مؤتمر إسلامي كبير، وقام أحد المتحدثين، وقال كلامًا على عكس اتجاه المؤتمر، يدعو إلى التعصب لا التسامح، والانغلاق لا الانفتاح، ويقول: إنه لا يوجد دين غير الإسلام، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ولا يوجد حوار بيننا وبين الآخرين، إنما هي دعوتهم فقط إلى الإسلام.

وقلتُ لرئيس المؤتمر، وكان يجلس بجانبني: إن كلام هذا الرجل خطير، ويهدم كل ما نبنيه، ويجب أن يُرد عليه. قال: إنه يقول فيما بيننا. قلتُ: وإن كان يقوله فيما بيننا، فليس كلامًا صحيحًا. كيف يقول: لا يوجد دين آخر، والله تعالى يقول للمشركين الوثنيين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويخاطب أهل الكتاب فيقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، ويذمُّ أهل الكفر: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١]، إلى آخره؟

ثم كيف ينكر الحوار، ونحن مأمورون به شرعًا في قوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومن ناحية أخرى: لا يوجد شيء اسمه «فيما بيننا»، فكلُّ ما نقوله يُعرَف ويُذاع على الناس.

ولا يقبل منطق الإسلام أن يكون لنا إسلامان: إسلام نتداوله بيننا ونكتمه عن الناس، وإسلام نعلنه على الملأ، ونواجه به العالم. إنما هو إسلام واحد، مصدره القرآن والسنة، نعمل به في أنفسنا، وندعو إليه غيرنا، ونغالي به، ونباهي بإعلانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

بين العولمة والعالمية:

ولا بد لنا من أن نميز بين معنى «العالمية» ومعنى «العولمة» فقد يلتبس المفهومان على كثير من الناس.

ولكن هناك في الواقع فرقاً كبيراً بين مضمون «العالمية» الذي جاء به الإسلام، ومضمون «العولمة» التي يدعو إليها اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصة.

فالعالمية في الإسلام تقوم على أساس تكريم بني آدم جميعاً: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فقد استخلفهم الله في الأرض، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، جميعاً منه. وكذلك على أساس المساواة بين الناس في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسؤولية، وأنهم جميعاً شركاء في العبودية لله تعالى، وفي البنوة لآدم، كما قال الرسول الكريم أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: «يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى...»^(١).

وهو بهذا يؤكد ما قرّره القرآن في خطابه للناس كلّ الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولكن القرآن في هذه الآية التي تقرّر المساواة العامة بين البشر، لا يلغي خصوصيات الشعوب، فهو يعترف بأن الله تعالى جعلهم ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ليتعارفوا.

(١) سبق تخريجه ص ٥٦.

أما «العولمة» فالذي يظهر لنا من دعوتها حتى اليوم: أنها فرض هيمنة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية من الولايات المتحدة الأمريكية على العالم، وخصوصًا عالم الشرق، والعالم الثالث، وبالأخص العالم الإسلامي. الولايات المتحدة بتفوقها العلمي والتكنولوجي، وبقدرتها العسكرية الهائلة، وبإمكاناتها الاقتصادية الجبارة، وبنظرتها الاستعلائية التي ترى فيها نفسها أنها سيدة العالم: تريد أن تسوق البشر بعصاها!

العولمة - في المفهوم الأمريكي - لا تعني: معاملة الأخ لأخيه، كما يريد الإسلام، بل ولا معاملة الند للند، كما يريد الأحرار والشرفاء في كل العالم، بل تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين.

العولمة في أجلى صورها اليوم تعني: «تغريب العالم». أو بعبارة أخرى: «أمركة العالم». إنها اسم مذهب للاستعمار الجديد، الذي خلع أرديته القديمة، وترك أساليبه القديمة، ليمارس عهدًا جديدًا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف «العولمة». إنها تعني: فرض الهيمنة الأمريكية على العالم، وأي دولة تتمرد أو تنشز، لا بد لها من أن تؤدّب، بالحصار، أو التهديد العسكري، أو الضرب المباشر، كما حدث مع أفغانستان، والعراق، والسودان، وإيران، وليبيا. وكذلك تعني فرض السياسات الاقتصادية التي تريدها أمريكا عن طريق المنظمات العالمية التي تتحكّم فيها إلى حدّ كبير، مثل: البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، وغيرها.

كما تعني: فرض ثقافتها الخاصة، التي تقوم على فلسفة المادية والنفعية وتسويغ الحرية إلى حد الإباحية، وتستخدم أجهزة الأمم

المتحدة لتمرير ذلك في المؤتمرات العالمية، وتسوق الشعوب إلى الموافقة على ذلك بسياسات التخويف والتهديد، أو ببوارق الوعود والإغراء.

وتجلى ذلك في «مؤتمر السكان» الذي عقد بالقاهرة في صيف ١٩٩٤م. والذي أريد فيه أن تمرر وثيقة تبيح الإجهاض بإطلاق، وتجزئ الأسرة الوحيدة الجنس - زواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء - وإطلاق العنان للأولاد في السلوك الجنسي، والاعتراف بالإنجاب خارج إطار الزواج الشرعي، إلى غير ذلك من الأمور التي تخالف الأديان السماوية كلها، كما تخالف ما تعارفت عليه مجتمعاتنا، وغدا جزءاً من كينونتها الروحية والحضارية.

ومن هنا وجدنا الأزهر الشريف في مصر، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وجمهورية إيران الإسلامية، والجماعات الإسلامية المختلفة، تقف جنباً إلى جنب مع الفاتيكان ورجال الكنيسة، لمقاومة هذا التوجه المدمر، إذ شعر الجميع أنهم أمام خطر يهدد قيم الإيمان بالله تعالى ورسالاته، والأخلاق التي بعث الله بها رسله ﷺ.

كما تجلّت هذه العولمة في «مؤتمر المرأة» في بكين سنة ١٩٩٥م، وكان امتداداً لمؤتمر القاهرة وتأكيداً لمنطلقاته، وتكميلاً لتوجهاته.

وهذه قضية في غاية الأهمية: (الاعتراف بالخصوصيات)؛ حتى لا يطغى بعض الناس على بعض، ويحاولوا محو هويتهم بغير رضاهم.

بل نجد الإسلام يعترف باختلاف الأمم، وحق كل أمة في البقاء حتى في عالم الحيوان، كما جاء في حديث النبي ﷺ: «لولا أن الكلاب

أمة من الأمم لأمرتُ بقتلها»^(١). وهو يشير إلى ما قرّره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وإذا خلق الله أمة مثل أمة الكلاب، فلا بد أن يكون ذلك لحكمة، إذ لا يخلق سبحانه شيئاً إلا لحكمة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]. فلا يجوز إذن حذف هذه الأمة المخلوقة من خارطة الوجود، فإن هذا تطاول واستدراك على خلق الله تبارك وتعالى.

إذا كان هذا في شأن الأمم الحيوانية، فما بالك بشأن الأمم الإنسانية؟ إلا أن ترتضي أمة باختيارها الانصهار في أمة أخرى: في دينها ورسالتها ولغتها، كما فعلت مصر وبلاد شمالي إفريقيا وغيرها، حين اختارت الإسلام ديناً، والعربية لغة، بل أصبحت عضواً مهماً في جسم هذه الأمة، بل لها دور القيادة في كثير من الأحيان^(٢).

الاهتمام بالواقع المحلي:

ومع دعوة الخطاب الإسلامي للعالمية، وانفتاحه على الكون: لا ينسى الواقع الإقليمي والمحلي من حوله، فالأقربون أولى بالمعروف،

(١) رواه أحمد (١٦٧٨٨)، وقال مخرجه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الصيد (٢٨٤٥)، والترمذي في الأحكام (١٤٨٦)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٥)، عن عبد الله بن مغفل.

وانظر تعليقنا على هذا الحديث في كتابنا: السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ص ١٤٦، ١٤٧، نشر دار الشروق، ط ٣، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ورعاية البيئة في شريعة الإسلام ص ٩١ - ٩٥، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٢) انظر كتابنا: المسلمون والعولمة، ص ٩ وما بعدها.

والنبي ﷺ يقول: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك»^(١)، وقال في حديث آخر: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٢).

والقرآن يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]. فبدأ بالوالدين والأقربين، لأنهم أحق من غيرهم وأولى.

والإسلام - وإن كان يرى الأمة الإسلامية أمة واحدة - يرى توزيع زكاة كل إقليم في فقراء الإقليم نفسه. ولما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، لترد على فقرائهم»^(٣).

وبهذا سبق الإسلام ما يحرص عليه العالم المتحضر من فكرة «اللامركزية» ونظام «الإدارة المحلية»، بدل «المركزية» الصارمة التي تُتبع في بعض الأنظمة.

والإسلام يبدأ بالتنبيه على حق الأسرة، ويعني بها: الأسرة الموسعة التي تشمل الزوجين والأبناء والبنات والأحفاد، والوالدين، والأجداد. ثم تتسع لتشمل أولي القربى وذوي الأرحام: الإخوة والأخوات، وبنيتهم وبناتهم، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأولادهم. ويفرض الإسلام لهؤلاء حقوقاً من الصلة والبر، قد تصل إلى النفقة على القريب بشروط معينة، كما أن القريب قد يرث قريبه إذا مات بشروط معينة.

(١) رواه مسلم في الزكاة (٩٩٧)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤)، كلاهما في الزكاة، عن حكيم بن حزام.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١.

ثم يمتد اهتمام المسلم إلى جيرانه الأقرب فالأقرب، حتى يشمل الحي كله، أو القرية كلها جيرانا له. وهؤلاء لهم حقوق يجب أن تُرعى، وفي الحديث: «ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع»^(١). وهناك حقوق مفصلة للجار على جاره، يرجع إليها في كتب الحديث والفقه والآداب الشرعية.

ثم أهل الإقليم الواحد لهم حقوق لبعضهم على بعض، إلى أن ينتهي إلى الأمة كلها، بحسبان أن المؤمنين إخوة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأنهم جميعا «أمة واحدة» وإن اختلفت أوطانهم، واختلفت أعراقهم، واختلفت ألسنتهم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. و«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»^(٢)، و«المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»^(٣).

موقف الخطاب الديني:

والمطلوب من الخطاب الديني اليوم: أن يحافظ على الموازنة بين العالمية والمحلية، فلا يغرق في الثقافة العالمية، والسياسة العالمية، والاقتصاد العالمي، والقضايا العالمية في الشرق والغرب، في حين

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو يعلى (٢٦٩٩)، والطبراني (١٥٤/١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٥): رجاله ثقات. وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٩)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد (٦٧٩٧)، وقال: حديث صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن الجارود في المنتقى (١٠٧٣)، عن عبد الله بن عمرو.

لا يهتم ببلده وأهله، لا يعرف حاجاتهم، ولا يسمع لأهاتهم، ولا يحس بتوجُّعاتهم، ولا يجيب عن تساؤلاتهم، ولا يسعى في حلِّ مشكلاتهم، وعلاج أمراضهم، الجسمية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إنه يتحدث عن مشكلات الشمال والجنوب، والمشرق والمغرب، وهو مغفل مشكلات وطنه، التي لها حق الأولوية والتقديم على غيرها.

إن الله تعالى حين كلف خاتم رسله محمدا بالدعوة، أمره أول ما أمر: أن يبدأ بعشيرته وأقرب الناس إليه، فقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. كما وجَّهه إلى العناية بموطنه - مكة ومن حولها - لما لهم من حقٍّ أوكد من غيرهم بحكم الجوار، فقال تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، لهذا كان بلد المرء الذي يعيش فوق ترابه، ويشرب من مائه، ويتنفس من هوائه: أولى برعايته من غيره من البلدان.

ومع هذا لا ينبغي للخطاب الديني أن يغرق في المحلية، ويغفل الساحة الإقليمية، والساحة العالمية. فكثيراً ما رأينا بعض المتحدثين الدينيين في بعض البلاد، يحدث الناس عن عذاب القبر، أو عن آداب قضاء الحاجة، واليهود يهدِّدون المسجد الأقصى، أو الأمريكيون والبريطانيون يغزون العراق، أو العالم كله يتحدث عن كارثة (١١) سبتمبر، ولكن صاحبنا بمعزل عن هذا كله، فهو مسجون في عالمه الخاص. ولا علاقة له بما يدور في العالم من حوله، من سلم أو حرب، ولا بما يجري في أرض الإسلام، وربما كانت أمة الإسلام هي الضحية المقصودة، فأين وحدة الأمة؟ وأين أخوة الإسلام؟ وأين تضامن المسلمين؟



إن الخطاب الإسلامي لا يجوز له، ولا يليق به، ولا يقبل منه: أن يتجاهل ما يجري في عالمنا الكبير اليوم، بعد ثورة الاتصالات، وثورة المعلومات.

لا يجوز له أن يتغافل عما يقال من «صدام الحضارات» أو «حوار الحضارات». أو ما يقال عن «حوار الأديان» أو «التقارب بين الأديان»، أو يصمت عما تريده القوى الكبرى من «تغيير هويتنا» أو تغيير مناهجنا التعليمية، وإصلاح عقولنا الفاسدة، وتحريرنا من ثقافتنا المتخلفة!

لا يجوز للخطاب الديني أن تستهلكه القضايا المحلية إلى حد أن يجهل ما يشكو منه العالم من اختلال التوازن الكوني، واختلال التوازن البيئي^(١)، واختلال التوازن الإنساني.

يلزم الخطاب الديني أن ينظر بعينين معاً: إحداهما ترنو إلى الواقع المحلي والإقليمي، والأخرى تنظر إلى الواقع العالمي. وهذا هو التوازن المطلوب.

* * *

(١) انظر كتابنا: رعاية البيئة في شريعة الإسلام، نشر دار الشروق، القاهرة.



يحرص على المعاصرة ويتمسك بالأصالة

ومن خصائص خطابنا الديني الإسلامي في عصر العولمة: أنه يحرص على المعاصرة، ويتشرب روح العصر، وخصوصا في وسائله وآلياته، ولا يتجاهل في دعوته إذا دعا، ولا في تعليمه إذا علّم، ولا في فتواه إذا أفتى: تيارات العصر، ومذاهبه الفلسفية، ومدارسه الفكرية، واتجاهاته الأدبية، وانحرافات السلوكية، ومشكلاته الواقعية.

فلا يعيش في الكتب القديمة وحدها، ولا يتوقع على الماضي وحده، بل لا بد له من أن يعلم أن الدنيا تغيرت، وأن الحياة تطوّرت، فهو ابن زمانه ومكانه وبيئته. وفيما أثر عن السلف: رحم الله امرأ عرف زمانه، واستقامت طريقته. وفيما يُنسب إلى صحف إبراهيم: ينبغي للعاقل أن يكون عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه.

ولقد قرّر المحققون من فقهاءنا: أن الفتوى تتغير بموجبات شتى، منها: تغير الزمان، وتغير المكان، وتغير العرف والحال وغيرها.

وهذا سرُّ كثير من الخلاف بين الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد رحمهم الله جميعا. وفي هذا يقول علماء الحنفية: إنه اختلاف عصر وزمان، وليس اختلاف حجة وبرهان.

بل هذا من أسباب اختلاف رأى الفقيه في المسألة الواحدة بين زمن وآخر، كاختلاف الإمام الشافعي في مذهبه الجديد بعد أن استقر في مصر، ومذهبه القديم قبل أن يستقر فيها، في كثير من مسائل الفقه، ويقول علماء الشافعية: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد. فقد اختلف المكان، واختلف الزمان، فزمان النضج غير زمان التكوين.

ولعل هذا أيضا من أسباب اختلاف الروايات عن الإمام مالك، والإمام أحمد، فربما عرضت عليه المسألة في زمن، فأجاب فيها برأي، وسئل عنها في زمن آخر، فأجاب عنها برأي مخالف.

وهذا ما جعل «مجلة الأحكام العدلية» الشهيرة تقول في إحدى موادها، التي تتعلّق بالقواعد الفقهية: «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان». وإن كان لنا ملاحظة على إطلاق الصياغة بهذا الشكل^(١).

من سمات المعاصرة:

والمعاصرة لها سمات معينة، يجب أن تراعى في وعظ الواعظ، وفي تعليم المعلم، وفي فتوى المفتي، وفي قضاء القاضي.

العقلية العلمية:

من هذه السمات: «العقلية العلمية» التي تردّ كل شيء إلى العلم، وتزن كل شيء بالمنطق، ولا تقبل أي دعوى بلا برهان، وترفض التسليم للأباطيل، وقبول المبالغات والتهاويل، ولا تستسلم للدجالين والكهنة

(١) انظر: تعليقنا على ذلك في كتابنا: شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان

ص ١٠١، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

والمتلاعبين بعقول الجماهير باسم الدين، فالدين براء من هؤلاء، وهو يرى تصديق الكهنة والعرافين كفرًا بما أنزل على محمد ﷺ.

وفي الحقيقة: إن «العقلية العلمية» ليست من اختراع العصر، ولا من مستوردات الغرب، بل هي العقلية التي ينشئها القرآن الكريم بآياته وتعاليمه، فهو يرفض الظنَّ في مقام اليقين، ويذمُّ المشركين بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

كما يرفض اتباع العواطف والأهواء في البحث عن الحقيقة: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدَى اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ويعلن حملته على الجمود والتقليد للآباء أو للسادة والكبراء، أو لعامة الناس^(١). وقد تحدثنا عن ذلك في الخصيصة الثانية.

التجديد:

ومن سمات المعاصرة: «التجديد» فلا يقبل المسلم المعاصر أن يظل القديم على قدمه، ولا يقبل تجميد الحياة والفكر والعلم والاجتهاد. فالماء إذا توقَّف أسن، والريح إذا ركدت كاد الناس يختنقون، والكون كله يتحرَّك، الأرض تدور، والفلك يسير، والشمس والقمر والنجوم كلها في حركة دائمة، فلا يجوز أن يقف الإنسان أو يجمد مكانه، والكون كله من حوله يتحرَّك، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

لا يجوز تجميد العلم أو الفكر بدعوى قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئًا. فكم ترك الأول للآخر. ولا بقولهم: ليس في الإمكان أبدع مما

(١) فصلنا الحديث عن ذلك في كتابنا: العقل والعلم في القرآن الكريم ص ٢٤٧ - ٢٨٢، فصل: العقلية العلمية التي ينشئها القرآن، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٤، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

كان. فكم في الإمكان أبدع مما كان من بدائع وروائع: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿[فاطر: ١٦ - ١٧].

وقد بين لنا رسول الإسلام أن الدين يتجدد، حين قال: «إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها دينها»^(١).

وسواء كان هذا المجدد فردا أم جماعة ومدرسة، كما تفيده كلمة «من» التي تصلح للمفرد، وتصلح للجمع، فقد أفادنا الحديث شرعية التجديد للدين، فإذا كان الدين - وشأنه غالبا الثبات - يتجدد، فما بالك بغير الدين من شؤون الحياة، وأمور العلم والفكر والأدب والثقافة والصناعة والفن؟!

التجديد لا يعني التنكُّر للقديم:

ولكن التجديد المنشود لا يعني الانفصال عن التراث، والتنكُّر للقديم، فليس كل قديم سيئا، كما ليس كل جديد حسنا، فكم من قديم نافع كل النفع، مبارك كل البركة، وكم من جديد لا خير فيه، بل هو ضرر وشر أكيد.

على أن كلا من القدم والجدة أمر نسبي، فقديم اليوم كان جديد الأمس، وجديد اليوم سيصبح قديم الغد.

وليس من التجديد في شيء: التبرُّم بكل قديم، وفتح الذراعين لكل جديد، وقد سخر أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي من بعض مجددي زمنه، فقال عنهم: إنهم يريدون أن يجددوا كل شيء، حتى الدين واللغة والشمس والقمر^(٢)!

(١) سبق تخريجه ص ٢٦.

(٢) من عبارة الرافعي على غلاف كتابه تحت راية القرآن.



وهؤلاء هم الذين سخر منهم شوقي في قصيدته عن «الأزهر» حين صوّب سهام نقده إلى الذين نالوا من مكانة الأزهر ورسالته ودوره لمجرد أنه «قديم» فقال:

دع عنك قولَ عصابة مفتونة يجدون كلّ قديمٍ أمراً منكراً
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عُمرّا
من كل ساع في القديم وهدمه وإذا تقدم للبنية قصّراً
وأتى الحضارة بالصناعة رثة والعلم نزراً، والبيان مثرثراً^(١)

وهم الذين انتقدتهم الفيلسوف المسلم الشاعر - شاعر الإسلام في الهند - محمد إقبال، فقال لهم: إن الكعبة لا تجدد، بجلب حجارة لها من أوروبا! بمعنى أن هناك أشياء عظمتها في قدمها، مثل الكعبة، فميزتها أنها «البيت العتيق»، فمن أراد أن يجددها بجلب حجارة لها من أوروبا غير حجارتها الأصلية العتيقة، فهذا ليس بتجديد، ولكنه تخريب وتبديد. وهذا ما يجب أن يعيه الخطاب الديني المعاصر، من ضرورة تحديد المفاهيم، والتمييز بين المتشابهات.

المرونة والتطور:

ومن سمات المعاصرة: «المرونة وقابلية التطور»، فلا يجوز تثبيت كل شيء، وتجميد كل شيء، فهذا يؤدي إلى الموت والهلاك.

لقد تطوّر العلم، وتطورت الصناعة، وتطورت معها الأفكار والتقاليد. لقد تطورت وسائل النقل من الحمار والجمال إلى الطائرة

(١) الشوقيات ص ٣١٩.

والصاروخ، وتطورت وسائل الكتابة من القلم في اليد إلى المطبعة المتطورة، وتطورت وسائل الحرب من السيف والنبل إلى القنبلة النووية. فلا ينبغي أن يظل الإنسان كما هو، وكل شيء حوله تغير، ولا أن يظل الفكر كما هو، والدنيا كلها تبدلت.

ولا شك أن الدنيا تطورت وتغيرت، ولكن جوهر الأشياء بقي كما هو، ازداد عمران الأرض وقامت ناطحات السحاب، ولكن السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال بقيت كما هي.

وتغير ما حول الإنسان، كما تغيرت معارف الإنسان، وتغيرت إمكانات الإنسان، ولكن بقي جوهر الإنسان كما هو بخيره وشره، وفجوره وتقواه، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

ثبات الأهداف وتطور الوسائل:

ومن هنا نقول: إن الخطاب الديني يجب أن يركّز على «ثبات الأهداف» إلى جوار «تطور الوسائل»، فهو يجمع بين الثبات والمرونة، وهو يجري على سنة الكون: الحركة الدائبة في إطار ثابت، وحول محور ثابت، كما قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ (١).

فخطابنا الديني الإسلامي: يلتزم المرونة في الدعوة والفقه والتعليم والفتوى، ولكنه حين يدعو أو يعلم أو يفتي أو يقضي أو يجتهد: منضبط بضوابط، ومحدود بحدود، ومقيد بقواعد، يعمل في إطارها وفي دائرتها. وهي دائرة واسعة، ولكن لها أسوارها التي تحدها.

(١) في كتابه: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٧٥، خصيصة: الثبات، دار الشروق، القاهرة.



فالمرونة في جانب الوسائل والآليات والجزئيات: تختلف باختلاف البيئات والأزمان والأحوال، بل قد تختلف باختلاف الأشخاص. والثبات يكون في الأهداف والغايات والمبادئ والمنطلقات التي ترسي الأسس، وتحدّد الفكرة، وترسم الطريق^(١).

موقف الخطاب الديني:

هذا هو التوازن الذي ننشده في خطابنا الديني المعاصر، وإن كان مما يؤسف له: أننا في كثير من قضايانا الفكرية والدعوية: نقع ضحية الإفراط والتفريط، ونفقد موضع «الوسطية» المتوازن. فبعض دعائنا وخطبائنا الدينيين يريدون أن «يجمّدوا» كل شيء، في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

فَمَنْ حَلَفَ عَلَى امْرَأَتِهِ بِالطَّلَاقِ الثَّلَاثَ فِي سَوْرَةٍ مِنْ سَوَرَاتِ الْغَضَبِ: أَفْتَوْا بِتَطْلِيقِهَا مِنْهُ، وَبَانَ مِنْهُ بَيْنُونَ كَبْرَى، لَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ. ففُتِحُوا لِلنَّاسِ بَابُ الْبَحْثِ عَنْ «مَحَلِّ»، وَضَرَبُوا صَفْحًا عَنْ فَتَاوَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَابْنِ الْقَيْمِ وَمَنْ وافقهما في أن مثل هذا الطلاق لا يقع، وإنما فيه كفارة يمين، وإذا كان الغضب شديدا فلا يقع بالمرة؛ لأنه طلاق في حالة إغلاق.

وبعضهم يحرم الانتخابات، لأنها لم تُعرف في الإسلام، ويعطي الحاكم من السلطات ما يجعله أكبر دكتاتور في العالم، وهو إذا استشار، فالشورى غير ملزمة له، ويرى هؤلاء أن الأخذ بأساليب الديمقراطية وضمائنها للوقوف في وجه الاستبداد السياسي، وتقليم أظفار

(١) انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام ص ٢١٣ - ٢٥٨، خصيصة: الجمع بين الثبات والمرونة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

المستبدين، وتقييد سلطاتهم: كل هذا ضد الدين؛ لأنه مقتبس من أنظمة الكفار، مع أن عمر بن الخطاب اقتبس من نظام الخراج عند الفرس، ونظام الديوان عند الرومان.

وفي مقابل هؤلاء الجامدين المجمعدين: نجد المنفتحين المتسيبين، الذين يريدون أن ننخلع من تراثنا كله، ما كان منه إلهيًا، وما كان منه بشريًا، وألا نتقيّد بنصّ ولا قاعدة، وأن يكون الشرع بين أيدينا كالعجين في يد الخباز، يشكّله كيف يشاء، حتى القطيعيات أو الثوابت، لا حرمة لها عندهم. ومن حقّهم أن يفسّروا القرآن كما يحلو لهم، وأن يأخذوا من السنة ما راق لهم، ويذروا منها ما لا يوافق مزاجهم، وأن يشرحوها على هواهم. وبهذا ضاعت الحقيقة بين الغلاة والمفرّطين.

والخير كلّ الخير في البعد عن هؤلاء وأولئك، والوقوف مع منهج الوسط، وخير الأمور الوسط.



يستشرف المستقبل، ولا يتنكر للماضي

ومن خصائص خطابنا الإسلامي المعاصر: أنه يُخرج المسلم من التقوقع على الماضي، والانكفاء على التراث، ليتطلّع إلى المستقبل، ويستشرف آفاته.

وقد أصبح تحرُّك الناس إلى المستقبل في عصرنا سريعاً حثيث الخطأ، حتى لا يكاد الإنسان يصدق ما يحدث من تغير هائل في الماديات والمعنويات بسرعة مذهلة، نتيجة للثورات العلمية التي فرضت نفسها على العالم: الثورة الإلكترونية، والثورة البيولوجية، والثورة النووية، والثورة الفضائية، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات، ومنطق الإسلام في قرآنه وسنته يفرض علينا أن نوجّه اهتمامنا إلى المستقبل، ولا نعيش أسرى الماضي.

القرآن الكريم والمستقبل:

فالمتدبّر للقرآن الكريم يجده - منذ العهد المكي - يوجّه أنظار المسلمين إلى الغد المأمول، والمستقبل المرتجى، ويبين لهم أن الفلك يتحرّك، والعالم يتغيّر، والأحوال تتحوّل، فالمهزوم قد ينتصر، والمنتصر قد ينهزم، والضعيف قد يقوى، والقوي قد يضعف، والدوائر تدور، سواء كان ذلك على المستوى المحلي أم العالمي، وفقاً لسنة «التداول» التي

أشار إليها القرآن بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وعلى المسلمين أن يهيئوا أنفسهم، ويرتبوا بيتهم، لما يتمخض عنه الغد القريب أو البعيد، فكلُّ آت قريب.

نقرأ سورة «القمر» المكية، فنجد فيها قول الله تعالى عن المشركين، وهم أولو القوة والشوكة، والعدد والعدة: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿[القمر: ٤٥، ٤٦].

ذكر ابن كثير في «تفسيره»، عن ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ فلما كان يوم بدر رأيتُ رسول الله ﷺ، يشب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفتُ تأويلها يومئذ^(١).

وروى البخاري، عن عائشة قالت: نزل على محمد ﷺ، بمكة، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]^(٢)، فكان المقصود بهذه الآية وأمثالها تهية الذهنية المسلمة، والنفسية المسلمة، للتغير الحتمي، والغد المرتقب.

وعلى المستوى العالمي نجد آيات الكتاب العزيز تتحدث عن ذلك الصراع التاريخي بين الدولتين العظميين: فارس والروم - وقد كان صراعا اهتم له الفريقان في مكة: المسلمون والمشركون - فتبشر الآيات الجماعة المؤمنة بأن المستقبل للروم من أهل الكتاب، على الفرس

(١) عزاه ابن كثير في تفسيره (٤٨١/٧ - ٤٨٢) لابن أبي حاتم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) المرجع السابق (٤٨٢/٧).

المجوس عباد النار، وأنهم - وإن غلبوا اليوم - سيغلبون في بضع سنين، وفي هذا تقول السورة جازمة: ﴿الْمَغْلِبَتِ الرُّومُ﴾ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥].

وهذه الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى تدلنا على أمرين:

١ - مدى وعي المجموعة المسلمة - على قلتها وضعفها المادي - بأحداث العالم الكبرى، وصراع العمالقة من حولها، وأثره عليها إيجاباً وسلباً. فلا ينبغي أن يذهلهم الواقع المحلي عما يجري في عالمهم الكبير، فإنهم جزء لا يتجزأ منه.

٢ - تسجيل القرآن لهذه الأحداث، وتوجيه النظر إلى عوامل التغير، والانتقال من الواقع إلى المتوقع في ضوء السنن.

والعبرة من هذا: ألا يعيش المسلمون في هموم يومهم، ومشكلات حاضريهم، غافلين عن إمكانيات المستقبل، وآفاقه المرتقبة، وإرهاصاته، ومبشرات أو نذره، فيفاجئوا بما لم يكن في حسابهم، ولم يخطر في بالهم.

وفي سورة المزمل المكية، نقرأ الآية الأخيرة من السورة التي تتضمن تخفيف الله عن نبيه ومن معه في قيام الليل وقراءة القرآن، لما ينتظرهم من مهام جسيمة في المستقبل، فسيواجهون أعداء يقاتلونهم ويصدونهم عن سبيل الله. فليوفروا بعض قوتهم لهذا اللقاء المفروض عليهم، والذي يقتضي التخفيف عنهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي إِلِيلٍ وَنِصْفَهُ، وَثُلَاثُهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنَّ لَّنَ تَحْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عِلْمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

الرسول والمستقبل:

والقارئ المتأمل لسيرة رسول الله ﷺ، يتبين له أنه لم يكن غافلاً عن مستقبل دعوته، بل كان يفكر فيه، ويخطط له، في حدود ما هيأ الله له من فرص، وما آتاه من أدوات وأسباب.

ويكفي أن نقرأ عن جهده ونشاطه ﷺ، في مواسم الحج التي تجمع ممثلين من جميع قبائل العرب، وكيف كان ﷺ، يعرض دعوته عليهم، ويطلب نصرتهم، ويعددهم بوراثه ملك كسرى وقيصر، لنعلم إلى أي أفق كان بصره ﷺ يرنو.

وكان الرسول الكريم مؤمناً بمبدأين أساسيين:

الأول: أن هذا الواقع لا بد له من أن يزول، لأنه يحمل عوامل زواله، وأن البديل له هو الإسلام، وأن ليل الجاهلية الحالك والجاثم سيعقبه فجر صادق، وما على المؤمنين إلا أن يصمدوا ويصبروا ولا يستعجلوا الثمرة قبل إبانها.

لما اشتد الأذى بالصحابة في مكة، وخصوصاً المستضعفين منهم، جاء خَبَّاب بن الأَرْتِ إلى رسول الله ﷺ، يشكو إليه ويستنجد به، وهو متوسّد رداءه في ظل الكعبة. فقال بلسانه ولسان المعذبين من أمثاله: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر

له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه! والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

الثاني: أن هذا المستقبل المنشود إنما يتحقق وفق سنن الله في رعاية الأسباب، وتهيئة الخطط، وإعداد المستطاع من العدة، وإزاحة العوائق من الطريق، وترك ما عدا ذلك للإرادة الإلهية، فما يعجز عنه البشر لا تعجز عنه القدرة المطلقة.

تجد ذلك واضحاً كلّ الوضوح في الهجرة إلى المدينة، فقد خُطّط لها بإحكام، قدر ما يتيسّر للبشر.

فقد اختار الرسول الكريم مهجره داخل جزيرة العرب لا خارجها - كالحبشة مثلاً - فاختار يثرب، إذ الإسلام لا بد له من أن ينطلق من أرض العرب. فهذا هو الموقع المناسب، واختار أنصاره من العرب الخالص، الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وذريّاتهم، فكانوا الأوس والخزرج، إذ لا بد من أن يكون أنصار الإسلام الأولون عرباً. وقدم هجرة أصحابه على هجرته، ليكون ذلك أمكن لهم، وأليق بمقدمه بعدهم.

وهيّا للهجرة بعد إذن الله له: الرواحل التي يمتطيها في رحلته الشاقة، والرفيق الذي يأنس إليه ويطمئنُ بصحبته ورأيه، فكان أبا بكر. والدليل الذي يعرف الطريق، ويؤتمن على السرّ، فكان عبد الله بن

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت.

أريقط، وهو مشرك مأمون. والغار الذي يتوارى فيه حتى يهدأ الطلب، ويفتر الحماس، وهو غار ثور في جنوبي مكة، أي في غير طريق المدينة، تعمية على المشركين.

وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر والكتمان، وأسباب التوقي والاحتياط، وترك للإرادة الإلهية بعد ذلك ما لا حيلة له فيه، ولذا لم يخامرهم وَاللَّهُ، أدنى شك في أن الله ناصرهم.

وعندما قال أبو بكر له، وهما في الغار: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(١). ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرِبُ فَعْدَ نَصْرِهِ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان من أوائل ما صنعه لإقامة المجتمع الإسلامي بالمدينة: أن بني مسجده للصلاة وعبادة الله، ولقاء المؤمنين.

وأنشأ سوقاً تجارياً، بديلاً عن سوق بني قينقاع التي يتحكم فيها اليهود. وعقد معاهدة مع يهود المدينة ليتفرغ للجهة الوثنية التي لن تدعه يشعر بالهدوء والراحة. وبدأ يرسل السرايا حول المدينة لإثبات الوجود، وتدريب الطاقات، وتخويف الطامعين، وإرساله رسالة إلى مشركي مكة: إننا هنا.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، كلاهما في فضائل الصحابة، عن أبي بكر الصديق.

ومما فعله ﷺ بعد الهجرة: أنه قال: «أحصوا لي عدد من يلفظ بالإسلام»^(١). فأحصوا له، فكانوا ألفا وخمسمائة رجل. وفي رواية: «اكتبوا لي»^(٢).

فهو إحصاء كتابي يُراد تدوينه وتثبيته، وهي خطوة تقدُّمية في هذا العصر المبكر. فهو يريد بهذا الإحصاء، أن يعرف مقدار «القوة الضاربة» عنده في هذا الوقت، ليرتب عليها أموره فيما بعد.

وقد تبين لنا من معارف عصرنا: أن «الإحصاء» مقدمة ضرورية لأي تخطيط علمي سليم، لمواجهة المستقبل واحتمالاته.

لا يتنكر للماضي:

ومع اهتمام خطابنا الديني بالمستقبل، واستشرافه له، ومحاولة استكشافه بعين مسلمة، ورؤية مؤمنة: لا يتنكر للماضي، ولا يهيل التراب على التراث، ولا يحاول أن يقلد أولئك الذين يريدون أن ينسلخوا من ماضيهم، أو من الانتساب إلى آبائهم.

إنهم يريدون أن يحذفوا «الأمس» من الزمن، وأن يحذفوا «الفعل الماضي» من اللغة، ويحذفوا التاريخ من العلوم! وهذا خبل في العقل، وقصور في الرؤية، وخلل في التوازن، فالزمن ماضٍ وحاضر ومستقبل.

والله تعالى خلق للإنسان ذاكرة تختزن الماضي، كما خلق له مخيلة تستشف المستقبل. والإنسان الذي يصاب بفقد ذاكرته يُعدُّ مريضاً في

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٩)، عن حذيفة.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠)، عن حذيفة.

نظر الطب وفي نظر المجتمع، ولا يستطيع أن يبني حاضره أو مستقبله إلا على أساس ماضيه.

ويقول شوقي رَحِمَهُ اللهُ^(١):

مثلُ القومِ نسوا تاريخهم كلقيطٍ عَيٍّ في الحيِّ انتسابا
أو كمغلوبٍ على ذاكرةٍ يشتكي من صلة الماضي انقضابا^(٢)

ولهذا رأينا القرآن يذكر قصص الأولين، لتتخذ منها الدروس والعبر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

كما نرى القرآن يذكر المؤمنين بما جرى لهم من أحداث ظهر فيها فضل الله عليهم: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. يذكرهم بما كان من كيد بني قينقاع من اليهود.

ويقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]. يذكرهم بما كان من كيد قريش وغطفان، حين غزوا المدينة وانضم إليهم يهود بني قريظة.

ويقول سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَآيِدُكُمْ بِضُرِّهِ﴾ [الأنفال: ٢٦]. يذكرهم بنصر بدر بعد استضعافهم في مكة.

(١) الشوقيات ص ٣٩.

(٢) أي انقطاعاً.

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. يذكرهم بما أصابهم في أحد من الانكسار بعد ما أصابوا من النصر في بدر، وسبب ذلك يرجع إلى أنفسهم، وعصيانهم أمر الرسول، وتركهم موقعهم على الجبل. وهكذا لا بد من تذكّر الماضي، لنتفع به في بناء المستقبل.

موقف خطابنا الديني:

إن كثيرا من خطابنا الديني المعاصر، يكاد يكون محبوسا في قمقم الماضي، لا يغادره، ولا يعرف غيره، ولا يوجه أي نظرة إلى «المستقبل» الذي أصبحت هناك علوم تخدمه، وهيئات تقوم على استشرافه، وميزانيات توضع على أساس ذلك، وخطط بعشر سنين أو عشرين أو ثلاثين سنة، أو أكثر من ذلك، تعدها دول شتى، تريد أن تتهيأ للغد بما يلزم له قبل أن يفاجئها بمتطلباته، فلا تقدر عليها.

لقد حدثنا القرآن عن المستقبل، وحدثنا الرسول عن المستقبل في أحاديث شتى، تحت عنوان «أشراط الساعة» أو «الفتن» أو «الملاحم». وأهم ما يجب أن نستفيد منها، هو: ضرورة النظر إلى المستقبل، وإعداد العدة اللازمة له، وليس تيئيس الناس من الغد، وتثييط الهمم عن الإصلاح، والإيحاء إلى أهل الدين بأننا في آخر الزمان، وأن الإيمان في إدبار، والكفر في إقبال، وأن الشرّ غالب على الخير؛ وإشاعة مثل هذه الأفكار، وتكرارها على الناس، وإغفال المبشرات بانتصار الحق وظهور الإسلام: من أشد الأخطار على العقلية المسلمة، ومن أعظم آفات الخطاب الديني، الذي يتطلّب التغيير والتطوير.





يَتَبَنَّى التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة

وينبغي للخطاب الديني اليوم: أن يتبنّى منهج التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة، اتباعاً للمنهج النبوي الذي علّمه الرسول أصحابه، كما رواه عنه أنس أنه قال: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تَنْفُرُوا»^(١).

ولما أرسل معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن، أوصاهما بوصية مختصرة جامعة، فقال: «يَسِّرَا وَلَا تَعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تَنْفُرَا»^(٢).

ترجيح التيسير على التعسير في الفقه:

ومن هنا كان على خطابنا الإسلامي أن يراعي هذه الطريقة النبوية، فيتخذ - في مجال الآراء الفقهية المتعلقة بأحوال الفرد فيما يأكل ويشرب ويلبس ويعمل ويروّح عن نفسه، أو بأحوال الأسرة من الزواج والطلاق وما يتعلق بهما، أو بالمجتمع وسياسته واقتصاده وقوانينه ومعاملاته، وعلاقاته الدولية - خط التيسير، لا التعسير، والتسهيل لا التعقيد والتشديد.

(١) سبق تخريجه ص ٣٥.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣)، كلاهما في الجهاد، عن أبي موسى الأشعري.

وذلك لجملة أسباب:

أولها: أن الشريعة مبناها على اليسر، ورفع الحرج، والتخفيف، والرحمة والسماحة، كما دلت على ذلك النصوص الغزيرة والوفيرة.

يقول تعالى في آية الصيام: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي ختام آية الطهارة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وعقب أحكام النكاح والمحرمات: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وفي أحكام القصاص والعفو فيه: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقد ذكرنا حديث الرسول الكريم الذي يقول: «يسّروا ولا تعسّروا»^(١)، وحديثه لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «يسّروا ولا تعسّروا»^(٢)، ويقول: «بعثت بحنيفية سمحة»^(٣).

ولما أصابت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة، فصلى دون اغتسال، والماء موجود، فشكاه من معه إلى النبي ﷺ فقال: ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. فتبسم النبي ﷺ^(٤). وتبسمه ﷺ يعني: إقراره على ما صنعه. على حين أنكر أشد الإنكار على جماعة أفتوا مجروحاً أصابته جنابة بضرورة الاغتسال، فاغتسل فمات بسبب فتواهم المتعنتة، فقال: «قتلوه، قتلهم الله! هلا سألوا

(١) سبق تخريجه ص ٣٥.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٥.

(٣) سبق تخريجه ص ١٥٣.

(٤) رواه أحمد (١٧٨١٢)، وقال مخرجه: صحيح. وأبو داود في الطهارة (٣٣٤)، وعلقه البخاري مختصراً قبل الحديث (٣٤٥) بصيغة التمريض. عن عمرو بن العاص.

إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال. إنما كان يكفيه أن يربط على جرحه ويتيمم»^(١).

ثانياً: أن الناس في عصرنا أحوج ما يكونون إلى التيسير عليهم، والتخفيف عنهم، رفقا بهم، ومراعاة لحالهم، حيث ضعفت الهمم، وغلب على الناس التكاسل عن الخيرات، وكثرت فيهم العوائق عن الخير، والمرغبات في الشر. وخصوصاً بعد اختلاط المجتمع الإسلامي بغيره من المجتمعات، وتأثره بكثير من الأفكار والأعراف، إذ لم تعد العزلة ممكنة في عصرنا.

فالأولى أن يفتوا بالرخص أكثر من العزائم، وبالتسهيل أكثر من التشديد. كما كان النبي ﷺ، يفعل مع حدثاء العهد بالإسلام، ومع الأعراب من أهل البادية، فهو يقبل ممن أقسم ألا يزيد على الفرائض شيئاً من السنن أو التطوع ولا ينقص منها، ويقول: «أفلح إن صدق». أو: «دخل الجنة إن صدق»^(٢)، أو: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا»^(٣).

كما رفق بالأعرابي الذي بال في المسجد، وهم به أصحابه، فأمرهم ألا يقطعوا عليه بولته، وأن يصبوا عليها ذنوباً من ماء، قائلاً: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»^(٤)، وكان ذلك رفقا به، ومراعاة لحاله.

(١) رواه أبو داود في الطهارة (٣٣٦، ٣٣٧) والدارقطني في الطهارة (٧٢٩)، ونقل عن شيخه فيه أبي بكر بن أبي داود قوله: هذه سنة تفرد بها أهل مكة، وحملها أهل الجزيرة. لم يروه عن عطاء، عن جابر، غير الزبير بن خريق، وليس بالقوي. وخالفه الأوزاعي فرواه عن عطاء، عن ابن عباس، وهو الصواب. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٤)، دون قوله: «إنما كان يكفيه...».

(٢) رواه البخاري في الصوم (١٨٩١)، عن طلحة بن عبيد الله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٣٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٤)، عن أبي هريرة.

(٤) سبق تخريجه ص ٣١.

ثالثاً: إن الفرد بوسعه أن يشدد على نفسه إن شاء، ويأخذها بالعزائم إن كان من أهلها، مع أن الأولى هو الاعتدال والتوازن، كما في الحديث: «إن الله يحبُّ أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»^(١).

ولكن لا ينبغي للفقهاء أن يشددوا على جمهور الناس في الأمور التي تهمل جمهورهم، وتتصل بحياتهم الاجتماعية، مراعيًا أن فيهم: الضعيف، والكبير، والمريض، وصاحب العذر، كما جاء في الإمامة في الصلاة: «من أمَّ الناس فليخفف فإن من ورائه الكبير والمريض وذو الحاجة»^(٢).

والصلاة رمز لشؤون الحياة المختلفة.

ولهذا يحسن بالخطاب الديني المعاصر: ألا يتبنّى الآراء المتشددة التي تضيق ولا توسع، وتجنح إلى التحريم أكثر من التحليل، في القضايا المتعلقة بالمرأة والأسرة واللهم والفنون ونحوها.

وفي مجال الإفتاء، ومجال التشريع: ينبغي تبني آراء شيخ الإسلام ابن تيمية في تضيق وقوع الطلاق، حفاظاً على مؤسسة الأسرة.

ومثل ذلك الآراء المتعلقة بالمعاملات، فالأصل فيها الإباحة والإذن لا المنع والتحريم، كما أن الأصل فيها: النظر إلى المعاني والمقاصد، لا مجرد الوقوف عند ظواهر النصوص، كما قرّر ذلك الإمام الشاطبي في «الموافقات» ودلّ عليه^(٣).

(١) رواه أحمد (٥٨٦٦)، وقال مخرجه: صحيح. وابن خزيمة في الصلاة (٩٥٠)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٠٤)، ومسلم في الصلاة (٤٦٦)، عن أبي مسعود.

(٣) الموافقات (٣٠٥/٢ - ٣٠٧)، تحقيق الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢،

وكذلك قوانين العقوبات، ينبغي الأخذ بالأقوال الميسرة فيها، كالقول الذي يرى أن التوبة تسقط الحد، وأن عقوبة الخمر عقوبة تعزيرية^(١)، وهكذا

وأود أن يكون شعارنا في هذه المرحلة قول الإمام سفيان الثوري: إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد^(٢).

التشديد في الأصول:

والتيسير الذي يتبناه الخطاب الإسلامي في عصر العولمة: إنما هو تيسير في الفروع، التي هي مجال رحب للاجتهاد والاختلاف.

ولكن الأصول التي هي أساس الدين ومحوره، والتي يقام عليها بنيانه، وتُشاد عليها أركانه، لا ينبغي التساهل فيها، فهي التي تحمى الأمة من الانفراط والذوبان.

ونعني بهذه الأصول: العقائد الأساسية التي هي عمدة الدين في الإلهيات والنبؤات والسمعيّات. والتي لا تقبل الاجتهاد ولا التجديد ولا التطور، ومن خالف فيها كفر أو فسق.

أما العقائد الفرعية، وما جرى فيها من خلاف، عبّر عنه بعض السلف بقوله: هؤلاء قوم عظموا الله، وهؤلاء قوم نزهوا الله^(٣)! فهذه للاجتهاد فيها مدخل، وللاختلاف فيها مجال، والمختلفون فيها دائرون بين الأجر

(١) راجع في ذلك رسالتنا: عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية، العامل الخامس: تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال.

(٢) انظر كتابنا: أولويات الحركة الإسلامية ص ١٠٧ - ١١٣، مبحث: فكر وسطي، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٦، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٥، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

والأجرين. فَمَنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمَنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ. وهذا من فضل الله تعالى ورحمته، ومن روائع الإسلام أن يُؤَجَّرَ المجتهد وإنْ أَخْطَأَ، وإنما كان أجره نتيجة اجتهاده وتحريه.

ولقد حقق ابن تيمية وابن القيم ومَنْ وافقهما: أن الأجر يشمل الاجتهاد في القضايا العلمية الأصولية، والقضايا العملية الفروعية، ولم يؤثر فرق بينهما. وهو الصحيح الذي تؤيده كل الأدلة.

التبشير في الدعوة:

وكما تبنَّى الخطاب الديني التيسير في مجال الفقه والفتوى، ينبغي أن يتبنَّى التبشير في مجال الدعوة والتعليم، ليكتمل المنهج النبوي المأمور به، فكما اتبعنا منهجه في قوله: «يسروا ولا تعسروا». علينا أن نتبعه في قوله: «وبشروا ولا تنفروا».

وعصرنا هذا أولى من غيره بالتزام التبشير، والبعد عن التنفير.

و«التبشير» مصدر بَشَّرَ يَبْشُرُ، وأصله الإخبار بأمر سارٍّ يظهر أثره على بشرة الإنسان، ثم استعمل فيما يقابل الإنذار، ولهذا كان رسل الله: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]. يَبْشُرُونَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَأَطَاعَ رِسْلَهُ بِالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، وَالْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَيَنْذِرُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَعَصَى رِسْلَهُ بِالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَالْدمار في الدنيا.

والمراد بالتبشير هنا: كُلُّ دعوة تحبب الله تعالى إلى عباده، وترغبهم في عبادته وطاعته، وتقودهم بحبٍّ ورفقٍ إلى اتباع صراطه المستقيم.

فالتبشير في نظري يتعلق بجانب الدعوة، كما أن التيسير يتعلق بجانب الفتوى، وإذا وُفِّقَ العالم المسلم إلى اتباع منهج التيسير في

الفتوى، والتبشير في الدعوة، فقد أوى إلى ركن ركين، وهدى إلى صراط مستقيم.

ومعنى «لا تنفروا»، أي لا تتبعوا النهج الذي ينفر الناس من شرع الله، ومن الالتزام بمنهجه القويم، مثل: منهج الترهيب الدائم، والتخويف المستمر من الله تبارك وتعالى، بذكر آيات الوعيد والعذاب والبطش من الله، دون آيات الوعد والنعيم والرحمة منه سبحانه. ومثل ذلك في أحاديث الوعيد.

قال العلامة العيني في شرح الحديث في «عمدة القاري»: «في قوله: «ولا تنفروا» يعني: بذكر التخويف وأنواع الوعيد، فيتألف من قرب إسلامه بترك التشديد عليه، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ وتاب من المعاصي، يتلطف بجميعهم بأنواع الطاعة قليلاً قليلاً، كما كانت أمور الإسلام على التدرج، في التكليف شيئاً بعد شيء، لأنه متى يُسر على الداخل في الطاعة، أو المرید للدخول فيها، سهلت عليه وتزايد فيها غالباً، وإذا عُسر عليه أوشك ألا يدخل فيها، وإن دخل أوشك ألا يدوم، أو لا يستحملها»^(١) اهـ.

فينبغي على الدعاة أن يقودوا الناس إلى الله تعالى بزمام الحب، بدل أن يسوقوهم بسوط الخوف.

وينبغي البعد عن المبالغة في الترغيب والترهيب والتخويف، الذي يتبعه كثير من الوعاظ، لأن هذا الأسلوب يرضي العوام، ولكنه ينفر المثقفين من الدين ومن رجاله ودعائه.

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٤٧/٢)، نشر دار الفكر، بيروت.

وكثيراً ما يقوم هذا الأسلوب الترهيبى المبالغ فيه، على الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة والواهية، وهذه لا تصلح أن تكون مصادر لداعية في القرن الخامس عشر، أو القرن الحادي والعشرين.

وبهذا نرى أن التيسير وعدم التعسير، يؤدي إلى التبشير وعدم التنفير، فهما يتداخلان أو يتلازمان.

موقف خطابنا الديني:

وإن من الآفات التي يشكو منها خطابنا الديني: جنوحه في كثير من الأحيان إلى التشديد والتعسير، حتى إنه ليتبنّى أشد الآراء تضيقاً على الناس في مسائل الحلال والحرام، وفي قضايا الفنون، وفي الاقتصاد والسياسة.

وكم رمانا هؤلاء بالحجارة والقذائف، لاختيارنا منهج التيسير على خلق الله، حتى قال بعضهم عن كتابي «الحلال والحرام»: إنه كتاب «الحلال والحلال». إشارة إلى تضيقه في مسائل التحريم، وقد رددت عليهم بقولي: ألفوا كتاباً آخر، سموه كتاب «الحرام والحرام في الإسلام»!

إن أقرب كلمة إلى السنة هؤلاء وأقلامهم، هي: كلمة «حرام». وهي كلمة خطيرة لا ينبغي أن تُقال إلا فيما دلّ عليه نصٌّ لا شبهة فيه.

فهم يحرمون الغناء ويحرمون الموسيقى، ويحرمون التصوير، ويحرمون لبس الخمار بدون نقاب، ويحرمون الاقتباس من النظام الديمقراطي، بل ربما رأى بعضهم الديمقراطية كفرًا!

وهم يقرون بألسنتهم قاعدة تغيير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال والعرف، ولكنهم في التطبيق لا يراعون ذلك. وكم لقينا في



«المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث» من حدة ألسنتهم، ومن قذائف شتائمهم؛ لأننا يسرنا على «الأقليات المسلمة» التي تعيش خارج دار الإسلام، وتحيا في مجتمع غير إسلامي. ومن واجب أهل الإفتاء أن يراعوا ظروفهم، ويقدرُوا حاجتهم. وعلى أساس هذا أصدرنا فتاوانا لهم بإجازة شراء بيت للسكنى عن طريق القرض من البنك، بشروط وضوابط معينة. وأجزنا للمسلم أن يرث أباه أو أمه غير المسلمَيْن، على ما رآه بعض الصحابة والتابعين، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم.

كما أجزنا للمسيحية التي تُسلم وزوجها باق على دينه: أن تستمر معه بالعقد القديم، بناء على ما جاء عن عمر وعلي رضي الله عنهما، وعن بعض التابعين. إن الخطاب الديني مطالب أن يتبنى منهج التيسير والتبشير، ولا يسير وراء المشددين، فإن من شدد شدد الله عليه، ومن يسر يسر الله عليه. وما أحوجنا إلى تيسير الله البر الكريم.

* * *





ينادي بالاجتهاد ولا يتعدى الثواب

ومن خصائص خطابنا الإسلامي في عصرنا هذا: أنه ينادي بالاجتهاد في فهم الشريعة: جزئياً و كلياً، انتقائياً وإنشائياً، بوصفه طريقاً شرعه الإسلام لاستنباط الأحكام من النصوص، ومما لا نص فيه.

ولا يقيم حرباً بين نصوص الشريعة ومقاصدها، بل يفهم النصوص الجزئية في إطار المقاصد الكلية.

لا يقبل خطابنا الإسلامي المعاصر: مقولة «سد باب الاجتهاد». التي شاعت في بعض الأزمان، فقد كانت هذه دعوى لها أسبابها وبواعثها، وهي: سد الطريق على المتلاعبين بالدين، الذين أردوا أن يطوعوا الفقه لخدمة الأمراء، وإن لم يقل بذلك الأئمة السابقون، فقال الورعون من العلماء: لا حق لكم في الاجتهاد. أرادوا أن يغلقوا الباب دونهم، حتى لا يتجاوزوا الحدود.

ومع هذا لم يخلُ عصر من العصور من المجتهدين في المذاهب المختلفة.

ففي القرن الثامن الهجري ظهرت مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية التجديدية باجتهاداتها التي خالفت فيها المؤلف والمأثور في الطلاق

وغيره، ودخل ابن تيمية وابن القيم السجن من أجل فتاويهما التي زعم خصومهم أنهم خرقوا فيها الإجماع.

وفي هذا القرن نفسه؛ كان في المغرب الأندلسي: الإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٧هـ) صاحب «الموافقات» و«الاعتصام» وغيرهما، كما ظهر العلامة المجدد ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) الفيلسوف الاجتماعي مؤسس علم الاجتماع، وهو مجتهد من نوع جديد.

وفي القرن التاسع ظهر في مصر الإمام السيوطي الذي ادعى «الاجتهاد المطلق» وأنكر عليه معاصروه دعواه، فردّ عليهم برسالته القيمة «الرد على مَنْ أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض»، وأثبت في كتابه هذا مَنْ وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد من العلماء، ومن خالفوا مذاهبهم في عدد من المسائل، وإن لم يعلنوا أنهم مجتهدون: وقال السيوطي: إن الناس يدعون اجتهادًا واحدًا، وأنا أدعي اجتهادات ثلاثة: اجتهادًا في اللغة، واجتهادًا في الحديث، واجتهادًا في الفقه^(١). وتوفي السيوطي في القرن العاشر سنة (٩١١هـ).

وفي القرن الثاني عشر ظهر في الهند حكيم الإسلام العلامة ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦هـ) ليجلو الصدا عن الفقه الإسلامي في الهند، ويحيي علوم الحديث، ويخفف من التعصب للمذهب الحنفي، وصنف جملة كتب في هذا الاتجاه، أهمها كتابه الفريد «حجة الله البالغة» في أسرار الحديث، وأسرار الشريعة.

(١) انظر ترجمته رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٣٣٥/٢ - ٣٤٤)، نشر دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.



وفي نفس العصر ظهر علامة اليمن المجتهد المطلق العلامة محمد بن إسماعيل الأمير الشهير بـ «الصنعاني» صاحب «سبل السلام»، و«حاشية العدة على العمد» أي «عمدة الأحكام» للمقدسي، الذي شرحه ابن دقيق العيد في كتابه «الإحكام في شرح عمدة الأحكام» وقد توفي الصنعاني سنة (١١٨٢هـ).

وفي القرن الثالث عشر ظهر علامة اليمن العملاق محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) الذي ملأ الدنيا علما في الأصول والفروع، وترك وراءه أثارا علمية تجديدية، تشير إليه، وتدل عليه، مثل «نيل الأوطار»، و«السييل الجرار»، و«الدراري المضيئة»، و«إرشاد الفحول» في علم الأصول، و«فتح القدير» الجامع بين الرواية والدراية في التفسير، وغيرها. وكلها تنحو منحى الاجتهاد، ولا تلتزم مذهبا من المذاهب، بل تلتزم الدليل وحده.

إن الاجتهاد باب فتحه رسول الله ﷺ لفهم الشرع الشريف، فلا يملك أحد أن يغلقه. المهم أن يفتح باب الاجتهاد لأهله من محله، فلا يدخل هذا الباب إلا مَنْ كان أهلا له، ومَنْ يملك الشروط التي اتفق عليها العلماء لمن يريد الاجتهاد: من المعرفة العميقة بالقرآن وعلومه، والحديث وعلومه، واللغة وعلومها، والفقه وأصوله، وأن يكون لديه الملكة التي تؤهله للدخول في هذا الميدان، فليس الباب مفتوحا لكل مَنْ هب ودرج من الناس، وليس كلُّ مَنْ قرأ بعض كتب الحديث، أو بعض كتب الفقه، بأهل لأن يحشر نفسه في زمرة المجتهدين.

كما أن محل الاجتهاد إنما هو الظني من الأحكام، أما القطعيات في ثبوتها ودلالاتها، فلا مجال للاجتهاد فيها، فهي منطقة مغلقة.

وإن عصرنا هذا لهو أولى العصور بتجديد الاجتهاد فيه، لما جدَّ فيه من مسائل لم تخطر للأئمة السابقين على بال، ولأن التغيرات فيه كثيرة جدًّا، وسريعة جدًّا، ومهمة جدًّا، وهي تقتضي من أهل العلم الشرعي أن يبدوا رأيهم فيها، ولا ينتظروا من الموتى أن يطلوا عليهم من القبور ليعطوهم فيها رأيًا.

إننا نؤمن بأن الإسلام هو دين الله الخاتم، وأن شريعته خالدة، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، وهذا أمر متفق عليه، وإنما تصلح الشريعة للتطبيق في كل زمان: إذا واجهت مشاكل المجتمعات بوصف الحلول الشرعية لها. فالاجتهاد في هذا العصر لحل مشكلاته، وبيان الحكم الشرعي فيها: فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

ومن فضل الله تعالى: أن الشريعة لا تضيق ذرعًا بأي جديد، فعندها لكل حادث حديث، ولكل مرض علاج، ولكل مشكلة حل.

وقد دخلت الشريعة قديما بلاد الحضارات: بلاد الفرس والروم ومصر والهند، فما ضاق صدرها بمشكلة، ولا توقف فقهاؤها في مسألة، بل اجتهد أئمتها بما يناسب كل بيئة، وتركوا لنا تراثًا هائلًا تراكم وتضخم على توالي الأعصار.

الخطر هنا يكمن، حين يدخل الاجتهاد من ليس أهله، أو يكون الاجتهاد في غير محله.

إن «الدخلاء» على العلم الشرعي هم الذين يفسدون حيث يزعمون أنهم يصلحون، ويهدمون من حيث يعلنون أنهم يشيدون.

إن أحدهم ربما لا يستطيع أن يقرأ سطرًا واحدًا دون أن يلحن مرة ومرتين، وربما لم يسمع بعلم النحو أو الصرف أو الاشتقاق، ولعله لم يقرأ كتابًا واحدًا في علم أصول الفقه، أو علم أصول الدين، أو علم أصول التفسير، أو علم أصول الحديث، ومع هذا يقتحم ميدان الاجتهاد، ويحرّف الكلم عن مواضعه، ويجترئ على تفسير كلام الله بما لم يقل به عالم سابق أو لاحق، ويشدُّ عن الأمة كلها، وهي لا تجتمع على ضلالة، ويخرج لنا في النهاية بدين جديد، وشرع جديد، غير دين الإسلام، وشرع الإسلام الذي عرفه المسلمون خلفًا عن سلف، وتوارثوه جيلًا عن جيل، ووصل إليهم بالتواتر العلمي، واليقين التاريخي عن رسول الله ﷺ.

خطر «الدخلاء» هؤلاء هو الخطر الحقيقي، لأن وراءهم جهات مشبوهة تروج لأفكارهم، وتسوّق كتبهم، وتفتح لهم الأبواب ليظهروا على الشاشات في القنوات الفضائية. وفي مقابل هؤلاء: خطر «الحزبيين» المتشددين.

ولن يكون هناك اجتهاد حقيقي إلا إذا انتقلنا من فقه «الظواهر» إلى فقه «المقاصد». أما إذا مشينا وراء «الظاهرية الجدد» وتمسكنا بـ «حرفية» النص، نكون قد أهملنا النظر في الحكم والأسرار والمعاني التي من أجلها جاء النص، ولم نراعِ المقاصد الكلية العليا التي أنزل الله شرائعه لتحقيقها في حياة الناس من العدل والإحسان والرحمة والإخاء والحب والتكافل والتعاون على البر والتقوى. وبرعايتها تزكو الأنفس، ويصلح الأفراد، وتسعد الأسر، وتتلاحم المجتمعات، وترقى الأمم، وتتعارف الإنسانية.

إن مشكلة «الحزبيين»: أنهم في غالبهم مخلصون طيبون متدينون، ولكنهم ضيقو الأفق، في فهم النصوص، وفي فهم الواقع، ولا يبالون بتغير الزمان والمكان والإنسان. وهم مستعدون لأن يقاتلوا دون رأيهم،

وأن يخوضوا المعارك لإبقاء كل قديم على قدمه. فليس في الإمكان أبدع مما كان، وما ترك الأول للآخر شيئاً.

وأول أسلحتهم في معركتهم: الاتهام لكل من عارضهم بقلة الدين، واتباع غير سبيل المؤمنين. وأسرع الكلمات إلى ألسنتهم إذا خطبوا، وإلى أقلامهم إذا كتبوا: «التبديع» و«التفسيق»، بل «التكفير»!

ولديهم قدرة فائقة على التشويش و«التهویش» وكسب العوام السطحين، الذين يعجزون عن التمييز بين دقائق الأمور، والذين تستهويهم الألفاظ البراقة، وإن لم يكن وراءها حقائق علمية أو دينية، ولا يستطيعون أن يفرقوا بين الأصلي والفرعي، ولا بين القطعي والظني، ولا بين المحكم والمتشابه.

معالم وضوابط للاجتهاد المعاصر:

ولقد تحدثت في كتابي «الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط»، عن جملة معالم وضوابط لاجتهاد معاصر قويم، حتى يستقيم ولا يزيغ، وينضبط ولا ينفطر، ويمكن أن نلخص هذه الضوابط هنا، لأهميتها، وحاجتنا إلى تقريرها وإشاعتها، مضيفين إلى تلخيصنا بعض الفوائد المهمة.

أولاً: لا اجتهاد بغير استفراغ الوسع:

يجب أن نذكر أن الاجتهاد - كما عرفه الأصوليون - هو استفراغ الفقيه وسعه في نيل الأحكام الشرعية بطريق الاستنباط.

فلا اجتهاد إلا بعد «استفراغ الوسع» ومعناه: بذل أقصى الجهد في تتبع الأدلة، والبحث عنها في مظانها، وبيان منزلتها من القوة والضعف،

والموازنة بينها إذا تعارضت، بالاستفادة مما وضعه أهل الأصول من قواعد التعادل والترجيح. حتى اشترط بعض الأصوليين في تعريف الاجتهاد: أن يحسّ بالعجز عن مزيد طلب، أي بلغ الغاية في البحث، ولم يعد عنده أي احتمال للزيادة.

وإذن، لا يكون من الاجتهاد المعتبر شرعاً: ما يفتي به المتسرّعون الذين اجتروا على اقتحام الفتوى لجراءتهم على النار! حتى إنهم ليفتون بما ينفيه صريح القرآن. أو يكذبه صحيح الحديث، أو يخالف إجماع المسلمين.

ثانياً: لا محل للاجتهاد في المسائل القطعية: يجب أن نذكر أن مجال الاجتهاد هو الأحكام الظنية الدليل، أما ما كان دليلاً قطعياً فلا سبيل إلى الاجتهاد فيه، وإنما تأتي ظنية الدليل من جهة ثبوته، أو من جهة دلالة، أو من جهتهما معاً.

فلا يجوز إذن فتح باب الاجتهاد في حكم ثبت بدلالة القرآن القاطعة، مثل: فرضية الصيام على الأمة، أو تحريم الخمر، أو لحم الخنزير، أو أكل الربا، أو القصاص من القاتل المتعمد، أو توريث الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين، ونحو ذلك من أحكام القرآن والسنة اليقينية، التي أجمعت عليها الأمة، وأصبحت معلومة من الدين بالضرورة، وصارت هي عماد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة.

ومقتضى هذا ألا ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون تحويل محكمات النصوص إلى متشابهات، وقطعيات الأحكام إلى ظنيات، ومعنى هذا: ألا يبقى للأمة شيء تجتمع عليه.

ثالثًا: لا يجوز أن نجعل الظنيات قطعيات:

ويجب أن تظلّ مراتب الأحكام كما جاءت، القطعي يجب أن يظلّ قطعياً والظني يجب أن يستمر ظنياً، فكما لم نُجْز تحويل القطعي إلى ظني، لا نجيز أيضاً تحويل الظني إلى قطعي، وندّعي الإجماع فيما ثبت فيه الخلاف، مع أن حجية الإجماع ذاته ليست موضع إجماع!

فلا يجوز أن نشهر هذا السيف - سيف الإجماع المزعوم - في وجه كل مجتهد في قضية، ملوّحين به ومهددين، مع ما ورد عن الإمام أحمد أنه قال: من ادعى الإجماع فقد كذب، وما يديره! لعل الناس اختلفوا وهو لا يعلم^(١)!

ولذلك يجب أن نقيّد الإجماع الذي نحترمه ولا نتعداه بـ «الإجماع المستيقن»، وكذلك ألا يكون مبنياً على مصلحة زمنية أو عُرف متغير، فهذا يجوز أن يُغيّر باجتهاد جديد.

رابعًا: الوصل بين الفقه والحديث:

يجب أن نمد جسراً واصلاً بين الفقه والحديث، وأن تزول الفجوة القائمة بين المدرستين: المدرسة الفقهية والمدرسة الحديثية.

فالمشاهد أن أغلب المشتغلين بالحديث لا يهتمون كثيراً بالدراسات الفقهية والأصولية، ولا يوجهون همّتهم إلى علل الأحكام، وقواعد الشريعة ومقاصدها. وهي التربة اللازمة لنمو بذرة الاجتهاد، وبلوغها غايتها، وخصوصاً ما يتعلق باختلاف الفقهاء، وتنوع مشاربهم، وتعدد منازعهم في الاستنباط والاستدلال، وأهميتها في تكوين ملكة الاجتهاد،

(١) إعلام الموقعين (٢٤/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

حتى جاء عن أكثر من واحد من علماء السلف: مَنْ لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم أنفه رائحة الفقه^(١)!

وفي مقابل هؤلاء نجد لدى أغلب المشتغلين بالفقه وأصوله ودراساته ضعفاً ظاهراً في الحديث وعلومه ورجاله، حتى إنهم ليستدلون أحياناً بالأحاديث الواهية أو التي لا أصل لها، وقد يردُّون بعض الأحاديث، وهي صحيحة متفق عليها. مع أن من المتفق عليه: أنه لا يمكن أن يقوم اجتهاد صحيح إلا بمعرفة الحديث رواية ودراية، فالسنة هي المصدر الثاني للتشريع في الإسلام.

خامساً: الحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع:

ينبغي أن نحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه، ولم يصنعه المسلمون بإرادتهم وعقولهم وأيديهم، إنما هو واقع صُنِعَ لهم، وفُرضَ عليهم، في زمن غفلة وضعف وتفكك منهم، وزمن قوة ويقظة وتمكن من عدوهم المستعمر، فلم يملكوا أيامها أن يغيروه أو يتخلصوا منه، ثم ورثه الأبناء من الآباء، والأحفاد من الأجداد، وبقي الأمر كما كان.

فليس معنى الاجتهاد أن نحاول تبرير هذا الواقع على ما به، وجر النصوص من تلايبيها لتأييده، وافتعال الفتاوى لإضفاء الشرعية على وجوده، والاعتراف بنسبه مع أنه دعيٌّ زنيماً. إن الواجب أن يخضع الواقع للشرع، لا أن يخضع الشرع للواقع، لأن الشرع يمثل كلمة الله، وكلمة الله هي العليا أبداً.

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٢٣)، عن هشام بن عبيد الله الرازي.

سادسًا: الترحيب بالجديد النافع:

لا ينبغي أن نجعل أكبر همّنا مقاومة كل جديد، وإن كان نافعًا، ولا مطاردة كل غريب وإن كان صالحًا، وإنما يجب أن نفرق بين ما يحسن اقتباسه وما لا يحسن، وما يجب مقاومته وما لا يجب، وأن نميّز بين ما يلزم فيه الثبات والتشدد، وما تقبل فيه المرونة والتطور.

ومعنى هذا أن نميز بين الأصول والفروع، وبين الكليات والجزئيات، وبين الغايات والوسائل، ففي الأولى نكون في صلابة الحديد، وفي الثانية نكون في ليونة الحرير، كما قال إقبال رَحِمَهُ اللهُ، مرحبين بكل جديد نافع، محتفظين بكل قديم صالح.

سابعًا: ألا نغفل روح العصر وحاجاته:

ألا ننسى أننا في القرن الخامس عشر الهجري، لا في القرن العاشر، ولا ما قبله، وأن لنا حاجاتنا ومشكلاتنا التي لم تعرض لمن قبلنا من سلف الأمة وخلفها، وأننا مطالبون بأن نجتهد لأنفسنا، لا أن يجتهد لنا قوم ماتوا قبلنا بعدة قرون، ولو أنهم عاشوا عصرنا اليوم، وعانوا ما عانينا، لرجعوا عن كثير من أقوالهم، وغيروا كثيرا من اجتهاداتهم، لأنها قيلت لزمانهم، وليس لزماننا.

وقد رأينا أصحاب الأئمة وتلاميذهم يخالفونهم بعد موتهم - وهم متبعون لأصولهم - لتغير العصر اللاحق عن العصر السابق، رغم قرب المدّة، وقصر الزمان.



بل رأينا إماما كالشافعي يغير اجتهاده في عصرين قريبين، قبل أن يستقر في مصر، وبعد أن استقر في مصر، وعرف تاريخ الفقه مذهبه القديم، ومذهبه الجديد، وأصبح معروفا في كتب المذهب: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد.

فكيف بعصرنا، وقد تغير فيه كل شيء، بعد عصر الانقلاب الصناعي، ثم عصر التقدم التكنولوجي، عصر غزو الكواكب والحاسوب (الكمبيوتر)، وثورة الاتصالات والمعلومات، وثورة البيولوجيا التي تكاد تغير مستقبل الإنسان؟!

ثامناً: الانتقال إلى الاجتهاد الجماعي:

ينبغي في القضايا الجديدة الكبيرة ألا نكتفي بالاجتهاد الفردي، وأن نتقل من الاجتهاد الفردي إلى الاجتهاد الجماعي، الذي يتشاور فيه أهل العلم في القضايا المطروحة، وخصوصاً فيما يكون له طابع العموم، ويهم جمهور الناس.

فرأي الجماعة أقرب إلى الصواب من رأي الفرد، مهما علا كعبه في العلم، فقد يلح شخص جانباً في الموضوع لا ينتبه له آخر، وقد يحفظ شخص ما يغيب عن غيره. وقد تبرز المناقشة نقاطاً كانت خافية، أو تجلي أموراً كانت غامضة، أو تذكّر بأشياء كانت منسية، وهذه من بركات الشورى، ومن ثمار العمل الجماعي دائماً: عمل الفريق، أو عمل المؤسسة، وفي الحديث: «يد الله مع الجماعة»^(١).

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦)، وقال: حسن غريب. وصححه الألباني في إصلاح المساجد

(٦١)، عن ابن عباس.

وروى الدارمي والبيهقي عن ميمون بن مهران، فكان أبو بكر إذا لم يجد في القضية كتابًا ولا سنة، دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به^(١).

وكان عمر إذا لم يجد في القضية كتابًا ولا سنة، ولا قضاء من أبي بكر، دعا رؤوس المسلمين وعلمائهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به^(٢).

وروى الدارمي عن المسيب بن رافع قال: «كانوا إذا نزلت بهم قضية ليس فيها من رسول الله ﷺ أمر، اجتمعوا لها وأجمعوا، فالحق فيما رأوا»^(٣). وهذا هو الاجتهاد الجماعي.

هذا الاجتهاد الجماعي يتمثل في صورة مجمع علمي إسلامي عالمي يضم الكفايات العليا من فقهاء المسلمين في العالم، دون نظر إلى إقليمية أو مذهبية، أو جنسية، وإنما يرشح الشخص لعضوية هذا المجمع فقهه وورعه، لا ولاؤه لهذه الحكومة أو ذلك النظام، أو قرابته أو قربته من الحاكم أو الزعيم.

وقد قامت مجامع فقهية: في الأزهر الشريف بمصر، وفي رابطة العالم الإسلامي بمكة، وفي منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة، وقام كلٌّ منها بدور مشكور، ولكنها لا تحقق المجمع الحر الذي نصبو إليه.

(١) رواه الدارمي في المقدمة (١٦٣)، والبيهقي في آداب القاضي (١١٤/١٠)، وإسناده منقطع، ميمون بن مهران لم يدرك أبا بكر.

(٢) رواه البيهقي في آداب القاضي (١١٤/١٠)، إسناده منقطع، ميمون بن مهران لم يدرك عمر.

(٣) رواه الدارمي في المقدمة (١١٦).



على أن هذا الاجتهاد الجماعي لا يقضي على اجتهاد الأفراد ولا يغني عنه، ذلك أن الذي ينير الطريق للاجتهاد الجماعي هو البحوث الأصلية المخدومة التي يقدمها أفراد العلماء من المجتهدين والمقلدين، لتناقش مناقشة جماعية ويصدر فيها بعد البحث والحوار قرار المجمع المذكور بالإجماع أو الأغلبية.

تاسعاً: لنفسح صدورنا لخطأ المجتهد:

لا بد أن تتسع صدورنا لأخطاء المجتهدين، كما اتسعت صدور الأولين، فالمجتهد بشر يفكر ويستنبط، ويخطئ ويصيب، ولن يكون مجتهدو اليوم أفضل من مجتهدي الأمس، وقد وسع بعضهم بعضاً فيما رأوا أنهم أخطؤوا فيه. وهكذا ينبغي أن يكون موقفنا من المجتهد إذا افترضنا أنه أخطأ، وتبين لنا خطؤه بيقين. وذلك منوط بشرطين:

١ - أن يملك أدوات الاجتهاد - وهي معروفة مذكورة في أصول الفقه - فليس كل من اشتغل بالفقه أو ألّف فيه أو حفظ مجموعة من الأحاديث يعد مجتهداً.

٢ - أن يكون عدلاً مرضي السيرة. وهو ما يطلب في قبول الشاهد في معاملات الناس، فكيف بقبول من يفتي باجتهاده في شريعة الله؟

فهذا إن أخطأ فهو معذور، بل مأجور أجراً واحداً على اجتهاد وتحريه، ومن يدري لعل الرأي الذي يظنه الأكثرون اليوم خطأ هو الصواب بعينه، كما يدل على ذلك تاريخ الاجتهاد وتغير الفتوى.

تلك هي المعالم والضوابط الضرورية في نظرنا، التي ينبغي أن يراعيها الاجتهاد في عصرنا الحافل بثتى التيارات والمؤثرات، سواء كان اجتهاد ترجيح وانتقاء، أم اجتهاد إبداع وإنشاء.

موقف خطابنا الديني:

وآفة خطابنا الديني المعاصر، تتمثل في البعد عن هذا الموقف المتوازن من الاجتهاد، ووقوع هذا الخطاب - إلا ما رحم ربك - بين غلو الجامدين، وتفريط المتسيبين.

الجامدون يريدون أن يجمّدوا كل شيء، وأن يفرضوا على الناس اجتهادات لأزمة مضت، لم تعد تناسب أوضاعهم، أو تحقق مصالحهم. وأوجبوا تقليد عالم أو إمام واحد، يؤخذ بقوله كله إلى يوم القيامة، وإن تغير كل شيء حول الإنسان. وهؤلاء يشنون الغارة على كل من يرى رأياً جديداً أداه إليه اجتهاده، وإن كان من أكبر العلماء. مع أن من المقرر لدى الجميع: أن الله لا يدين الإنسان إلا بما انتهى إليه اجتهاده، ولا يطالبه بأن يتبع اجتهاد غيره كائناً من كان.

وإذا كان هذا شأن الجامدين المقلّدين: فإن هناك فئة أخرى، تريد أن تميّع كل شيء، وأن تحلّ ما حرّم الله، وتسقط ما أوجب الله، وتشعر ما لم يأذن به الله، كل هذا وهم لا يملكون أدوات الاجتهاد، ولا الحد الأدنى من شروطه المتفق عليها.

إنهم يريدون أن يصنعوا للأمة ديناً جديداً، لا يقوم على قرآن ولا سنة. لقد تخلصوا من السنة بإنكارها كلها، ما صح وما لم يصح، إلا ما كان فيها موافقاً لأهوائهم. وأما القرآن، فلا يمكنهم إنكاره، فزعموا أنهم



يقرؤونه قراءة جديدة معاصرة، تنكر تراث الأمة كلها، ولا ترجع إلى حديث نبوي، ولا قول صحابي ولا تابعي، ولا إمام من أئمة المسلمين. ليس لهم مرجعية يعتمدون عليها، إلا ما تمليه أهواؤهم، وأئمتهم من الغرب الذي اتخذوه قبلة لهم، واتخذوهم أربابا من دون الله.

إن الخطاب الديني الراشد يجب أن يتخلى عن نهج هؤلاء وأولئك جميعا، ويسلك سبيل الوسط، وهو سبيل المؤمنين، وبهذا يهتدي إلى صراط الله المستقيم.

* * *





ينكر الإرهاب الممنوع ويؤيد الجهاد المشروع

ومن خصائص الخطاب الإسلامي في عصر العولمة: أنه يوضح الفرق بين الإرهاب الممنوع والجهاد المشروع الذي فرضه الإسلام، ويبين مدى حرص الإسلام على مسالمة مَنْ يسالمة، حرصه على معاداة من يعاديه، فهو ينكر الإرهاب، ويدعو إلى الجهاد.

الإرهاب المرفوض والإرهاب المفروض:

لقد أعلنت أمريكا الحرب على الإرهاب، وجندت العالم الغربي معها - بل تريد أن تجند العالم كله معها، وتجنّدنا نحن العرب المسلمين أيضا - لنحارب ما سمته هي «الإرهاب».

وتركت مفهوم الإرهاب مائعا رجراجا، لتفسره هي كما يحلو لها، وتصف به من تشاء من الدول، ومن تريد من المنظمات والجماعات والأفراد.

فمن غضبت عليه أمريكا لأي سبب - أو لغير سبب - فهو إرهابي أثيم، يجب أن يحارب ويطارد ويُتَعَقَّب، ويعاقب بكل أنواع العقوبات: العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ونحن المسلمين نقرأ في قرآننا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فهذا الإرهاب لأعداء الله وأعداء الأمة مشروع.

إنما الإرهاب غير المشروع هو الذي يروع الأمنين، ويأخذ البراءة بذنوب غيرهم، ولا يبالي ما سفك من دماء، ولا ما دمر من منازل، ولا ما استحل من حرما. وفي مثل هذا جاء الحديث النبوي: «لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً». وقد جاء هذا الحديث في رجل تسبب في فزع مسلم، أخذ منه نبله وهو نائم، على سبيل المداخلة، فانتبه فزعا، فقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً»^(١).

وحتى في الحروب الإسلامية التي تلتحم فيها الجيوش بعضها مع بعض: لا يُقتل إلا من يقاتل، ولما رأى النبي ﷺ: امرأة مقتولة في إحدى الغزوات، أنكر ذلك، وقال: «ما كانت هذه تقاتل»^(٢)! ونهى عن قتل النساء والصبيان^(٣).

فمن هدف إلى قتل أناس أبرياء، لا ناقة لهم ولا جمل في الحرب أو في السياسة، فعمله مجرم ومحظور شرعاً. فهذا موقفنا المبدئي الذي يفرضه الإسلام علينا.

إننا ندين الإرهاب بكل صورته، مهما كانت دوافعه ومنطلقاته خيرة في نظر أصحابه. فمن المعلوم أن الإسلام يرفض الفلسفة التي تقول:

(١) رواه أحمد (٢٣٠٦٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في الأدب (٥٠٠٤)، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد (٥٩٥٩)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٢)، عن حنظلة الكاتب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٣٠١٥)، ومسلم في الجهاد (١٧٤٤)، عن ابن عمر.

الغاية تبرر الوسيلة. فالإسلام يلتزم ويلزم بشرف الغاية وطهر الوسيلة معاً، ولا يجوز بحال الوصول إلى الغايات الشريفة بطرق غير نظيفة، لا يجوز للمسلم أن يأخذ الرشوة مثلاً، أو يختلس المال، ليبني به مسجداً أو يقيم به مشروعاً خيرياً، «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(١).

ونحن كما ندين الإرهاب: ندين العنف وننكره باسم الشرع. ولكن ما العنف الذي ننكره؟ وما الإرهاب؟ وما الفرق بينهما؟ إن تحديد المفاهيم هنا «ضرورة علمية»، حتى لا تبقى هذه الكلمات الخطيرة مائعة هلامية يفسرها كل فريق بما يحلو له، ويتبع هواه.

العنف - فيما أرى -: أن تستخدم فئة القوة المادية في غير موضعها، وتستخدمها بغير ضابط من خُلق أو شرع أو قانون. ومعنى «في غير موضعها»: أن تُستخدم حيث يمكن أن تستخدم الحجة أو الإقناع بالكلمة والدعوة والحوار والتي هي أحسن، وهي حين تستخدم القوة لا تبالي مَنْ تقتل من الناس، ولا تسأل نفسها: أيجوز قتلهم أم لا؟ وهي تعطي نفسها سلطة المفتي والقاضي والشرطي.

هذا هو العنف، أما الإرهاب فهو: أن تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه، وإجبارهم على أن يخضعوا لمطالبك، وإن كانت عادلة في رأيك.

ويدخل في ذلك: خطف الطائرات، فليس بين الخاطف وركاب الطائرة - عادة - قضية، ولا خلاف بينه وبينهم، وإنما يتخذهم وسيلة للضغط على جهة معينة، مثل: حكومة الطائرة المخطوفة، لتحقيق مطالب

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

له: كإطلاق مساجين أو دفع فدية، أو نحو ذلك، وإلا قتلوا مَنْ قتلوا من ركاب الطائرة، أو فجروها بمن فيها.

كما يدخل في ذلك: احتجاز رهائن لديه، لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولكن يتخذهم وسيلة ضغط: لتحقيق مطالبه أو يقتل منهم من يقتل، كما فعلت جماعة «أبو سياف» في جنوبي الفلبين وغيرهم.

ومن ذلك: قتل السياح في مصر، كما في مذبحة الأقصر، لضرب الاقتصاد المصري، للضغط على الحكومة المصرية.

ويدخل في هذا: ما حدث في جزيرة «بالي» في إندونيسيا، فليس هناك مشكلة بين الذين ارتكبوا هذه الجريمة وهؤلاء السياح، ولكن أرادوا إحراج الحكومة الإندونيسية، وإظهار العداء للسياسة الأمريكية والبريطانية.

ومن ذلك: ما حدث في (١١ سبتمبر ٢٠٠١م) في نيويورك وواشنطن، من اختطاف الطائرات المدنية بركابها: من المدنيين الذين ليس بينهم وبين خاطفيها مشكلة أو نزاع، واستخدامها «آلة هجوم» وتفجيرها بمن فيها، للضغط والتأثير على السياسة الأمريكية.

وكذلك ضرب المدنيين البراء: في برج مركز التجارة العالمي في نيويورك، وفيهم: أناس لا علاقة لهم باتخاذ القرار السياسي، وكلهم موظفون يؤدون عملهم اليومي الذي يعيشون منه، ومنهم مسلمون وغيرهم.

وإذا كنا ندين العنف بصفة عامة، فنحن ندين الإرهاب بصفة خاصة، لما فيه من اعتداء على أناس ليس لهم أدنى ذنب يؤاخذون به. ﴿وَلَا تَزِرُ

وَأَزْرَهُ وَزَرَ أُخْرَى ﴿ [الأنعام: ١٦٤]. ولما فيه من ترويع البراء الأمنين، وترويعهم في نظر الإسلام: ظلم عظيم.

وقد أصدرت فتوى - منذ بضعة عشر عامًا - بتحريم خطف الطائرات، وذلك بعد حادثة خطف الطائرة الكويتية، وبقاء ركابها فيها محبوسين: ستة عشر يومًا، كما قتلوا واحدًا أو اثنين من ركابها.

كما أفتيت بتحريم حجز الرهائن والتهديد بقتلهم، إنكارًا على ما اقترفته جماعة «أبو سيف» في جنوبي الفلبين.

وكذلك أصدرت بيانًا - عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر - دنت فيه هذا العمل ومقترفيه، أيا كان دينهم، أو جنسهم أو وطنهم.

وأيضا: دنت الإرهاب بوضوح - في خطبي، ومحاضراتي، ومقالاتي، وكتبي - ومن ذلك: ما ذكرته في كلمتي التي ألقيتها في مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية، الذي عقد في روما في أكتوبر ٢٠٠١م.

وأول إرهاب يجب أن يدان: هو إرهاب الدولة الصهيونية المتجبرة في الأرض، التي بنيت على الإرهاب قبل أن تقوم، وتبنته بعد أن قامت، وهي تستبيح الحرمات، وتستحل سفك الدماء، وتدمير مئات المنازل، وإحراق المزارع، وتجريف الأرض الزراعية، وتخريب كل شيء، فلا تتورع عن قتل طفل صغير، أو شيخ كبير أو امرأة في بيتها.

ولكن ليس من الإرهاب في شيء: أن يدافع الإنسان عن وطنه، ويقاتل محتليه وغاصبيه، المعتدين عليه، المستندين إلى ترسانتهم العسكرية الجبارة، وأن يقاتل أعداءه بما يملكه من قوة، فيضع روحه على كفه، ويضحى بنفسه فداءً لأُمته وقضيته، في مواجهة المدلين بالقوة الطاغية، دفاعًا عن النفس والدين والأرض والعرض والمقدسات.

فإذا كان النظام العالمي الجديد جادا حقاً في محاربة الإرهاب، فعليه أن يدين الإرهاب الحقيقي أولاً، وأن يقلّم أظفاره، ويخمد ناره، وأن يقف بجوار الشعوب المقهورة، التي تقاوم عدوها المحتل لأرضها بما تستطيعه وتملكه من وسائل وأدوات، هي جهد المقل، وطاقة العاجز.

ومن ذلك: أن نبحث عن أسباب الإرهاب في العالم، ونجتهد أن نجتثها من جذورها، وأعظم أسباب الإرهاب هو: الظلم والطغيان والاستكبار في الأرض على الناس المستضعفين الذين لا يستطيعون حلية ولا يهتدون سبيلاً.

الإرهاب ظاهرة عالمية:

ولكن هنا يحق لنا أن نسأل عن العنف والإرهاب: هل هو ظاهرة إسلامية؟ أو هو ظاهرة عالمية؟ فبعض أبواق الإعلام الغربي - ومن يدور في فلكها في ديارنا - تريد أن تبرز الإرهاب، وكأنه مقصور على المسلمين، أو كأن جنسيته إسلامية، وخصوصاً بعد أحداث (١١ سبتمبر)، وهذا خطأ فاحش، بل ظلم مبین.

لقد وجدنا العنف في أقطار ودول شتى في أنحاء العالم. لقد وجدناه في كل القارات: في بريطانيا، وفي اليابان، وفي أمريكا نفسها، وفي الهند، وفي إسرائيل. فلماذا ألصق بالمسلمين وحدهم دون غيرهم؟ إنه الإعلام الغربي والأمريكي والصهيوني، الذي يكتم الحق، ويشيع الباطل. ويقولون على الناس الكذب وهو يعلمون.

والحق أن أمريكا التي ساندت الدولة التي قامت على الدم والإرهاب من أول يوم، ومن قبل أن تقوم: دولة بني صهيون، تمارس هي نوعاً من

الإرهاب على العالم كله، وإن لم تسمه إرهاباً. فهي تحدد الإرهاب كما تشاء، وبلا معقب، معلنة: أن من ليس معها، فهو مع الإرهاب!

الجهاد المشروع ومعناه:

إذا كان الخطاب الإسلامي ينكر الإرهاب بالباطل، فإنه يؤيد «الجهاد» بالحق وللحق.

وكثيراً ما فهم مصطلح الجهاد خطأ، في داخل الدائرة الإسلامية، وخارج الدائرة الإسلامية.

فمن بين المسلمين من حصر الجهاد في القتال، فالجهاد عندهم هو: حمل السيف لقتال أعداء الإسلام، وكثيراً ما يتصور أعداء الإسلام حكام وطنه، أو المخالفين له في العقيدة ولو كان من أبناء وطنه، بل ربما يتهم كثيراً من عوام المسلمين بالكفر، ويستحل دماءهم بغير حق، ويشهر عليهم السيف.

لقد رأينا الجماعات التي نسبت نفسها إلى الجهاد، وسميت «جماعة الجهاد» في عدد من البلاد الإسلامية، تستبيح قتل المسلمين الأبرياء، حتى أصدر بعضهم «فتوى عظيمة الشأن في جواز قتل الأطفال والنسوان»! يعني من المسلمين.

وخارج الدائرة الإسلامية وجدنا من يتصور الجهاد على أنه قتال الناس جميعاً لإكراههم على الدخول في الإسلام، أو إخضاعهم قسراً لحكم المسلمين.

والحق: أن كلمة «الجهاد» تعني بذل الجُهد (الوسع)، أو تحمل الجُهد (المشقة) في نصرة الحق والخير، ومقاومة الباطل والشر والفساد بكل وسيلة مشروعة، بدءاً بالنفس، وانتهاء بالعالم.

الفرق بين الجهاد والقتال:

فكلمة «الجهاد» أوسع بكثير من كلمة «القتال». وكل مسلم يجب أن يكون مجاهداً، وليس من الضروري أن يكون مقاتلاً، لأن القتال إنما يجب بأسبابه.

فالقرآن يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. فجعل الجهاد من لوازم الإيمان.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥]. فأمر الجهاد كما أمر بالتقوى، وصيغة الأمر في القرآن تقتضي الوجوب.

ولم يكتفِ بمجرد الأمر بالجهاد، بل أمر بالجهاد حق الجهاد، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨]. وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتنبكم.

فقسم هنا مهمة الجماعة المؤمنة إلى ثلاث شعب: شعبة تحدد العلاقة بالله تعالى، وتتمثل في الركوع والسجود وعبادة الله تعالى. وشعبة تحدد العلاقة بالمجتمع، وتتمثل في فعل الخير، وشعبة تحدد العلاقة بقوى الشر، وتتمثل في الجهاد. ولم يكتفِ القرآن بأي جهاد، بل قال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾. وحق الجهاد هو الذي يبذل الإنسان فيه أقصى جهده لنصرة الحق، ومقاومة الباطل، وإشاعة الخير، ومطاردة الشر.



غاية الجهاد:

والمهم: أن يكون هذا الجهاد ﴿فِي اللَّهِ﴾، أي في سبيله، وابتغاء مرضاته، وقد فسر الرسول ذلك في القتال فقال: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١). وكلمة الله، هي: كلمة الحق والعدل، والخير والمعروف.

مراتب الجهاد وأنواعه:

لقد قسم الإمام ابن القيم الجهاد إلى ثلاث عشرة مرتبة، منها: أربع في جهاد النفس، ومربتان في جهاد الشيطان، وثلاث مراتب في جهاد المظالم والفساد والمنكرات في المجتمع، باليد أو باللسان، أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان. وأربع مراتب لجهاد الكفار والمنافقين: باليد واللسان والمال. وإن كان جهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وفي هذا قال عليه السلام: «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»^(٢)، وقال: «المجاهد من جاهد هواه»^(٣)، «أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر»^(٤)، وقال عن أمراء السوء الذين يقولون

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٢٨١٠)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) رواه أحمد (١٢٢٤٦)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦)، كلاهما في الجهاد، وابن حبان في السير (٤٧٠٨)، والحاكم في الجهاد (٨١/٢)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن أنس.

(٣) رواه أحمد (٢٣٩٦٥)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢١)، وقال: حسن صحيح. بلفظ: «المجاهد من جاهد نفسه في سبيل الله». عن فضالة بن عبيد الله.

(٤) رواه أحمد (١٨٨٢٨)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في البيعة (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب.

ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون: «مَنْ جَاهِدْهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهِدْهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهِدْهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»^(١).

وإذا تأملنا في السيرة النبوية، رأينا أن رسول ﷺ، وأصحابه، عاشوا ثلاثة عشر عامًا في مكة مجاهدين، ولم يكونوا فيها مقاتلين: بل كانوا يُنْهَوْنَ عن حمل السيف، ولو كان دفاعاً عن أنفسهم أمام عدوان مشركي قريش على حرياتهم وعلى حرمتهم. وكانوا يأتون النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج ومجروح، قائلين له: ائذن لنا أن نحمل السلاح دفاعاً عن أنفسنا. فيقول لهم: «لم أؤمر بذلك»^(٢). ويوصيهم بالصبر وانتظار الفرج.

ولم يأتِ الإذن بالقتال إلا بعد الهجرة إلى المدينة، ونزول قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

جهاد الدعوة والتبليغ:

كان جهاد الرسول وأصحابه في مكة: جهاد الدعوة وتبليغها لأناس مصرين على عقائدهم التي ورثوها عن آبائهم، قائلين: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

(١) رواه مسلم في الإيمان (٥٠)، وأحمد (٤٣٧٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٣٨٢)، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، نشر دار الوطن،

الرياض، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

ولقد اعتبر القرآن جهاد الدعوة والبيان: «جهادًا كبيرًا» كما جاء في سورة الفرقان، حيث قال الله تعالى لرسوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ - أَيِ الْقُرْآنِ - جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذا الجهاد باقٍ إلى يوم القيامة، ووسائله اليوم كثيرة من الإذاعات الموجهة، والقنوات الفضائية، وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) وغيرها، ولم تَقُمْ الأمة بواحد على الألف مما يجب عليها في هذا الجهاد.

جهاد الصبر والثبات:

وهناك جهاد آخر، عاناه الرسول وصحبه في مكة، وهو جهاد الصبر واحتمال الأذى، والثبات في مواجهة تحدي قوى الكفر المعتدية بالفتنة واضطهاد المؤمنين. وفي هذا نزلت الآيات الأولى في سورة العنكبوت وهي مكية: ﴿الْمَ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، إلى أن قال: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٦].

وفي سورة النحل، وهي مكية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

السعي على المعيشة جهاد:

وإن مما يستلقت الانتباه في السنة النبوية: أن نجد نبي الإسلام يوسع دائرة الجهاد في سبيل الله، حتى تشمل سعي الإنسان على معاشه،

ومشييه في مناكب الأرض، ينشد الرزق لنفسه أو لأسرته. فعن كعب بن عجرة قال: مرّ على النبي ﷺ، رجل، فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله؛ لو كان جلده ونشاطه في سبيل الله! (يعنون: في الجهاد والقتال). فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان»^(١).

وهكذا جعل الرسول الكريم كدح المرء في كسب عيشه: ضرباً من الجهاد. ولا غرو أن قرن القرآن الضرب في الأرض بالقتال في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرُجُوا يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

تنمية قدرات الأمة العلمية والاقتصادية جهاد:

ونستطيع أن نقول: إن سعي الأمة في تنمية اقتصادها، ورفع مستواها، وتحسين عيشها: يُعدُّ أيضاً ضرباً من الجهاد في سبيل الله. بل الواقع: أن كل علم يؤدي إلى قوة الأمة، وقدرتها العلمية والاقتصادية والعسكرية: يُعدُّ لونا من الجهاد.

فالجهاد لا يؤدي وظيفته في الحفاظ على الأمة، وحماية دينها وعرضها وأرضها ومقدساتها من كل معتد عليها أو طامع فيها، إلا إذا سبقه أمور

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩/١٩)، وفي الأوسط (٦٨٣٥)، وفي الصغير (٩٤٠)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣٥/٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧٠٩): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجاله الكبار رجال الصحيح.



لا بد أن تتوافر للأمة، مثل: صحة أبنائها، وقدرتهم البدنية، وقوتها الاقتصادية بحيث تتحمل تبعات الجهاد، وتبعات الحرب، وقدرتها العلمية والتكنولوجية، حتى تعد للأعداء ما تستطيع من قوة ومن رباط الخيل. وهذه تتطلب مراكز للبحث، ومؤسسات علمية متطورة، وطاقات - كوادر بشرية - حتى تكون قادرة على مواجهة أعدائها بقوتها الذاتية. والقاعدة الشرعية تقول: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ومن هنا كانت هذه الأمور كلها واجبة شرعا، ولازمة دينا، لأن واجب الجهاد لا يتم إلا بها.

الجهاد بمعنى القتال:

وأما الجهاد بمعنى القتال، فهو أنواع: منه ما سماه الفقهاء: جهاد الطلب. ومنه: ما سموه: جهاد الدفع. ومنه ما يمكن أن نسميه: جهاد الإعداد والإرصاد.

١ - جهاد الطلب (الحرب الوقائية):

فأما جهاد الطلب - وهو الذي ذكره الفقهاء: أنه فرض كفاية على الأمة، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقيين - فيقصد به: الجهاد الذي يطلب العدو في أرضه، لتأديبه على جريمة ارتكبتها في حق الإسلام أو المسلمين، مثل: التصدي لمقاومة الدعوة الإسلامية، أو قتل دعائها، أو فتنه المؤمنين بها، واضطهادهم في دينهم، أو الاعتداء على المستضعفين الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم من الرجال أو النساء أو الولدان، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فهذا الجهاد هو في ظاهره طلب للعدو في أرضه، ولكنه في الحقيقة دفاع عن الذات: عن الدين والدولة، وحقوق الإنسان، وحقه في اعتناق ما يرضى من الدين. كما قال

تعالى: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَضْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ^٤ وَالْفِئْتَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿أَلَا نُقَاتِلُوكَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣].

وجهاد الطلب هذا يشمل: ما يسمونه في عصرنا «الحرب الوقائية» التي تقوم بها بعض الدول، إذا وجدت بعض خصومها أو المتربصين بها، يعدون العدة لغزوتها وتهديدها في عقر دارها، فتقوم بضربات استباقية، من باب الوقاية لحدودها، والحماية لسيادتها.

٢ - جهاد الدفع (مقاومة المحتلين):

وأما جهاد الدفع، فهو الجهاد الذي تدفع به الأمة عدوا غزاها في أرضها، فهي تقاومه حتى لا يدخل، أو يتوغل، وإذا دخل فهي تطارده حتى يجلو عن أرضها ويرحل.

فهذا النوع من الجهاد هو جهاد المقاومة والتحرير لأرض الإسلام من الغزاة، وقد أجمع فقهاء الإسلام على أنه فرض عين على كل بلد غزاه واحتله، بحيث يجب على أهله جميعاً أن ينفروا لمقاومته، كل بما يكلف به ويقدر عليه. وتسقط هنا الحقوق الفردية لتعارضها مع الحق العام للأمة، فلا يحتاج الابن إلى إذن أبويه، ولا المرأة إلى إذن زوجها، ولا الخادم إلى إذن سيده، لأن حق الأمة - وهو حق الله وحق الإسلام - مقدّم على حق الفرد.

وعلى سائر المسلمين معاونة هؤلاء المعتدى عليهم بكل ما يحتاجون إليه من مال وسلاح ورجال وعتاد، فالمسلمون أمة واحدة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وإذا عجز أهل البلد عن مقاومة الغزاة: انتقل واجب الجهاد والمقاومة على مَنْ يليهم من جيرانهم المسلمين، الأقرب فالأقرب، ثم على مَنْ يليهم، حتى يشمل المسلمين كافة، لأن تحرير الأرض الإسلامية: فريضة على الأمة كلها بالتضامن.

وكما أن واجب الجهاد ينتقل من مقاومي الغزاة عند عجزهم إلى مَنْ يليهم، فهو ينتقل أيضا إليهم عند تقاعس المقاومين وقعودهم عن الجهاد الواجب. ولا يقال: إنهم إذا قعدوا عن الدفاع عن أراضيهم فلا يستحقون أن ندافع عنهم، فنكون «ملكيين أكثر من الملك» كما يقال؛ ذلك لأن أرضهم هذه هي أرض الإسلام، أي أرض الأمة كلها، لا يجوز التفريط فيها بحال، لأنها إذا ضاعت على الأمة، وكانت الخسارة والمصيبة على الأمة كلها.

وهذا الجهاد هو الذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَأَلْفَنَّهُ أَشَدَّ مِّنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

٣ - جهاد الإعداد والإرصاء:

وأما جهاد الإعداد والإرصاء، فلم يسمّه الفقهاء بهذا الاسم نصّاً، ولكنني أخذته من كلامهم، فقد ذكروا في الجهاد الذي هو فرض كفاية على الأمة: جهاد الطلب، وهو قصد العدو في داره، وتتبعه في أرضه، مرة في كل سنة. وذكروا بديلاً عن هذا القصد أو الغزو، بحيث يسقط فرض الكفاية عن الأمة، وهو: شحن الثغور ومواطن الخوف أو الخطر

بالمقاتلين الأكفء المدربين، وإمدادهم بكل ما يحتاجون إليه من عدد وأسلحة ومركبات، ترهب العدو، وتشعره بقوة المسلمين، وتؤسسه من مجرد التفكير في غزو المسلمين؛ لأنهم لو حاولوا ذلك لوجدوا القوات المسلحة الإسلامية لهم بالمرصاد، ولكالوا لهم الصاع صاعين، وبذلك يعلمون أن لحم المسلمين مُر، وأن حماهم غير مستباح. وهذا ما قرره علماء الشافعية والحنفية.

وهذا الإعداد والإرصاد امتثال لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ورباط الخيل في عصرنا: يعني: إعداد المصفحات والمجنزرات والدبابات وغيرها من الآليات، فهذه هي خيل العصر.

وقد أحسن الفقهاء حين قالوا: إن هذا الإعداد والإرصاد - وما يلزمه ويسبقه من الإعداد العلمي والتكنولوجي والاقتصادي والتنموي - يكفي عن الغزو ويقوم مقامه في كسر شوكة الأعداء، وإخماد جذوتهم، وقطع أطماعهم من المسلمين.

ومن روائع ما جاء في آية «إعداد القوة»: أنه علّل ذلك بقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. فإن العدو إذا رأى ما أعددت له من سلاح ورجال وحسن تدريب، فكّر ألف مرة قبل أن يقترب منكم أو يمس طرفكم، رهبة منكم، وخوفا من قوتكم. وهذا ما يحفظ السلام بينه وبينكم. وهذا ما يعبرون عنه بـ «السلم المسلّح». وبهذا ينجو الطرفان من ويلات الحرب وآثارها على الإنسان والحياة.



رغبة الإسلام في السلم:

وهذا يتفق مع رغبة الإسلام في «السلم» وحرصه عليه، فهو لا يخوض الحرب إلا مكرها، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أما إذا انتهت الخصومة بين الطرفين بغير صدام ولا دماء ولا قتال، كما حدث في غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب، فالقرآن يرى ذلك خيرا ونعمة، ويذكر ذلك في معرض الامتنان من الله على عباده المؤمنين، كما قال تعالى معلقا على الغزوة المذكورة: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وكذلك تعليق القرآن على «صلح الحديبية» - بعد أن كادت المعركة تشب نارها - بإنزال سورة الفتح، وفيها يقول تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١]، ويسأل عمر: أفتح هو، يا رسول الله؟ فيقول: «نعم هو فتح»^(١). لم يتصور عمر فتحا بغير حرب.

وقال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(٢).

فهو يربي المسلم على حب السلام، وسؤال العافية والسلامة من ربه، وعدم تمنّي لقاء العدو في معركة، ولكن إذا اضطر إلى المعركة كان رجلا، وتسليح بالصبر والمصابرة وحب الشهادة في سبيل الله.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٨٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨٥)، عن سهل بن حنيف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن ابن أبي أوفى.

وروى النسائي وغيره أيضًا: «اتركوا التُّرك ما تركوكم، ودعوا الحبشة ما ودعوكم»^(١)، فإذا لم يبدؤوا المسلمين، لم يبدأهم المسلمون، وتركوهم وشأنهم.

بل إن الرسول كان يكره مجرد كلمة «حرب» ولا يحبُّ أن يسمعها، فقد علّم أصحابه قائلًا: «أحبُّ الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن. وأصدق الأسماء: حارث وهمام. وأقبح الأسماء: حرب ومرة»^(٢). وكان العرب في الجاهلية يسمون أبناءهم حربا ومرة، فكره للمسلمين أن يسموا أبناءهم بذلك، حتى لا يتعودوا سماع كلمة «حرب»، وكفى بهذا حرصا على السلام.

وحتى لو اضطر المسلمون إلى الحرب، ثم مال العدو إلى المهادنة والمسالمة، فالمسمون مطالبون أن يجيبوه إلى ذلك بأمر من ربهم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴿[الأنفال: ٦١، ٦٢].

موقف خطابنا الديني:

لا شك في أن خطابنا الديني في قضية الجهاد وما يتعلق به، قد دخله كثير من الخلل عند عدد من الفصائل المنسوبة إلى الإسلام، وجرت بسبب ذلك أحداث دامية في عدد من بلاد الإسلام. وأريقت

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٠٢)، والنسائي في الجهاد (٣١٧٦)، وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٢٩٧٦)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) رواه أحمد (١٩٠٣٢)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الأدب (٤٩٥٠)، والنسائي في الخيل (٣٥٦٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٠٤، ١٠٤٠)، عن أبي وهب الجشمي. وعلل الإمام الخطابي قبح اسم «حرب» لما في الحرب من المكاره.

دماء، واستبيحت حرمت بغير حق، وغلب العنف على الرفق، والقسوة على الرحمة.

ولكن بعض هذه الجماعات قد أعلنت في شجاعة الرجوع عن موقفها، والاعتذار عما وقع منها، وهذا ما فعلته «الجماعة الإسلامية» في مصر، التي يتزعمها الشيخ عمر عبد الرحمن فكَّ الله أسره، فقد أصدرت أربعَ كُتُبٍ تصحح فيها مفاهيمها القديمة، وتخرج عن إطارها التقليدي، حتى إنهم نقلوا من كتبي صفحات وصفحات، وكانت كُتُبي من المحرمات عندهم.

ومن الواجب على السلطة والمجتمع أن يشجعوا هذه الجماعة، ويقبلوا توبتها، كما يقبل الله التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويبدل سيئاتهم حسنات.

ولا تزال بعض الجماعات مُصرّة على مواقفها، معلنة الحرب على من حولها، كما ظهر ذلك في عدد من البلاد، مثل: الرياض والرباط واليمن وغيرها، حتى وجدنا بعض هؤلاء يطلق النار على من يصلون في المساجد!

وعلينا ألا نئس من هؤلاء ونحاربهم، فقد جربنا أنهم في النهاية سيندمون ويراجعون كما راجع غيرهم، ولكن للأسف لا يستفيد أحد من تاريخ من سبقه. لا بد أن يبدأ من الصفر، ويخوض التجربة بنفسه، ويرى بالممارسة أن لا جدوى للعنف، ولا تجنى من ورائه ثمرة قط، إلا سفك الدماء، وخراب الديار، وجلب السخط واللعنة على من قام به.

ولكن يجب أن نذكر هنا: أن من الضلال المبين، والظلم الشنيع: اعتبار المجاهدين بحق، الذين يدافعون عن أوطانهم ومقدساتهم

وحرماتهم وبيوتهم ومزارعهم وحياتهم المهددة من قبل المحتلين الطغاة، اعتبارهم إرهابيين مجرمين! في حين يُعتبر القتل السفّاحون أبرياء أطهارًا أبرارًا يدافعون عن أنفسهم!

إن هذا هو القلب المتعمّد للحقائق، والوقوف المتحيز مع الباطل المتجبر، ومع الغاصب الظالم، ومع المحتل الآثم.

ومثل هذا المنطق الجائر المتعجرف لا يساهم في حل المشكلات، ولكنه لن يزيد النار إلا اشتعالًا، ولا الجسم إلا اعتلالًا. والحل إنما هو في نصرّة الحق، والقيام بالقسط الذي بعث الله به رسله، وأنزل كتبه ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وبه قامت السماوات والأرض.

* * *

ينصف المرأة ولا يجور على الرجل

الإسلام يحرم المرأة من ظلم الجاهلية:

ومن خصائص خطابنا الإسلامي في عصر العولمة: أنه ينصف المرأة، ويقف بجانبها، ويحررها من ظلم الجاهليات المختلفة، سواء كانت جاهلية عصور التخلف والتراجع الحضاري عند المسلمين، حين حبسوها في البيت، وحرموها عليها أن تذهب إلى المسجد، أو المدرسة أو الكُتَّاب، وزوجوها بغير إذنهما، وحرموها في كثير من البلاد من ميراثها، وأشاعوا حولها أحاديث مكذوبة مثل: «شاوروهن وخالفوهن»^(١)، ومثل: «لا تسكنوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة»^(٢).

أم كانت جاهلية القرن العشرين الوافدة من الغرب، التي تريد أن تخرج المرأة من فطرتها، وأن تسلخها من جلدها، وأن تجعل منها رجلاً أو كالرجل، وأن تبيح لها كل شيء، وأن تجعلها تتمرد على الزوجية

(١) قال السخاوي المقاصد الحسنة: لم أره مرفوعاً... وقد استشار النبي ﷺ، أم سلمة كما في قصة صلح الحديبية، وصار دليلاً لجواز استشارة المرأة الفاضلة لفضل أم سلمة ووفور عقلها (٥٨٥). وقال الألباني في الضعيفة: لا أصل له (٤٣٠).

(٢) رواه الحاكم في التفسير (٣٩٦/٢)، وصحح إسناده، وتعقبه الذهبي: بل موضوع. والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٧) قال: وهذا بهذا الإسناد منكر. عن عائشة.

وعلى الأمومة، وعلى الأنوثة، وتحريضها على التبرج والعري، والتمرد على الأسرة وأعبائها، والاكتفاء بزواج النساء بالنساء، إلخ.

الخطاب الإسلامي يتبنى موقفا غير موقف هؤلاء وهؤلاء، وهو موقف يستمدّه من فهمه المتوازن للإسلام، من ينايحه الصافية: من كتاب الإسلام، ومن سنة نبي الإسلام، ومن هدي صحابة الرسول الكرام، وهو موقف يعطي المرأة حقّها، كما يعطي الرجل حقّه. كما يطالب كلاّ منهما بواجبه، ولا يعتبر هناك صراعا بينهما.

ومن أين يأتي الصراع؟ فالمرأة هي أم الرجل، وهي ابنته، وهي زوجته، وهي أخته، وهي عمته وخالته، لماذا يفترض الناس خصومة أو معركة بينهما؟!

إن هذه الخصومة بعيدة كلّ البعد عن العقيدة الإسلامية، وعن الشريعة الإسلامية، وعن الحضارة الإسلامية. ربما كان ذلك في نحل أو فلسفات أخرى تنظر إلى المرأة نظرة فيها توجس أو ريبة.

الإسلام ينصف المرأة إنسانا:

جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانية المرأة، وآخرون يرتابون فيها، وغيرهم يعترف بإنسانيتها، ولكنه يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل.

فكان من فضل الإسلام أنه كرّم المرأة، وأكّد إنسانيتها، وأهلّيتها للتكليف والمسؤولية والجزاء ودخول الجنة، وعدّها إنساناً كريماً، له كل ما للرجل من حقوق إنسانية. لأنهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء.

فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكليف والمسؤولية، متساويان في الجزاء والمصير.

وفي ذلك يقول القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وإذا كان الناس - كل الناس - رجالاً ونساءً، خلقهم ربهم من نفس واحدة، وجعل من هذه النفس زوجاً تكمّلها وتكمل بها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وبثّ من هذه الأسرة الواحدة رجالاً كثيراً ونساءً، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد لأب واحد وأم واحدة، فالأخوة تجمعهم.

ولهذا أمرت الآية الناس بتقوى الله - ربهم - ورعاية الرحم الواشجة بينهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾. فالرجل - بهذا النص - أخو المرأة، والمرأة شقيقة الرجل. وفي هذا قال الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»^(١).

وفي مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة، يقول القرآن: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) رواه أحمد (٢٦١٩٥)، وقال مخرجه: حسن لغيره. ورواه أبو داود (٢٣٦)، والترمذي (١١٣)، كلاهما في الطهارة، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٥)، عن عائشة.

وفي التكليف الدينية والاجتماعية الأساسية يسوّي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي قصة آدم توجّه التكليف الإلهي إليه وإلى زوجته سواء: ﴿يَتَّخِذُ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]. ولكن الجديد في هذه القصة - كما ذكرها القرآن - أنها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء، كما فعلت التوراة: ﴿فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معا، كما كان الندم والتوبة منهما جميعا: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، كما نسب إليه التوبة وحده أيضا: ﴿ثُمَّ اجْبَنَّهُ رَبُّهُ فَغَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]، مما يفيد أنه الأصل في المعصية، والمرأة له تبع.

ومهما يكن الأمر فإن خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها براء من إثمها، ولا تزر وازرة وزر أخرى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء ودخول الجنة يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ

بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩٥]. فنص القرآن في صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى، فالجميع بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة. الرجل من المرأة، والمرأة من الرجل، هو يكملها، وهي تكمله، لا يستغني عنها، ولا تستغني عنه، وهذا معنى ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾.

ويقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وفي الحقوق المالية للمرأة، أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم - عرباً وعجماً - من حرمان النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهن في التصرف فيما يملكن، واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة. فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن، وغير ذلك من العقود والأعمال.

ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها - كالدفاع عن نفسها - بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة.

كما جعل للمرأة حق طلب العلم كالرجل، بل الواقع أنه قرر أن طلب العلم فريضة عليها. كما جاء في الحديث: «طلب العلم فريضة

على كل مسلم»^(١). والمراد كل إنسان مسلم، رجلاً كان أو امرأة، وهذا بالإجماع.

وكذلك للمرأة حق صلاة الجماعة في المسجد، فهي مطالبة بالفرائض والعبادات كما يطالب الرجل: الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر أركان الإسلام. وهي مثابة عليها كما يثاب الرجل، وهي معاقبة على تركها كما يعاقب الرجل، وهي مطالبة بالواجبات الاجتماعية كما يطالب الرجل، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن حقها أن تجبر من استجار بها، وأن تحترم إجارته، كما فعلت أم هانئ بنت أبي طالب يوم فتح مكة، فقد أجارت بعض المشركين من أحمائها، وأرد أخوها علي أن يقتله، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ، وقالت: يا رسول الله؛ زعم ابن أمي أنه قاتل رجلاً قد أجرته: فلان ابن هبيرة! فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»^(٢).

المرأة بنتاً:

وكما كرم الإسلام المرأة وأنصفها إنساناً: كرمها وأنصفها بنتاً، فراها هبة من الله، ولم يرها شؤماً ولا نكبة كما كان العرب يفعلون في الجاهلية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ينورى من القوم من سوء ما بُشِّرَ بِهِ [النحل: ٥٨، ٥٩].

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة (٢٢٤)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، والطبراني في الأوسط (٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٣)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٣٦)، عن أم هانئ.

ويكفي أن الإسلام حمى البنت من «الوَاد» الذي حرّمه أشد التحريم، ورآه من كبائر الإثم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

بل عدّ القرآن البنت هبة ونعمة من الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩].

ولم يجعل الإسلام لأبيها الحق في أن يزوجهها بغير رضاها، بل لا بد من استئذنها فيمن تتزوجه، وموافقتها عليه، ولو بالسكوت، إن منعها الحياء من الكلام.

المرأة زوجة:

وكما كرم الإسلام المرأة وأنصفها بنتاً: كرمها وأنصفها زوجة، وجعل لها من الحقوق على الزوج مثل ما عليها من الواجبات له، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي أن الحقوق والواجبات متكافئان بين الطرفين، ولكن عبء الرجال أكبر، لما عليهم من القيام بمسؤولية القوامة على الأسرة. كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذه القوامة على الأسرة لا تعني استبداد الرجل بالمرأة، ورؤية الزوجة كمّاً مهماً، لا يشاورها في أمر، ولا يشركها في شيء، فهذا ينافي أمر المؤمنين عامة بالتعاون على البر والتقوى، ووصف مجتمعهم بقوله: ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقوله تعالى في حالة فطام الأطفال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقد بيّن القرآن أن الزوجية: آية من آيات الله في كونه، مثل خلق السماوات والأرض، وأقامها على دعائم ثلاث: السكون النفسي، المودة - أي عاطفة المحبة - والرحمة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

كما عبر القرآن عن العلاقة الجنسية بين الزوجين تعبيراً جميلاً حين قال وهو يتحدث عن عبادة الصيام وأحكامه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. وكم لهذه العبارة البليغة من معنى جميل توحى به كلمة «اللباس»، فهي تشير إلى القرب والالصق والدفء والزينة والستر والوقاية، من كل منهما لصاحبه. ويحرص الإسلام على أن تستمر الحياة الزوجية في هدوء وسكينة، وألا يعكر صفوها شيء، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فقد جرت سنة الله أن يحدث الاختلاف، وقد شرع الإسلام علاج الخلاف بوسائل شتى، ولكن إذا لم تُجد هذه الوسائل، فأخر الدواء الكي، وليس هناك إلا الطلاق عند تعذر الوفاق. ولا يفرض الإسلام على الزوجين أن يعيشا تحت سقف واحد، وبينهما من الكراهية ما بينهما. وقد قال أحد الحكماء: إن من أعظم المصائب مصاحبة من لا يوفئك ولا يفارقك!

نصح الإسلام كلا الزوجين بالصبر على الآخر، وألا يستجيب لعاطفة الكراهية أول ما يحس بها، كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ولكن قد يطفح الكيل، ولا نجد حلاً غير هذه العملية الجراحية التي نضطر إليها، دفعاً لألمٍ مُحققٍ أو تفادياً لما هو أخطر منها.

وقد ضيق الإسلام في إيقاع الطلاق؛ في وقته: بأن يكون في طهر لم يمسه فيها. وفي عدده: فجعل أقصاه ثلاث مرات، ثم لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره زوجاً طبعياً، ويطلقها الآخر طلاقاً طبعياً. وفي حالة وقوعه: بأن يكون في حالة اختيار ورضا، لا في حالة إكراه أو غضب شديد، لما جاء في الحديث: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق»^(١).

ثم جعل الشرع للمطلقة حق النفقة مدة العدة، وحق المتعة بالمعروف، هذه تختلف من زوجة لأخرى، فالزوجة التي عاش معها عشرين أو ثلاثين سنة، ليست كالتى عاش معها بضعة أشهر.

وكما أن للزوج حق الطلاق إذا كره المرأة، ولم يستطع الصبر عليها كما أمر الله، فإن للمرأة مخارج شرعية للتخلص من الزوج إذا كرهته، أو إذا ضارها وأذاها.

ففي حالة كراهيتها له، أعطاهما الشرع حق الخلع، فتفدي نفسها منه بأن تدفع له ما غرم عليها من مهر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَاقِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ولكن إن كان هو الكاره لها، فلا يحل له أن يأخذ منها فلساً واحداً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْمًا مُبِيناً﴾ [النساء: ٢٠].

(١) رواه أحمد (٢٦٣٦٠)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٢١٩٣)، وابن ماجه (٢٠٤٦)، والحاكم (١٩٨/٢)، ثلاثهم في الطلاق، وصححه على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي فقال: محمد بن عبيد لم يحتج به مسلم، وقال أبو حاتم: ضعيف. قلت: أما محمد بن عبيد فقد ذكره ابن حبان في الثقات كما في التهذيب، فليس مجمعا على تضعيفه. وأقر ابن القيم الحاكم، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٦٥)، عن عائشة. والحديث لا ينزل عندي عن درجة القبول، وقد تعرضت له بالتفصيل في كتابنا: فتاوى معاصرة (٦١٨/٤)، فتوى: الطلاق في إغلاق، نشر دار القلم، القاهرة، ط ٢، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

وإذا آذاها وضارّها، أو حدث شقاق بينهما لم يحلاه بينهما، فعندها مخرجان:

الأول: اللجوء إلى «التحكيم العائلي»، كما أمر بذلك القرآن: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]. ومن حق الحكمين إذا رأيا الخير في الإصلاح وجمع الشمل: أن يجمعا. وإن رأيا التفريق: أن يفرقا، كما حكم بذلك الصحابة رضي الله عنهم.

والمخرج الثاني، هو: اللجوء إلى القضاء، فمن سلطة القاضي أن يطلق على المضارّ لزوجته المسيء إليها: جبرا عنه، وينفذ حكمه، ولها كل حقوقها.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا: أن الإسلام أباح للرجل أن يتزوج بأخرى لحكم شرحها العلماء بتفصيل. فقد يحتاج إلى زوجة تنجب له أولادا حيث لم تنجب زوجته الأولى، فهو يبقيا عنده رعاية لحق العشرة، ويتزوج أخرى. وقد تكون زوجته الأولى مريضة، أو قليلة الرغبة في الرجال، أو تطول عندها مدة الحيض، والإسلام يحرم معاشرة المرأة في الحيض، واليهودية أشد من الإسلام في ذلك.

وقد تكون عدد النساء الصالحات للزواج أكثر من عدد الرجال القادرين على الزواج، أفلا يكون من مصلحة المجتمع أن يتزوج الرجل بأكثر من واحدة، بدل أن يعيش محرومات من حياة الزوجية وعاطفة الأمومة أبد الدهر. وقد يتعلق قلب الرجل بامرأة يحبها وتحبه، وهو قادر على النفقة والإحصان، فلماذا لا نتيح لهما الارتباط الحلال، بدل التفكير في الحرام؟

إن الذين يزعمون أن الزواج الثاني ضد المرأة: يتحيزون لجانب المرأة الأولى، وينسون الزوجة الثانية، التي قبلت هذا الزواج لمصلحتها وإشباع فطرتها وحاجتها.

والغريون الذين ينكرون التعدد على المسلمين يعددون عمليا، ولكن بلا ضوابط ولا حدود، ولا التزام أخلاقي أو ديني أو قانوني.

المرأة أمّا:

وكرّم الإسلام المرأة كذلك وأنصفها أمّا، وأكد الوصية بها، حتى أوصى الرسول بها ثلاث مرات، وبالأب مرة واحدة. سئل عَلَيْهِ السَّلَام: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحَسَنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوك»^(١).

وإنما أكّد الوصية بها؛ لأنها هي التي تعبت أبلغ التعب، وعانت شديد المعاناة في سبيل الحمل والوحم والولادة والإرضاع والرعاية والتربية، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

وشاع عند المسلمين: أن الجنة تحت أقدام الأمهات. وقد أخذوا ذلك من حديث الصحابي الذي جاء إلى النبي يستأذنه في الجهاد، فقال له: «هل لك أم؟». قال: نعم. قال: «الزمها، فإن الجنة عند رجلها»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٨)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٥٥٣٨)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والنسائي (٣١٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨١)، والحاكم (١٠٤/٢)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الجهاد، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥)، عن معاوية بن جاهمة السلمي.

المرأة عضوًا في المجتمع:

وكرّم الإسلام المرأة كذلك وأنصفها: عضوًا في المجتمع، فهي مكلفة بالوظائف الاجتماعية، التي كُلف بها الرجل، وعلى رأسها: وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي بها يحافظ المجتمع المسلم على هويته ومقوماته وخصائصه، وهي وظيفة مشتركة بين الجنسين بصريح القرآن، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١].

والأصل في الخطاب القرآني والنبوي: أنه للرجال والنساء جميعًا، إلا ما قام دليل على تخصيصه لأحد الجنسين. فإذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فإن المخاطب بذلك الرجل والمرأة جميعًا.

وقد سمعت أم سلمة - وهي في بيتها وماشطتها تمشطها - الرسول يقول: «أيها الناس». فتركت ما كانت مشغولة به لتذهب وتسمع ما يقول في خطابه، فقالت لها الماشطة: إنه يقول: «أيها الناس». فقالت لها: أنا من الناس^(١).

إن الإسلام بهذه الأحكام والتعاليم قد أنصف المرأة وأنصف الرجل جميعًا، وجندهما جميعًا ليعملا في طاعة الله تعالى، وفي خدمة المجتمع الصالح، وتكوين الأسرة الصالحة التي تقوم على الأمومة الحانية، والأبوة الراحية، والأخوة المشفقة، والقراية الواصلة، والتي يؤدي كل فرد فيها واجبه، قبل أن يطالب بحقه. همه أن يقول: ماذا عليّ؟ قبل أن يقول:

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٢٩٥)، عن أم سلمة.

ماذا لي؟ على خلاف مجتمع الحضارة الغربية التي غلبت عليها المادية والنفعية، والتي تربّي الناس على طلب الحقوق قبل أداء الواجبات.

لا يُتصور في شريعة الإسلام أن يُخاف على المرأة لحساب الرجل؛ لأن الذي أنزل هذه الشريعة وأوحى بها إلى خاتم رسله، ليس رجلاً، أو لجنة من الرجال، حتى يجوروا على النساء، ولكنه رب الرجال والنساء جميعاً، الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى، والذي شرع لهما ما يصلحهما ويرقى بهما دينا ودنيا.

موقف خطابنا الديني:

ولكن ما يجب أن نعرف به، في كثير من خطابنا الإسلامي، وبخاصة بعض المدارس منه: أنه يتبنّى تياراً متشدداً ضد المرأة، فهو يراها مخلوقاً دون الرجل، وأن عليها أن تلزم بيتها ولا تخرج منه إلا مضطراً لحاجة أو علاج أو نحو ذلك، وأن النساء الصالحات قديماً، كن يخرجن من منزلهن مرتين: مرة إلى بيت الزوج، ومرة إلى القبر. وأن وجه المرأة عورة، لا يجوز لها كشفه، وبعضهم قال: لا تتعلم إلا ما يمحو أميتها. وبعضهم قال: تتعلم القراءة دون الكتابة! وبعضهم قال: لا تتعلم إلا المرحلة الابتدائية.

وبعضهم يلوكون أحاديث لم يحسنوا فهمها، ولم يضعوها في موضعها الصحيح، مثل حديث: «إن المرأة خلقت من ضلع»^(١)، وحديث: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب للب الرجل الحازم منكن»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣١)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٨)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الحيض (٣٠٤)، عن أبي سعيد.

جعلوا هذه الأحاديث أصلاً، وبنوا عليها نظراتهم إلى المرأة وموقف الإسلام منها، وجعلوا تأويلها، وأغفلوا مئات الآيات والأحاديث التي تبين موقف الإسلام حقاً من المرأة.

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل ذلك، وقد فصلنا ذلك في كتبنا المختلفة، وخصوصاً في كتابنا «فتاوى معاصرة» بأجزائه الثلاثة، وفي كتابنا «مركز المرأة في الحياة الإسلامية» وفي غيرها.

كما فصل أخونا وصديقنا الأستاذ عبد الحلیم أبو شقة رَحِمَهُ اللهُ موقف الإسلام السَّامِح الرَّحِب من المرأة في كتابه، بل في موسوعته «تحرير المرأة في عصر الرسالة» من ستة أجزاء، فليرجع إليه.

إن كثيراً من المتحدثين باسم الدين يسيئون إليه أبلغ الإساءة من حيث يحسبون أنهم يحسنون، ويفسدون من حيث يظنون أنهم مصلحون. ولا علاج لهذا الخلل إلا بترشيد الخطاب الديني، وتسديده، ونصرة تيار الوسطية الإسلامية، المعبر عن وسطية الإسلام، ونهجه السَّامِح المعتدل، وصراطه المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

يحفظ حقوق الأقلية ولا يحيف على الأكثرية

ومن خصائص الخطاب الديني الإسلامي في عصر العولمة: أنه يحرص كل الحرص على حقوق الأقليات الدينية في الوطن العربي والإسلامي، ويحفظ لها كيائها الخاص، ويصون شخصيتها الدينية، ويرعى حرمت معابدها وشعائرها، ولا يتدخل في هذه الشؤون الخاصة بها، ولا يفرض عليها شيئاً من عباداته أو فرائضه التي لها طابع ديني، رعاية لمشاعرهم وأحاسيسهم.

وخصوصاً الأقليات الدينية في الوطن العربي، فهم من أهل الكتاب الذين ميزهم الإسلام بوضع خاص، فأجاز أكل طعامهم وذبائحهم، كما أجاز الإصهار إليهم والتزوج من نسائهم، كما قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

والنصارى منهم لهم وضع أخص، كما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

ومنذ فجر الإسلام أمر الرسول ﷺ، أصحابه أن يهاجروا إلى الحبشة، لأنهم نصارى، فهم أقرب إلى المسلمين، وكان ملكهم النجاشي رجلاً عادلاً مؤمناً بدينه، فأواهم وأجارهم، وأبى أن يسلمهم إلى قريش.

وقد عرضنا لموقف الإسلام من الأقليات في أكثر من كتاب، منها «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي»، ورسالة «الأقليات الدينية والحل الإسلامي»، وكتاب «أولويات الحركة الإسلامية»، وبعض الفتاوى والبحوث في كتابنا «فتاوى معاصرة» الجزء الثاني، وكتابنا «من فقه الدولة في الإسلام». كما بيّنا ذلك في محاضرات شتى في أكثر من بلد.

واعتقد أن اجتهادنا في هذه القضية الكبيرة قد استبانت معالمه، واتضحت صورته في ضوء الأدلة الشرعية، ولقي القبول من جمهرة العلماء والدعاة، وتبناه الكثيرون منهم، وإن كان بعضهم لم ينسب الاجتهاد لصاحبه كما قال السلف: من بركة القول أن يسند إلى قائله.

كيف تحل مشكلة الأقليات الدينية؟

ويمكن أن أقتبس هنا بعض ما كتبتّه، لإيضاح موقف الاجتهاد الإسلامي المعاصر من هذه القضية الخطيرة، التي يستغلها أعداء الأمة بين الحين والحين، لأغراض في أنفسهم، لإثارة الفتنة الطائفية، حتى إنهم في أمريكا اليوم - بتأثير اللوبي الصهيوني - يزعمون أن الأقباط مضطهدون دينياً في مصر، وهو زعم لا أساس له، يكذبه الأقباط أنفسهم.

ويتلخّص موقفنا فيما يلي:

١ - لا وجه لدعوى بعض الناس وجلهم من العلمانيين الذين لا يوالون الإسلام ولا المسيحية: أن الاتجاه إلى الحل الإسلامي والشرع



الإسلامي ينافي مبدأ الحرية لغير المسلمين، وهو مبدأ مقرر دوليًا وإسلاميًا، فقد نسوا أو تناسوا أمرا أهم وأخطر، وهو أن الإعراض عن الشرع الإسلامي والحل الإسلامي من أجل غير المسلمين - وهم أقلية - ينافي مبدأ الحرية للمسلمين في العمل بما يوجبه عليهم دينهم، وهم أكثرية. بل الواقع أن المسلمين ليسوا أحرارًا ولا مخيرين في العمل بموجب شريعتهم، إذ هو فريضة عليهم من ربهم.

وإذا تعارض حق الأقلية وحق الأكثرية، فأيهما نقدم؟

إن منطق الديمقراطية - التي يؤمنون بها ويدعون إليها - أن يقدم حق الأكثرية على حق الأقلية. هذا هو السائد في كل أقطار الدنيا، فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس، فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين.

وإنما بحسب نظام ما أن ينال قبول الأكثرية ورضاها، بشرط ألا يحيف على الأقلية ويظلمها، ويعتدي على حرمتهم، وليس على المسيحيين ولا غيرهم بأس ولا حرج أن يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم، وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم.

ولو لم تفعل الأقلية الدينية ذلك، وتمسكت بأن تنبذ الأكثرية ما تعتقده دينا يعاقب الله على تركه بالنار، لكان معنى هذا أن تفرض الأقلية دكتاتورية على الأكثرية، وأن يتحكم مثلا خمسة ملايين أو أقل، في ستين مليونًا أو أكثر. وهذا ما لا يقبله منطق ديني ولا علماني.

٢ - وهذا على تسليمنا بأن هناك تعارضًا بين حق الأكثرية المسلمة وحق الأقلية غير المسلمة.

والواقع أنه لا تعارض بينها. فالمسيحي الذي يقبل أن يحكم حكمًا علمانيًا لا دينيًا، لا يضره أن يحكم حكمًا إسلاميًا. بل المسيحي الذي يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة، ينبغي أن يرحب بحكم الإسلام، لأنه حكم يقوم على الإيمان بالله ورسالات السماء، والجزاء في الآخرة. كما يقوم على تثبيت القيم الإيمانية، والمثل الأخلاقية، التي دعا إليها الأنبياء جميعًا، ثم هو يحترم المسيح وأمه والإنجيل، وينظر إلى أهل الكتاب نظرة خاصة، فكيف يكون هذا الحكم - بطابعه الرباني الأخلاقي الإنساني - مصدر خوف وإزعاج لصاحب دين يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر؟ على حين لا يزعجه حكم لاديني علماني يحتقر الأديان جميعًا، ولا يسمح بوجودها - إن سمح - إلا في ركن ضيق من أركان الحياة؟!

من الخير للمسيحي المخلص أن يقبل حكم الإسلام، ونظامه للحياة، فيأخذه على أنه نظام وقانون ككل القوانين والأنظمة، ويأخذه المسلم على أنه دين يُرضي به ربه، ويتقرب به إليه.

ومن الخير للمسيحي - كما قال الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ اللهُ - أن يأخذه المسلمون على أنه دين، لأن هذه الفكرة تعصمهم من الزلل في تنفيذه، وعين الله ترقبهم، لا رهبة الحاكم التي يمكن التخلص منها في كثير من الأحيان^(١).

ومن هنا رَحَّب العقلاء واسعوا الأفق من المسحيين بالنظام الإسلامي بوصفه السد المنيع في وجه المادية الملحدة التي تهدد

(١) رسالة دستورنا للأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين. ص ١٤ - ١٥، نشر مكتبة المنار، الكويت.

الديانات كلها على يد الشيوعية العالمية، كما نقلنا ذلك من كلام العلامة فارس الخوري^(١).

وأود أن أصحح هنا خطأ يقع فيه كثيرون، وهو الظن بأن القوانين الوضعية المستوردة من الغرب المسيحي قوانين لها رحم موصولة بالمسيحية، فهذا خطأ مؤكد، والدارسون لأصول القوانين ومصادرها التاريخية يعرفون ذلك جيداً. بل الثابت بلا مرأى أن الفقه الإسلامي أقرب إلى المسيحية والمسيحيين في أوطاننا من تلك القوانين، لأصوله الدينية من ناحية، ولتأثره بالبيئة المحيطة التي هم جزء منها.

٣ - والادعاء بأن سيادة النظام الإسلامي فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم: ادعاء غير صحيح.

فالإسلام ذو شعب أربع: عقيدة، وعبادة، وأخلاق، وشريعة. فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضهما الإسلام على أحد. وفي ذلك نزلت آيتان صريحتان حاسمتان من كتاب الله: إحداهما مكية والأخرى مدنية، في الأولى يقول تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وفي الثانية يقول ﷺ في أسلوب جازم: ﴿لَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وجاء عن الصحابة في أهل الذمة: اتركوهم وما يدينون.

(١) انظر كلامه في كتابنا: بينات الحل الإسلامي ص ٢٣٨ - ٢٤١، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، ورسالتنا: الأقليات الدينية والحل الإسلامي ص ٧٠ - ٧٦، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م. وفارس الخوري من كبار الشخصيات المسيحية، وقد كان رئيس وزراء سورية في بعض الأوقات.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين، واليهود والنصارى يؤدُّون عباداتهم ويقىمون شعائرهم، في حرية وأمان، كما هو منصوص عليه في العهود التي كُتبت في عهد أبي بكر وعمر، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيليا (القدس).

ومن شدة حساسية الإسلام: أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين، لما لهما من صبغة دينية، بوصفهما من عبادات الإسلام الكبرى - مع أن الزكاة ضريبة مالية، والجهاد خدمة عسكرية - وكلفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرؤوس، أعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين، وهي ما يسمى «الجزية».

ولئن كان بعض الناس يأنف من إطلاق هذا الاسم، فليسموه ما يشاءون. فإن نصارى بني تغلب من العرب طلبوا من عمر بن الخطاب: أن يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية، وقبل منهم عمر، وعقد معهم صلحا على ذلك، وقال في ذلك: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم^(١)!

أما شعبة الأخلاق فهي - في أصولها - لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض.

بقيت شعبة الشريعة بالمعنى الخاص: معنى القانون الذي ينظم علائق الناس بعضهم ببعض: علاقة الفرد بأمته، وعلاقته بالمجتمع، وعلاقته بالدولة، وعلاقة الدولة بالرعية، وبالدول الأخرى.

(١) الحاوي للماوردي (٣٤٦/١٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك، فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا، ولا يجبرون على شرع الإسلام.

فمن اختار منهم نظام الإسلام في المواريث مثلاً - كما في بعض البلاد العربية - فله ذلك، ومن لم يُرد فهو وما يختار.

وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها، فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق، وترتضيها الأغلبية.

وبعض المذاهب الإسلامية لا تلزم أهل الذمة أو غير المسلمين بالتشريع الجنائي، مثل: إقامة الحدود والعقوبات الشرعية، كقطع يد السارق، وجلد الزاني أو القاذف، ونحو ذلك. وإنما فيها التعزير.

وتستطيع الدولة الإسلامية الأخذ بهذا المذهب إذا وجدت فيه تحقيق مصلحة، أو درء مفسدة، كما فعلت ذلك جمهورية السودان الإسلامية، بالنسبة للمناطق التي تسكنها أغلبية غير إسلامية.

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شأؤوا، وإلا لجؤوا إلى القضاء الإسلامي، كما سجل ذلك التاريخ.

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يروونه في دينهم واجبا، ولا على فعل أمر يروونه عندهم حراما، ولا على اعتناق أمر ديني لا يرون اعتناقه بمحض اختيارهم.

كل ما في الأمر: أن هناك أشياء يحرمها الإسلام، مثل: الخمر والخنزير، وهم يرونها حلالا، والأمر الحلال للإنسان سعة في تركه،

فللمسيحي أن يدع شرب الخمر ولا حرج عليه في دينه، بل لا أظن ديناً يشجع شرب الخمر، وبيارك حياة السكر والعريضة. وكل ما في كتبهم: أن قليلاً من الخمر يصلح المعدة^(١)، ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم في موقفهم من الخمر والسكر.

وكذلك بوسع المسيحي أن يعيش عمره كله ولا يأكل لحم الخنزير، فأكله ليس شعيرة في الدين، ولا سنة من سنن النبيين، بل هو محرم في اليهودية قبل الإسلام. ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير، ويشربوا الخمر، ويتاجروا فيهما فيما بينهم، وفي القرى التي تخصهم، على ألا يظهروا ذلك في البيئات الإسلامية، ولا يتحدثوا بها مشاعر المسلمين، وهذه قمة في التسامح لا مثيل لها^(٢).

ومنذ عدة سنوات دعيت من قبل نقابة الأطباء في مصر لندوة حول «المشروع الحضاري الإسلامي» في «دار الحكمة» بالقاهرة، وكان المفروض أن يشاركني أحد الأساتذة المعروفين^(٣)، ولكنه اعتذر، فانفردت بإلقاء الموضوع، وبيان مقومات مشروعنا الحضاري الإسلامي والذي يعمل على إصلاح الفرد، وإسعاد الأسرة، وترقية المجتمع، وبناء الأمة الفاضلة، وإقامة الدولة العادلة، وإنشاء عالم متعارف وعلاقات إنسانية سوية.

(١) هو من أقوال بولس، وليس من قول المسيح ﷺ.

(٢) انظر كتابنا: بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين ص ٢١٤ - ٢٤٧، فصل: الأقليات الدينية والحل الإسلامي، وقد نشر في رسالة مستقلة من رسائل ترشيد الصحوة، وانظر أيضاً كتابنا: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

(٣) هو الأستاذ إسماعيل صبري عبد الله وزير التخطيط في عهد عبد الناصر، ومن ممثلي الفكري اليساري في مصر.

وبعد ذلك كانت أسئلة ونقاشات وتعليقات. وكان من أبرز هذه الأسئلة: سؤال من الأخ الدكتور جورج إسحاق الذي سأل بصراحة: أين موقعنا، يا دكتور قرضاوي - نحن الأقباط - في هذا المشروع؟ هل نظل أهل ذمة؟ أو نحن مواطنون؟ هل ستطالبنا بدفع الجزية أو ندفع ما يدفع المسلمون؟ هل نحرم من وظائف الوطن أو يأخذها من يستحقها منا بأهليته؟ إلى آخر هذا النوع من الأسئلة.

وقلت للدكتور إسحاق: إن المشروع الحضاري هو لأهل دار الإسلام جميعاً، المسلمين منهم وغير المسلمين، وفقهاء المسلمين متفقون على أن أهل الذمة من «أهل الدار» أي دار الإسلام، وإن لم يكونوا من «أهل الملة». ومعنى أنهم من أهل الدار: أنهم مواطنون، ينتمون إلى الوطن الإسلامي، فهم مسلمون بحكم انتمائهم إلى الدار، أو الثقافة والحضارة.

وهذا ما عبر عنه الزعيم المصري القبطي المعروف مكرم عبيد حين قال: أنا نصراني ديناً، مسلم وطناً! وهذا ما قلته للدكتور لويس عوض حين زارنا في الدوحة مشاركاً في إحدى الندوات، وطلب مني أن أعقب على الندوة، فقلت له: أنا مسلم بمقتضى العقيدة والملة، وأنت مسلم بمقتضى الثقافة والحضارة. ومعنى هذا أن المسيحي المصري أو العربي يحمل «الجنسية الإسلامية» أي جنسية «دار الإسلام»، وهو بحكم عروبه وثقافته يحمل «الانتماء الثقافي والحضاري» لأمة الإسلام.

وكلمة «الذمة» كثيراً ما تُفهم خطأ، ويظن بعض الناس أنها كلمة ذمّ أو انتقاص، مع أن معناها: العهد والضمان، أي: أنهم في عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين وفي ضمانهم، لا يجوز أن ينتقض عهدهم أو تخفر ذمتهم من أحد.

وإذا كانت كلمة «أهل الذمة» تؤذي الأقباط وأمثالهم، فإن الله لم يتعبدنا بها، وقد حذف الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ما هو أهم منها - كما ذكرنا من قبل - وهو كلمة «الجزية» المذكورة في القرآن، حين طلب بنو تغلب ذلك، وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن عرب، ونأنف من كلمة «جزية»، ونريد أن تأخذ منا ما تأخذ باسم الزكاة أو الصدقة، كما تأخذ من المسلمين. فقبل منهم ذلك، ونظر إلى أصحابه وقال: هؤلاء القوم حمقى، رضوا بالمعنى، وأبوا الاسم^(١).

وفي عصرنا يتأذى إخواننا من المسيحيين وغيرهم من هذه التسمية، فلا مبرر للإصرار على بقائها، والعبرة للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني.

ولقد ذهبت من قديم في كتابي «فقه الزكاة»^(٢)، إلى أن ولي الأمر المسلم يجوز له أن يأخذ من غير المسلمين في الدولة الإسلامية ضريبة تساوي فريضة الزكاة، ولنسّمها «ضريبة التكافل»، توحيداً للميزانية والإجراءات بين أبناء الوطن الواحد والدار الواحدة، وأيدت ذلك بأدلة شرعية من داخل الفقه الإسلامي. وهذا ما أخذت به جمهورية السودان منذ عهد نميري.

وقد ذكرت في «فقه الزكاة»^(٣) أن عدداً من فقهاء المسلمين أجازوا دفع الزكاة لغير المسلمين، وقد نُقل ذلك عن عمر رضي الله عنه.

(١) الحاوي للماوردي (٣٤٦/١٤)، وانظر كتابنا: السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها ص ٢١٦، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) (١١٢/١ - ١١٧)، نشر مكتبة وهبة، ط ٢١.

(٣) فقه الزكاة (٧١٢/٢ - ٧١٤).



ومما يذكره التاريخ أن عناصر من أهل الكتاب أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، لا تزال أسماء بعضهم معروفة مشهورة، ولم يمنعها دينها أن يكون لها دور تؤديه في خدمة العلوم والفنون والصناعات المختلفة.

ولقد وصل بعضهم إلى منصب الوزارة - وزارة التنفيذ - وهو ما قرّره القاضي الماوردي وغيره من فقهاء السياسة الشرعية^(١).

والعامل المهم هنا هو: وجود الثقة المتبادلة بين الفريقين، وألا يتطّلع غير المسلمين إلى المناصب التي لها طبيعة دينية، كما لا يجوز للمسلمين أن يتدخلوا في الشؤون الدينية لغير المسلمين، أو يضيقوا عليهم فيها بغير حق.

والأصل العام في التعامل هو هذه القاعدة التي يتناقلها المسلمون خاصتهم وعامتهم: لهم ما لنا، وعليهم ما علينا.

وهذا، فيما عدا ما اقتضاه الاختلاف أو التميز الديني بطبيعة الحال لكل من الطرفين، فهم غير مطالبين بالصلاة ولا بالصيام ولا بزكاة الفطر ولا بالكفارات، ولا بالحج وغيرها من فرائض الإسلام.

ومن المهم جدًا أن يكون من حق الأكثرية المسلمة أن تحتكم إلى شريعة ربّها، وتطبقها في شؤونها، على ألا تحيف على حقوق الأقلية. ويجب على الأقلية ألا تضيق صدرًا بذلك، وهو ما كان عليه الأقباط طوال العصور الماضية والحديثة، قبل كيد الاستعمار ومكره، ولم نرهم يتبرّمون بالنصّ على أن دين الدولة الإسلام. بل رأيت كثيرًا من عقلاء المسيحيين

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي ص ٥٦، نشر دار الحديث، القاهرة.

في مصر وفي غيرها طالبوا مخلصين بوجوب تطبيق الشريعة وأحكامها وحدودها، ورأوا في ذلك العلاج الناجع للجرائم والرذائل في مجتمعاتنا. وكما أن الأقلية رضيت بالقوانين المستوردة من الخارج، ولم تجد في ذلك حرجًا، فأولى بها أن ترضى بشريعة الإسلام، فهي قطعاً أقرب إلى المثل العليا التي جاءت بها المسيحية من القوانين الأجنبية، ثم هي قوانين «الدار» التي تعيش فيها الأقلية وتتعامل معها، فالمسلم يتقبل الشريعة على أنها دين وانقياد لله، وغير المسلم يتقبلها على أنها قانون ونظام رضيته الأغلبية، شأنه شأن سائر الأنظمة والقوانين.

قلت هذا الكلام أو نحوه في الإجابة عن سؤال د. جورج إسحاق، وصدق الحاضرون إعجابًا وقبولاً، وبعد انتهاء الندوة، جاء الدكتور إسحاق يشد على يدي، ويقول لي: ليتك يا دكتور قرضاوي، تأتي إلى الكنيسة لتقول هذا للأقباط في عقر دارهم، فإن عندهم هواجس ومخاوف كثيرة من تطبيق شريعة الإسلام، وربما ساهم في هذا الخوف بعض المتشددین من المسلمين.

وقلت للدكتور: أنا لا أمتنع عن هذا إذا دعيت، والواجب علينا البيان والبلاغ حتى لا تلبس الأمور، وتفهم الحقائق على غير وجوها، ويستغل أعداء الأمة ذلك، ليوقدوا نار الفتنة، ويضربوا أبناء الأمة الواحدة بعضهم ببعض، وهم المستفيدون أولاً وآخرًا.

أما الآراء المتشددة والمضيقة، والتي تتمسك بحرفية ما جاء في بعض الكتب التي كتبت في زمن غير زمننا، ولمجتمع غير مجتمعنا، وفي ظروف غير ظروفنا، فهي لا تلزمنا، وقد قرر المحققون من علمائنا:

أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال. وقد تغير كل شيء في حياتنا كمًّا وكيفًا، عما كان عليه أيام هؤلاء الفقهاء.

وأما حديث «لا تبدؤوهم بالسلام، واضطروهم إلى أضيق الطريق»^(١)، فهذا مقيد بأيام الصراع والحروب، لا بأيام الاستقرار والسلام، وقد كان بعض الصحابة يقرأ السلام على كل مَنْ لقيه من مسلم وغير مسلم، عملاً بالأمر بإفشاء السلام.

وهل من المعقول أن يبيح الإسلام للمسلم الزواج بالمسيحية ولا يبيح له أن يسلم عليها؟ وهل يمنع الولد أن يسلم على أمه أو على خاله أو خالته أو جده أو جدته؟ وقد أمره الله بصلة الرحم، وإيتاء ذي القربى؟ وحسبنا هذا النص القرآني العام المحكم: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

موقف خطابنا الديني:

لا أنكر أن بعض الخطباء الدينيين لم تتضح لهم هذه المعاني التي ذكرناها موثقة بأدلتها، ولا زالوا يعيشون في الأفق الضيق، نتيجة لأفهام جامدة فرضتها بعض المدارس الإسلامية التي تجنح إلى الغلو في موقفها من الناس، مسلمين وغير مسلمين، فهي تكفر كثيرًا من المسلمين، وتعادي غير المسلمين، وتمسكوا بنصوص متشابهات، ولم يردوها إلى المحكمات، وكثيرًا ما وضعوا النصوص في غير مواضعها، أو لم يفهموها في ضوء أسبابها وملابساتها،

(١) رواه مسلم في السلام (٢١٦٧)، وأحمد (٧٦١٧)، عن أبي هريرة.

ومقاصدها، بل تمسكوا بحرفيه بعض النصوص الجزئية، وأغفلوا المقاصد الكلية للشرعة.

ونحن نؤمن أن كل بشر - وإن بلغ في العلم ما بلغ - يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم عليه السلام؛ لأن اجتهادات البشر محكومة بظروف بيئتها وعصرها وثقافتها، ولا تستطيع أن تقفز فوق الزمان والمكان.

وعلى المجتهدين بعدهم أن يستأنسوا بها، ويستفيدوا منها بوصفها تراثاً علمياً يساعد على الفهم، لا قيدياً يمنع من حركة الفكر، وتجديد الاجتهاد.

وفي اعتقادي: أن الأئمة الأقدمين الذين لم نرتضِ اجتهادهم في هذه القضية أو في غيرها: لو تأخر بهم الزمن، ووجدوا في عصرنا، لكان لهم اجتهاد آخر غير اجتهادهم القديم. فطالما رأيناهم غيروا اجتهادهم في حياتهم، وغيره أصحابهم من بعدهم. ولم يجد العلماء في ذلك حرجاً ولا غضاظة. ولكل مجتهد نصيب، وإنما لكل امرئ ما نوى.

ومن المهم أن نقول: إن جُلَّ فقهاء العصر ودعاته يدعون إلى التسامح الذي دعا إليه القرآن والسنة، وطبقه الرسول والصحاب، ولا يتبنون رأي المدرسة المتشددة، التي تعادي غير المسلمين عامة، مستدلة بقوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ونسوا: أن مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بمعنى عاداهما وحاربهما، وهذا لا يجوز أن يُؤَادَّ وَيُحَبَّ. أما غير المسلم المسالم، فلا مانع من مودته إذا كان هناك من الأسباب ما يقتضي مودته من قرابة أو زوجية أو مصاهرة أو زمالة، أو معروفٍ قدّمه إلى مسلم. وهل يُمنع الزوج من مودة زوجته الكتابية، والحياة الزوجية قائمة على



المودة والرحمة؟ أو يمنع الابن أن يود أمه الكتابية؟ أو جده وجدته،
وخاله وخالته؟

إن هؤلاء المتشددين لا يُكَنُّون مودة لغيرهم من المسلمين، ولا يفعل
هذا إلا جماعتهم المحدودة، وهي لا تساوي واحدًا في المائة (١٪) من
عموم المسلمين في العالم. فَمَنْ آخذ المسلمين جميعًا بفكر هؤلاء
وسلوكلهم، فقد ظلم الإسلام، وتاريخ الإسلام، وأمة الإسلام.







خاتمة

أعتقد أن الخطاب الإسلامي المنشود، قد استبانت معالمه، واثّضحت ملامحه، من خلال هذه الفصول التي قدّمناها.

فهو خطاب ينبثق من إسلام القرآن والسنة، وليس من إسلام عصر معين، يفرض نفسه على عصرنا.

هو خطاب يتحدّث بلسان عصره، كما يتحدّث بلسان قومه، ليبيّن لهم، كما أشار القرآن الكريم.

وهو خطاب يتميز بالانفتاح والمرونة: يدعو إلى الحوار مع الآخر، والتسامح مع المخالف، والجنوح إلى السلم لمن يمد يده إليه راغباً في السلام.

ودعوة هذا الخطاب إلى الحوار ليست «تكتيكا» أو موقفاً عارضاً يتخلّص به من حرج، بل هو «استراتيجية» يؤمن بها بوصفها تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهو خطاب يتجلّى فيه التوازن المقسط، ويتجسّد فيه المنهج الوسط للأمة الوسط، التي ذكرها الله في كتابه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

توازن بلا طغيان ولا إفسار في الميزان، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿[الرحمن: ٨، ٩].

وقد تجلت هذه الوسطية، وهذا التوازن في الخصائص الخمس عشرة، التي ذكرناها، وحاولنا أن نشرحها ونؤصلها التأصيل الشرعي الموثق بالأدلة من محكمات القرآن والسنة، بعيداً عن تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وقد حرصت على إبراز الوجه الوسطي للخطاب الإسلامي، فإن أكثر ما تشكو منه أمتنا في مجال الفكر والدعوة والثقافة، هو: الجنوح إلى الغلو والتنطع من ناحية، أو إلى التسيب والانفلات من ناحية أخرى. كما قال بعض السلف: إنما يضيع الدين بين الغالي فيه والجافي عنه^(١). أي المفرط فيه.

وأحمد الله تعالى: أن الله تبارك وتعالى قد وفقني منذ بدأت الكتابة والتأليف إلى تبني نهج الوسطية والاعتدال، القائم على التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة، والتجديد في الدين، والاجتهاد في الفقه، والتسامح مع الآخر، والسلام مع المسالم، والجهاد للمعتدي. وليس هذا النهج وليد أحداث (١١ سبتمبر ٢٠٠١م)، ولا رد فعل بأي وجه.

وهو ليس نهجي وحدي، بل هو نهج المجددين والمصلحين من قبلنا: محمد عبده، ورشيد رضا، وجمال الدين القاسمي، ومحمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد يوسف موسى، وحسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، وعلال الفاسي، ومصطفى السباعي، ومحمد المبارك، ومصطفى الزرقا، وعلي الطنطاوي، ومحمد

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٨١).

الغزالي، وسيد سابق، إلى المعاصرين وهم كثر في أنحاء العالم الإسلامي لا أستطيع أن أذكرهم جميعاً. وكلهم أسماء تتبنى نهج التسامح والسلام والاعتدال والتجديد، وهو ما ينهض به تيار الوسطية الذي تحدثت عنه بأقدار متفاوتة. ولكنها جميعاً تشترك في الاتجاه العام لهذا التيار الذي يمثل القاعدة العريضة في الأمة.

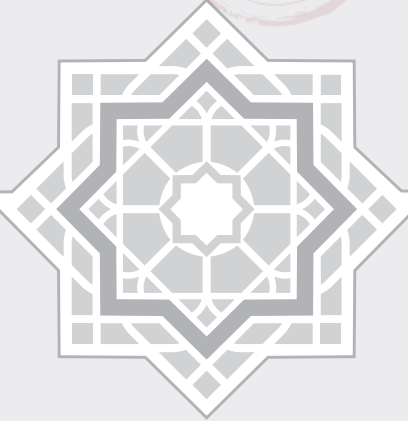
صحيح أن تيار الغلو والتشدد عالي الصوت، ولكنه لا يمثل في الواقع إلا أقلية في المسلمين. وإنما أبرزه الإعلام الغربي، والإعلام العربي والإسلامي، كما أبرزه كثرة المظالم التي تقع على المسلمين من الصهيونية العالمية المؤيدة من الصليبية الغربية، التي يمثلها الآن: اليمين المسيحي المتطرف في أمريكا، والذي أعلن الحرب على الإسلام والمسلمين في كل مكان تحت عنوان «الحرب على الإرهاب»، ووقف مسانداً للعدوان الإسرائيلي على الفلسطينيين على كل صعيد، بالمال والسلاح والفتو.

ولهذا طالبنا الأمريكان وغيرهم الذين يطالبوننا بتغيير خطابنا الديني: أن يراجعوا هم أيضاً خطابهم الديني، الذي يتبناه اليمين المسيحي المتطرف في الولايات المتحدة، ويقوم على تفسيرات تبرر اغتصاب أرضنا بالباطل، وتشريد أهلها بالقوة العاشمة، وهي تفسيرات يخالفه فيها عامة المسيحيين، فنحن نطالبهم بأن يغيروا خطابهم القائم على الاستعلاء واستباحة حرمة الآخرين.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.



فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٦٨
﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٦	١٥٠
سورة البقرة		
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	٧٠
﴿يَتَذَكَّرُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا...﴾	٣٥	٢٣٦
﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾	٣٦	٢٣٦
﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّاهُ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	٣٧	١٤٢
﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾	٦٥	٥٨
﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾	٨٥	٨١
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ...﴾	١٠٩	٩ - ٨
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ...﴾	١١١	٨٤
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾	١١٣	١٣١

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
١٢٠	٩	﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾
١٣٤	٢٣٦	﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾
١٤٣	١١، ١١٢، ٢٦٣	﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾
١٧٠	٨٥، ٢٢٣	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾
١٧٣	١٤٦	﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ...﴾
١٧٧	٤٠	﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾
١٧٨	١٨٨	﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾
١٧٩	١٤٤	﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
١٨٣	١١٧	﴿كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
١٨٥	١٨٨	﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾
١٨٧	٧٢، ٢٤٠	﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ...﴾
١٩٠	٢٢٧	﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا...﴾
١٩١	٢٢٦، ٢٢٧	﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِزْهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ...﴾
١٩٣	٢٢٦	﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ...﴾
١٩٤	٢٢٧	﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ...﴾
١٩٧	١١٨	﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ...﴾
٢٠١	١٠٣	﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾
٢١٣	١٩٢	﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾
٢١٥	١٦٤	﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ...﴾



رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٢١٦	١٤٦، ٢٢٩	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾
٢٢٢	١٤٢	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾
٢٢٣	٧٢	﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾
٢٢٨	١٤٣، ٢٣٩	﴿ وَلَهْنٌ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾
٢٢٩	١٤٤، ٢٤١	﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهُوا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾
٢٣٣	٢٣٩	﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾
٢٥٠	٥٠	﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ... ﴾
٢٥٦	٢٥١	﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾
٢٥٦	١٠	﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ ... ﴾
٢٦٩	٤٣	﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ... ﴾
٢٧٩	١٠٦	﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾
٢٨٢	١٠٥	﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... ﴾
٢٨٦	٢٦٥	﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ... ﴾
سورة آل عمران		
١٩	١٥٩، ٢٢	﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾
٦٤	٦٩، ٣٤	﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ... ﴾
٧٩	٣٣	﴿ مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ... ﴾
٨٥	٢٣، ٢٢	﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾
١٠١	٨٧	﴿ وَمَنْ يَعِصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
١٤٠	٨٧	﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾
١٤٨	١٠٤	﴿فَعَالَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾
١٥٩	٤٣	﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِهِمْ لَوْلَا كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ...﴾
١٦٥	١٨٥	﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا...﴾
١٩١	٨٨، ٦٨ ١٦٣، ١٠١	﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ...﴾
١٩٥	٢٣٦	﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ...﴾
سورة النساء		
١	٢٣٥، ٧٥، ٥٦	﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُورًا الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...﴾
٥	١٠٥	﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾
١٩	٢٤٠	﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾
٢٠	٢٤١	﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ...﴾
٢٨	١٨٨	﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾
٢٩	١٨٨	﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾
٣٤	٢٣٩	﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ...﴾
٣٥	٢٤٢	﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ...﴾
٩٥	٧٦	﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ...﴾
١٠٧ - ١٠٥	١٣٢	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ...﴾
١٢٤	٢٣٧	﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ...﴾



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ﴾	١٧١	١٥٩
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾	١٧٤	٨٧
سورة المائدة		
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾	٣	٦٢
﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلُّ لَكُمُ وَطَعَامُكُمْ حَلُّ لَهُمْ...﴾	٥	٢٤٧
﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّن حَرَجٍ﴾	٦	١٨٨
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ...﴾	٨	١٣٢
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	١١	١٨٤
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	٢٠	٥٩
﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾	٢٧	١١٧
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٣٠	١٤٥
﴿قَالَ يَوَيْلَئِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ...﴾	٣١	٩٤
﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ...﴾	٣٢	٧٢
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...﴾	٣٥	٢٢٠
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا...﴾	٣٨	١٤٤
﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ...﴾	٤٩	٨١
﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ...﴾	٦٠	٥٨
﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾	٦٧	٨٠
﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ﴾	٧٧	٢٣
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ...﴾	٨٢	٢٤٧

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٩٨	٤٥	﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
١٠٠	٧٦	﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾
١٠٤	٩٣	﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ... ﴾
سورة الأنعام		
٣٨	١٦٣	﴿ وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾
١٠٢	١٠٠	﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ... ﴾
١٠٨	٥٩ ، ٥٣	﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾
١٤٣	٨٤	﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
١٤٨	٨٤	﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾
١٦٣ ، ١٦٢	٦٩ ، ٦١	﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... ﴾
١٦٤	٢١٦ ، ٦٠	﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴾
سورة الأعراف		
٢٣	٢٣٦	﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
٣٢ ، ٣١	١٥٤ ، ١٠٩ ، ٧٢	﴿ يَبْنِيْءُ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ... ﴾
٥١	١٥٩	﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾
٥٥	٥٠	﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾
٥٦	١٢٣	﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾
٨٥	٥٧	﴿ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾
١٥٦	٦٨	﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشْيَاءِ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾



رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
١٥٧	١٠٩	﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾
١٦٣ - ١٦٦	٥٨	﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ...﴾
١٨٥	٨٨	﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾
١٨٩	٢٣٥	﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾
سورة الأنفال		
٢ - ٤	١٤٠	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾
٢٦	١٨٤	﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾
٥٦، ٥٥	١٢٠	﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾
٦٠	٢٢٨، ٢١٤، ١١٣	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...﴾
٦٢، ٦١	٢٣٠	﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ...﴾
سورة التوبة		
١٣	٢٢٦	﴿أَلَا تَقْنِطُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ...﴾
١٩	٤٠	﴿أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾
٣١	٣٣	﴿اتَّخِذُوا أَحِبَّارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾
٤٠	١٨٢	﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ...﴾
٥١	١٢٩	﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا...﴾
٧١	٢٤٤، ٢٣٨، ٢٣٦	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾
١٠٣	١١٧	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة يونس		
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ...﴾	٥٧	٩٦
﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾	٥٩	١٥٥
﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ...﴾	٨٥، ٨٦	٥٠
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾	٩٩	١٣٠، ٥١
﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾	٩٩	٢٥١
﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	١٠١	٨٨
سورة هود		
﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾	٨٤	٥٧
﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾	٦١	١٠٣
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ...﴾	١١٤	١٤٢
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ...﴾	١١٨، ١١٩	١٣١
﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾	١٢٠	١٨٤
سورة يوسف		
﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾	٥٥	١٤٥
﴿لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾	٨٧	٤٤
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي...﴾	١٠٨	٣٢، ٣١، ٤
﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾	١١١	١٨٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرعد		
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾	٦	٤٥
﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ...﴾	٢٠ - ٢٢	١٢٠
سورة إبراهيم		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾	٤	٣٥، ٤
﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾	١٩، ٢٠	١٧٢
﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾	٢٢	٩٥
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾	٣٢ - ٣٤	١٠٣
﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ...﴾	٣٤	٧٠
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾	٦٣، ٦٤	١٤٠
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	١٠٧	١٥٧
﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	١٥٨	١٥٧
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	٩	١٢٧
﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ...﴾	٤٩، ٥٠	٤٥
سورة النحل		
﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	٣٥	٦٥
﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾	٥٣	١٣٤
﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ...﴾	٥٨، ٥٩	٢٣٨

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٩٧	٢٣٧	﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾
١٠٥	١٢٠	﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِثَانِتِ اللَّهِ...﴾
١١٠	٢٢٣	﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا...﴾
١٢٥	٤، ٢٣، ٣١، ٣٢، ٢٦٣، ١٥٩، ٥٤	﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...﴾
١٢٨	٤٣	﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾
سورة الإسراء		
١٦	١١٠	﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ...﴾
٢٦، ٢٧	١٠٦	﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا يَبْذُرْ بَذِيرًا...﴾
٢٩	١٠٦	﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ...﴾
٣٤	١٠٦	﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾
٣٥	١٠٦	﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾
٤٢، ٤٣	٦٧	﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَنَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا...﴾
٥٣	٥٣، ٤	﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزِعُ بَيْنَهُمْ...﴾
٧٠	١٦٠، ١٣٢، ٧٠	﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾
٨٢	٩٦	﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾
سورة الكهف		
١١٠	٧٧	﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...﴾
سورة مريم		
٦٤	٨٢	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة طه		
﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾	٧٢، ٧٣	١٥١
﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾	١١٥	٢٣٦
﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ...﴾	١٢٠	٢٣٦
﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾	١٢١	٢٣٦، ١٤٢
﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾	١٢٢	٢٣٦، ١٤٢
سورة الأنبياء		
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾	٢٢	٦٧
﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَهِةٌ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾	٢٤	٨٤
﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾	٨٠	١٠٧
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾	٩٢	١٦٥
سورة الحج		
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ...﴾	١٧	١٣١
﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ﴾	٣٧	١١٨
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ...﴾	٣٩، ٤٠	٢٢٢، ١٤٦
﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ...﴾	٥٤	٨٩
﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ...﴾	٦٨، ٦٩	١٣١
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾	٧٧، ٧٨	٢٢٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المؤمنون		
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ...﴾	٨ - ١	١١٩
﴿وَلِإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾	٥٢	١٦٥
﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ...﴾	٩١	٦٧
﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ...﴾	١٠١، ١٠٢	٧٧
سورة النور		
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	٣١	١٤٢
﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾	٣٧	١٠٤
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...﴾	٥١	٨٠
سورة الفرقان		
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾	١	١٥٧
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾	٢	٦٧
﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ...﴾	٤٣، ٤٤	٩٩
﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾	٥٢	٢٢٣
﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ...﴾	٦٣ - ٧٢	١٢٠
سورة الشعراء		
﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...﴾	٨٧ - ٨٩	١٠١
﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتَ ...﴾	١٠٥ - ١٠٧	٥٧
﴿كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَنْقُوتَ﴾	١٢٣، ١٢٤	٥٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾	١٤١، ١٤٢	٥٧
﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾	١٦٠، ١٦١	٥٧
﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾	١٧٦، ١٧٧	٥٧
﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾	١٩٣ - ١٩٥	٧٩
﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾	٢١٤	١٦٦
سورة النمل		
﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾	٦	٨٠
﴿ أَحَاطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾	٢٢	٩٤
﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾	٦٤	٨٤
﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾	٧٩	١٢٧
﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾	٨٨	١٣٤، ٦٧
سورة القصص		
﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾	٢٦	١٤٥
﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾	٥٠	١٧١
سورة العنكبوت		
﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ... ﴾	١ - ٦	٢٢٣
﴿ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾	٣٦	٥٧
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾	٤٥	١١٧
﴿ وَلَا تَجْعِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾	٤٦	٥٤، ٤٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الروم		
﴿الْعَمَّ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ...﴾	١ - ٥	١٧٩
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ...﴾	٢١	٢٤٠
سورة لقمان		
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ...﴾	١٤	٢٤٣
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...﴾	٢٠	١٣٥، ١٠٣، ٧٠
سورة السجدة		
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾	٧	١٣٤، ٦٧
سورة الأحزاب		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾	٩	١٨٤
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾	٢١	١٢٣
﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...﴾	٢٢	١٢٩
﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ...﴾	٢٥	٢٢٩
﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ...﴾	٣٥	٢٣٥
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ...﴾	٣٦	٨٠
﴿يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾	٣٩	١٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾	٤١، ٤٢	١٠١
﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾	٦٧	٨٥
﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾	٧٢	١٤٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة سبأ		
﴿وَأَنَّا لَهُ الْخَدِيدُ﴾	١٠	١٠٧
﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ...﴾	٢٤	٤٨
﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	٢٥	٤٨
سورة فاطر		
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ...﴾	٦	١٣٦
﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾	١٦، ١٧	١٧٢
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...﴾	٣٢	١٤١
سورة يس		
﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾	٤٠	١٧١
سورة ص		
﴿إِذْ نَادَى رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ نُصِيبْ وَعَذَابِ﴾	٤١	٩٥
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ...﴾	٧١، ٧٢	٩٩، ٧٠
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾	٨٧	١٥٧
سورة الزمر		
﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾	٩	٤٥
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٩	٧٦
﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ...﴾	١١، ١٢	٦٩
﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...﴾	٥٣	١٠٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة خافر		
﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ...﴾	٧	٦٨
سورة فصلت		
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا...﴾	٣٠ - ٣٢	١٥٠
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾	٣٣	١٥٩ ، ١٢٧
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾	٥٣	٨٣
سورة الشورى		
﴿لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾	٧	١٦٦
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	١١	٦٧
﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ...﴾	١٥	١٣١
﴿وَأَمُرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾	٣٨	٢٣٩
﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...﴾	٤٩	٢٣٩
سورة الزخرف		
﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ...﴾	١٣ ، ١٤	١١٦
﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾	١٩	٨٤
﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...﴾	٤٣ ، ٤٤	١٢٧
سورة الدخان		
﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ...﴾	٣٢ ، ٣٣	٥٩
سورة الجاثية		
﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾	٣٦ ، ٣٧	١١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحقاف		
﴿ أَتُؤْتِي بِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُهُ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾	٤	٨٤
سورة الفتح		
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾	١	٢٢٩
سورة الحجرات		
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾	١٠	١٦٥ ، ١٣٥
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ... ﴾	١١	٧٣
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴾	١٢	٧٣
﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ... ﴾	١٣	١٦٠ ، ٧٥ ، ٥٦
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ... ﴾	١٥	٢٢٠
سورة ق		
﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ... ﴾	٣١ - ٣٣	١٠١
سورة الذاريات		
﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَإِلَاسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ... ﴾	١٧ - ١٩	١٤٠
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ ... ﴾	٥٦ - ٥٨	١٠٠
سورة النجم		
﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ... ﴾	١ - ٦	٧٩
﴿ إِن يَنْتَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾	٢٨	١٧١
﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... ﴾	٢٩ ، ٣٠	١٠٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القمر		
﴿ سَيُزَمُّ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾	٤٥ ، ٤٦	١٧٨
﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾	٤٩	٦٧
سورة الرحمن		
﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾	١ - ٤	٧٠
﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ... ﴾	٧ - ٩	١١ ، ١١٢ ، ٢٦٤
سورة الحديد		
﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ... ﴾	٤	٦٨
﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾	١٦	٦٩
﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾	٢٥	٢٣٢
سورة المجادلة		
﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴾	٢٢	١٣٦ ، ٢٦٠
سورة الحشر		
﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾	٧	١٠٦
سورة الممتحنة		
﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقِنِلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِينِكُمْ ... ﴾	٨ ، ٩	١٣٣ ، ٢٥٩
سورة التحريم		
﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا يُجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾	٧	٥٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الملك		
﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾	٣	٦٧
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	١٤	٨١
سورة القلم		
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	٤	١٢٣
سورة المعارج		
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ...﴾	١٩ - ٢٣	١١٧
سورة نوح		
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ...﴾	١٠ - ١٢	١٠٥
﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾	١٤	٤٠
سورة المزمل		
﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلَاثُهُ ...﴾	٢٠	١٨٠، ٢٢٤
سورة الإنسان		
﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾	٣	٧٠
﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ...﴾	٧ - ١٠	١٠٢، ١٤٠
سورة النازعات		
﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ...﴾	٣٧ - ٤١	١٠٠، ١٠٤
سورة التكويد		
﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَمِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ﴾	٨، ٩	٢٣٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشمس		
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَلَمْهَمَّهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا...﴾	١٠ - ٧	١٧٤ ، ١٤١
سورة الضحى		
﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾	٨	١٠٤
سورة التين		
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾	٤	٧٠
سورة العلق		
﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ...﴾	١ - ٥	٧٧ ، ٧١
سورة البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾	٥	١١٦
سورة الزلزلة		
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ...﴾	٧ ، ٨	١٠٠
سورة الماعون		
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ...﴾	١ - ٧	١٢٥
سورة الكافرون		
﴿قُلْ يَتَّيْنَاهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...﴾	١ - ٦	١٣٠ ، ٥٢
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾	٦	١٥٩ ، ٢٣
سورة الإخلاص		
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ...﴾	١ - ٤	٦٧



فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



رقم الصفحة	الحديث
	أ
١٢٠	آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوّتمن خان
١٦٤	ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك
١٤٣	أبغض الحلال إلى الله الطلاق
٢٣٠	اتركوا التُّرك ما تركوكم، ودعوا الحبشة ما ودعوكم
٢٣٠	أحبُّ الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن. وأصدق الأسماء
١٨٣	أحصوا لي عدد من يلفظ بالإسلام
١٦٤	أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، لترد على فقرائهم
٣٥	إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم
١٢١	أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن
٢٢١	أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر
١٨٩	أفلح إن صدق. أو: دخل الجنة إن صدق
١٨٣	اكتبوا لي
٥٠	اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبق منهم أحدا
٥٠	اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم
١٠٤	اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى

رقم الصفحة	الحديث
١٣٦	اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون
٥٠	اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب
١٣٢، ٧٤	أليست نفسا؟
٢٤٣	«أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»...
٩٦	أن الله ما أنزل داء إلا جعل له شفاء
١٠٢	أن بغيا سقت كلبا يأكل الثرى من العطش
٥٨	إن الله تعالى لم يجعل لمسوخ نسلا، ولا عقبا
١٠٨	إن الله تعالى محسن فأحسنوا
١٧٢، ٢٦	إن الله تعالى يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها دينها
١٣٤، ١٢٣، ١١٠	إن الله جميل يحبُّ الجمال! الكبر بَطَرُ الحقِّ وغمط الناس
٢١٥	إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا
١٢٣، ١٠٨	إن الله كتب الإحسان على كل شيء
١٠١	إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم
١٠٨	إن الله يحبُّ أحداكم إذا عمل عملا أن يتقنه
١٩٠	إن الله يحبُّ أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته
١٠٩	إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده
١٠٨	إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة
٢٢٤	إن كان خرج يسعى على ولده صغارا، فهو في سبيل الله
١١٠	إن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا
٢٤٥	إن المرأة خلقت من ضلع
٥	إن منكم منفرين، فأياكم ما صلى بالناس فليتجوز



رقم الصفحة	الحديث
١٠٥	إنك أن تذر ورثتك أغنياء: خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس
٣٨، ٢١	إنك تقدم على قوم أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه
١٠٨	إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى
١٨٩، ٣١	إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين
٢٣٥	إنما النساء شقائق الرجال
١٣٥	إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا شريك له
١١٨، ٤٠	الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله
٧٤، ٥٥	أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم
ب	
١٨٨	بعثت بحنيفية سمحة
ج	
٢٢١	جاهدوا المشركين بأيديكم وأموالكم
١٤٢	الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان
د	
١٣٤	داء الأمم
٧٣	دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها
١٥٣	دعهم يا عمر
١٥٣	دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا
٧١	الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة
١٥٣	دونكم بني أرفدة

الحديث	رقم الصفحة
ر	
ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع	١١٨
س	
السبع الموبقات	١٠٦
ص	
صدقك وهو كذوب	٩٤
الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي	١١٨
ط	
طلب العلم فريضة على كل مسلم	٢٣٧
ف	
فتبسم النبي ﷺ	١٨٨
في كل كبدٍ رطوبة أجر	١٠٢
ق	
قتلوه، قتلهم الله! هلا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال	١٨٨
قد أجرنا من أجرنا يا أم هانئ	٢٣٨
قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها	٢٢٢، ١٨٠
قُل: آمَنت بالله. ثم استقم	١٥٠
ك	
كان خلقه القرآن	١٢٣
كلُّ ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون	١٤٣



الحديث	رقم الصفحة
ل	
لا تبدؤوهم بالسلام، واضطروهم إلى أضيق الطريق	٢٥٩
لا تتمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا	٢٢٩
لا تذكروا هلكاكم إلا بخير	٧٣
لا تسبوا الموتى فإنهم أفضلوا إلى ما قدموا	٧٣
لا تكن عونًا للشيطان على أخيك	٤٤
لا تكونوا إمعة: تقولون: إن أحسن الناس أحسنًا، وإن ظلموا ظلمنا	٨٥
لا تلعه فإنه يحبُّ الله ورسوله	٤٤
لا طلاق ولا عتاق في إغلاق	٢٤١
لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا	٢١٤
لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	١٠٩
لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه	١٣٥ ، ١١٩
لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمُر النَّعَم	٥
لَزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم	٧٢
لم أؤمر بذلك	٢٢٢
لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرتُ بقتلها	١٦٢
ليس بمؤمن من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع	١٦٥ ، ١١٩
م	
ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حَرَّم فهو حرام	٨٢
ما أكل أحد طعاما قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده	١٠٧

رقم الصفحة	الحديث
١٢٨	ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تستشعلوا لي منها شعلة
١١١	ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء
١٤٠	ما تقرب إليَّ عبدي بأفضل مما افترضت عليه
٢٤٥	ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب للب الرجل الحازم منكن
٢١٤	ما كانت هذه تقاتل
١٠٧	ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير
١٠٤	ما نفعني مال كمال أبي بكر
٢٢١	المجاهد من جاهد هواه
١٦٥	المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه
١٦٥	المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم
١٨٩	مَنْ أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا
١٩٠	من أَمَّ الناس فليخف فإن من ورائه الكبير والمريض وذو الحاجة
٧٧	من بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه
٢٢٢	مَنْ جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومَنْ جاهدكم بلسانه فهو مؤمن
٣٣	مَنْ جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا
٢٢١	مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله
٧٢	من قتل معاهدًا - أي غير مسلم - لم يَرَح رائحة الجنة
١١٩	مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه
١١٨	مَنْ لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه



الحديث	رقم الصفحة
ن	
نعم المال الصالح للمرء الصالح	١٠٥
نعم هو فتح	٢٢٩
نهى عن قتل النساء والصبيان	٢١٤
هـ	
هذا أحد، جبل يحبنا ونحبه	١٣٥
هل لك أم؟ قال: نعم. قال: «الزمها، فإن الجنة عند رجلها»	٢٤٣
هَلَّا كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو	١٥٣
هي من قدر الله	١١١
و	
والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا	١١٩
والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري	١٢٨
وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس كافة	١٥٨
ولا تَعْلُوا ولا تغدروا ولا تمثلوا	١٣٢
ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه	١٥٠
ي	
يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟	١٨٢
يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد	١٦٠
يا حنظلة، لو بقيتم على الحالة التي تكونون فيها عندي	١٥٢



رقم الصفحة	الحديث
٧٧	يا فاطمة بنت محمد، اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً
٢٠٧	يد الله مع الجماعة
١٦٤	اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول
١١٨	يَدَعُ طعامه من أجلي، ويدع شهوته من أجلي، ويدع زوجته من أجلي
٥، ٣٥، ٥٩، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٢	يسرّوا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا

* * *



فهرس الموضوعات

- ❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٤
- ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥
- مقدمة ٧
- خطابنا الديني في عصر العولمة ١٥
- ❖ تمهيد: هل يتغير الخطاب الديني؟ ١٧
- المقصود بالخطاب الديني أو الإسلامي ١٧
- هل يتغير الخطاب من عصر إلى آخر؟ ١٩
- القرآن نفسه دليل تغير الخطاب ٢٤
- مشروعية تجديد الدين ٢٦
- ترشيد الصحوة ٢٨
- هذه الخطوط العشرة التي تنتقل بها الصحوة ٢٨
- ❖ منهج الخطاب الديني كما رسمه القرآن ٣١
- معالم المنهج المطلوب للدعوة للخطاب الديني ٣٢
- ١ - الدعوة واجب كل مسلم ٣٢
- ٢ - دعوة ربانية إلى منهج الله ٣٣

- ٣ - دعوة الناس بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ٣٤
- أسلوب الحكمة ٣٤
- تكليم الناس بلسانهم ٣٥
- أخذ الناس بالرفق ٣٥
- المحافظة على مراتب الأعمال ونسبها الشرعية ٣٥
- رعاية سنة التدرج ٤٠
- أسلوب الموعظة الحسنة ٤٣
- مخالفة كثير من الخطاب الديني للمنهج القرآني ٤٦
- من يعيشون في غير عصرهم ٤٦
- ٤ - حوار المخالفين بالتي هي أحسن ٤٧
- الأدعية الاستفزازية ٤٩
- «غير المسلمين» بدل «الكفار» ٥١
- «مواطنون» بدل «أهل الذمة» ٥٤
- التعبير بالأخوة عن العلاقات الإنسانية ٥٥
- أحفاد القردة والخنازير ٥٨
- تحريف الإسلام مرفوض ٦٠
- خصائص الخطاب الإسلامي في عصر العولمة ٦٣
- ❖ خصائص خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ٦٥
- ❖ يؤمن بالله ولا يكفر بالإنسان ٦٧
- موقف خطابنا الديني ٧٧
- ❖ يؤمن بالوحي ولا يغيب العقل ٧٩
- موقف خطابنا الديني ٩٤



❖ يدعو إلى الروحانية ولا يهمل المادية ٩٩

ماذا يعني الجانب الروحي؟ ١٠٠

لا إغفال للجانب المادي ١٠٢

الاهتمام بالدنيا وعمارتها ١٠٣

نعم المال الصالح للمرء الصالح ١٠٤

الاستمتاع بالطيبات ١٠٩

العناية بالجسم ١١٠

موقف خطابنا الديني ١١٢

❖ يعنى بالعبادات الشعائرية ولا يُغفل القيم الأخلاقية ١١٥

الإسلام أكثر الأديان اهتمامًا بعبادة الله وحده ١١٥

العبادة المقبولة هي التي تزكي النفس ١١٦

الأخلاق والفضائل من ثمرات الإيمان ١١٨

شمول الأخلاق الإسلامية ١٢١

عموم الأخلاق في الإسلام ١٢٢

موقف خطابنا الديني ١٢٤

❖ يدعو إلى الاعتزاز بالعقيدة، وإلى إشاعة التسامح والحب ١٢٧

الدعوة إلى التسامح مع المخالفين ١٢٩

الأساس العقائدي والفكري للتسامح الإسلامي ١٣٠

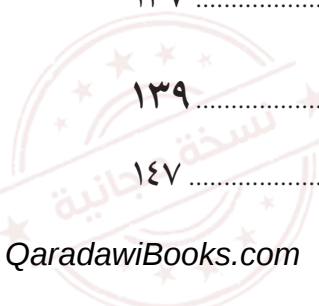
دستور العلاقة مع غير المسلمين ١٣٣

الدعوة إلى الحب ١٣٤

موقف خطابنا الديني ١٣٧

❖ يغري بالمثل ولا يتجاهل الواقع ١٣٩

موقف الخطاب الديني ١٤٧



- ❖ يدعو إلى الجِد والاستقامة ولا ينسى اللهو والترويح ١٤٩
- موقف خطابنا الديني ١٥٤
- ❖ يتبنى العالمية ولا يُغفل المحلية ١٥٧
- بين العولمة والعالمية ١٦٠
- الاهتمام بالواقع المحلي ١٦٣
- موقف الخطاب الديني ١٦٥
- ❖ يحرص على المعاصرة ويتمسك بالأصالة ١٦٩
- من سمات المعاصرة ١٧٠
- العقلية العلمية ١٧٠
- التجديد ١٧١
- التجديد لا يعني التنكُّر للقديم ١٧٢
- المرونة والتطور ١٧٣
- ثبات الأهداف وتطور الوسائل ١٧٤
- موقف الخطاب الديني ١٧٥
- ❖ يستشرف المستقبل، ولا يتنكر للماضي ١٧٧
- القرآن الكريم والمستقبل ١٧٧
- الرسول والمستقبل ١٨٠
- لا يتنكر للماضي ١٨٣
- موقف خطابنا الديني ١٨٥
- ❖ يتبنَّى التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوة ١٨٧
- ترجيح التيسير على التعسير في الفقه ١٨٧
- التشديد في الأصول ١٩١
- التبشير في الدعوة ١٩٢
- موقف خطابنا الديني ١٩٤



- ❖ ينادي بالاجتهاد ولا يتعدى الثوابت ١٩٧
- معالم وضوابط للاجتهاد المعاصر ٢٠٢
- أولاً: لا اجتهاد بغير استفراغ الوسع ٢٠٢
- ثانياً: لا محل للاجتهاد في المسائل القطعية ٢٠٣
- ثالثاً: لا يجوز أن نجعل الظنيات قطعيات ٢٠٤
- رابعاً: الوصل بين الفقه والحديث ٢٠٤
- خامساً: الحذر من الوقوع تحت ضغط الواقع ٢٠٥
- سادساً: الترحيب بالجديد النافع ٢٠٦
- سابعاً: ألا نغفل روح العصر وحاجاته ٢٠٦
- ثامناً: الانتقال إلى الاجتهاد الجماعي ٢٠٧
- تاسعاً: لنفسح صدورنا لخطأ المجتهد ٢٠٩
- موقف خطابنا الديني ٢١٠
- ❖ ينكر الإرهاب الممنوع ويؤيد الجهاد المشروع ٢١٣
- الإرهاب المرفوض والإرهاب المفروض ٢١٣
- الإرهاب ظاهرة عالمية ٢١٨
- الجهاد المشروع ومعناه ٢١٩
- الفرق بين الجهاد والقتال ٢٢٠
- غاية الجهاد ٢٢١
- مراتب الجهاد وأنواعه ٢٢١
- جهاد الدعوة والتبليغ ٢٢٢
- جهاد الصبر والثبات ٢٢٣
- السعي على المعيشة جهاد ٢٢٣
- تنمية قدرات الأمة العلمية والاقتصادية جهاد ٢٢٤
- الجهاد بمعنى القتال ٢٢٥

- ١ - جهاد الطلب (الحرب الوقائية) ٢٢٥
- ٢ - جهاد الدفع (مقاومة المحتلّين) ٢٢٦
- ٣ - جهاد الإعداد والإرصاد ٢٢٧
- رغبة الإسلام في السلم ٢٢٩
- موقف خطابنا الديني ٢٣٠
- ❖ ينصف المرأة ولا يجور على الرجل ٢٣٣
- الإسلام يحرم المرأة من ظلم الجاهلية ٢٣٣
- الإسلام ينصف المرأة إنساناً ٢٣٤
- المرأة بنتاً ٢٣٨
- المرأة زوجة ٢٣٩
- المرأة أمّاً ٢٤٣
- المرأة عضواً في المجتمع ٢٤٤
- موقف خطابنا الديني ٢٤٥
- ❖ يحفظ حقوق الأقلية ولا يحيف على الأكثرية ٢٤٧
- كيف تحل مشكلة الأقليات الدينية؟ ٢٤٨
- موقف خطابنا الديني ٢٥٩
- خاتمة ٢٦٣
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٢٦٩
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٢٨٩
- فهرس الموضوعات ٢٩٧

* * *

فهرس كتب المجلد

- ٨- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ٥
- ٩- ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق ٢٦١
- ١٠- خطابنا الإسلامي في عصر العولمة ٤٠٣

* * *